الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم العلوم الاجتماعية
شعبة: الأنثروبولوجيا
تخصص: أنثروبولوجيا اجتماعية وثقافية

عنوان الأطروحة:

دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية: "قصبة الجزائر أنموذجًا"

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (LMD) في شعبة الأنثروبولوجيا
تخصص أنثروبولوجيا اجتماعية وثقافية

إعداد الطالبة:
– خازن زعرة

إشراف الأستاذ:
د. جمال الدين بن سليمان

الصفة	الجامعة	الرتبة	الاسم واللقب	الرقم
مشرفا ومقررا	محمد خيضر بسكرة	أستاذ	جمال الدين بن سليمان	01
مشرفا ومساعدا	محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر (أ)	سليم درنوني	02
عضوا مناقشا	محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر (ب)	مليكة برواق	03
عضوا مناقشا	تبسة	أستاذ	نورالدين جفال	04
عضوا مناقشا	غرداية	أستاذ	عاشور سرقمة	05
عضوا مناقشا	محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر (أ)	أحمد بوطبة	06

السنة الجامعية:

2025/2024

- **ملخّص الأطروحة**

تندرج هذه الأطروحة ضمن الحقول المعاصرة للأنثروبولوجيا الثقافية التي تعيد مساءلة مفهوم التراث خارج اختزاله في البعد التوثيقي أو المعماري، وتنقله إلى مستوى الفعل الاجتماعي المنتج للمعنى. وانطلاقًا من عنوانها «دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية: قصبة الجزائر نموذجًا»، لا تتعامل الدراسة مع التراث بوصفه معطى ثابتًا أو مخزونًا رمزيًا جاهزًا للاستعراض، بل بوصفه سيرورة اجتماعية تُعاد صياغتها باستمرار داخل التفاعل بين الجماعة المحلية ومجالها الحضري وتاريخها المتراكم. وفي هذا الإطار، تم تناول قصبة الجزائر، المصنفة ضمن قائمة التراث العالمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة منذ سنة 1992، باعتبارها فضاءً أنثروبولوجيًا مركبًا تتشابك فيه البنى العمرانية، والذاكرة الجمعية، وأنماط العيش، وشبكات القرابة، والتمثلات الرمزية، ضمن وحدة حضرية كثيفة الدلالات.

اعتمدت الدراسة مقاربة أنثروبولوجية تكاملية جمعت بين البحث الميداني بالملاحظة بالمشاركة، والمقابلات المعمقة، وتحليل الخطاب المحلي والرسمي، إلى جانب التأصيل النظري لمفهوم «التراث الحي» بوصفه أداة تحليلية تتجاوز المقاربات التقنية–الترميمية، وقد مكّن هذا الإطار من قراءة القصبة لا كموقع أثري، بل كنسق ثقافي ديناميكي تُنتج داخله المعاني عبر الممارسة اليومية، وتُعاد داخله صياغة الهوية عبر التفاوض الرمزي المستمر، ومن ثمّ تم تحليل التراث عبر مستويات متداخلة: إيكولوجية تكشف علاقة الإنسان بالمجال؛ عمرانية تفكك دلالات التنظيم الفضائي؛ اجتماعية ترصد أنماط التضامن والتراتبية؛ طقوسية تبرز وظائف الاحتفال والشعائر ؛ وسيميولوجية تحلل العلامات وأنظمة المعنى، وقد أُولي اهتمام خاص بالتراث اللامادي باعتباره المجال الأكثر هشاشة أمام التحولات البنيوية، وفي الوقت ذاته الحقل الأكثر قدرة على الكشف عن آليات المقاومة الرمزية وإعادة إنتاج الذات الجماعية.

أظهرت النتائج أن قصبة الجزائر تعيش مفارقة بنيوية حادة: فهي من جهة تختزن رأسمالًا ثقافيًا كثيفًا ومتعدد الطبقات، ومن جهة أخرى تعاني من اختلالات في السياسات العمومية تُغلب منطق الحفظ المادي على حساب الاستمرارية الاجتماعية، كما بيّنت المعطيات أن العلاقة بين السكان وتراثهم ليست علاقة تطابق ساكن، بل علاقة تفاوض ديناميكي يعاد فيها تأويل الرموز وفق متغيرات الاقتصاد الحضري

وضغوط السياحة وتمثلات الدولة للتراث، فالهوية الثقافية هنا لا «تُبرز» بشكل آلي، بل تُنتج عبر ممارسات يومية، وخطابات، واستراتيجيات تموضع اجتماعي تستبطن الذاكرة وتعيد توظيفها في الحاضر.

ورصدت الأطروحة كذلك بروز مبادرات أهلية وثقافية تسعى إلى إعادة تفعيل التراث خارج الأطر البيروقراطية، من خلال الحرف التقليدية، والأنشطة الفنية، وإحياء الطقوس والمناسبات المحلية، بما يعيد وصل التراث بوظيفته الاجتماعية والاقتصادية والرمزية. وفي هذا السياق، نوقشت السياحة الثقافية كأفق استراتيجي محتمل، شريطة أن تُصاغ ضمن تصور تشاركي يدمج الجماعة المحلية بوصفها فاعلًا منتجًا للمعنى لا موضوعًا للعرض والاستهلاك.

تخلص الدراسة إلى أن الانتقال من منطق «إبراز» الهوية إلى منطق «إنتاجها» يقتضي إعادة تعريف التراث بوصفه رأسمالًا ثقافيًا حيًا، تتحدد قيمته بقدرته على الاستمرار داخل الفعل الاجتماعي، وعليه، تدعو الأطروحة إلى تجاوز السياسات الظرفية نحو استراتيجيات مستدامة تشرك السكان والمؤسسات الأكاديمية والثقافية في بناء علاقة متوازنة بين الحفظ والاستمرارية، فقصبة الجزائر ليست مجرد معلم مهدد، بل حقل دلالي كثيف يعكس مسار مجتمع يعيد صياغة ذاته في سياق تحولات عالمية عميقة، حيث يصبح التراث ليس فقط ذاكرة للماضي، بل أداة لإنتاج الحاضر وأفقًا لإعادة تعريف الهوية الثقافية الجزائرية.

شكر وعرفان

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خير من علّم الإنسانية معنى الكلمة، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين. الحمدالله حمدًا لا ينقضي، وشكرًا لا يُحصى، فهو سبحانه صاحب المنة والفضل، وبنوره تستبين السبل، وبتوفيقه تُختتم الأعمال:

أتقدّم بأسمى عبارات الشكر والامتنان، وأرفع أطيب معاني التقدير والعرفان إلى أستاذي ومشرفي الفاضل الدكتور جمال الدين بن سليمان، الذي كان أكثر من موجّه علمي، بل كان نِعم السند والعقل الراجح في دروب البحث المتعرّجة. لقد كان لثاقب رأيه، ودقة ملاحظاته، وصبره الكريم على ما وُجِد من عثرات، الأثر البالغ في استقامة هذا العمل وخروجه على هذا النحو. فله مني عظيم الامتنان، وجزيل الدعاء بأن يجزيه الله خير الجزاء.

كما لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجّه بالشكر والعرفان إلى كل أساتذة شعبة الأنثروبولوجيا بجامعة تبسة، الذين كان لهم الفضل في غرس بذور الفكر العلمي، وإشعال فتيل السؤال النقدي، وفتح أبواب المعرفة أمامي بلا كلل ولا ملل. كانوا مشاعل نور في مسيرتي، وحُماة للمعرفة في زمن تزداد فيه الحاجة إلى المعنى.

كما أتقدّم بشكرٍ عميقٍ إلى كل من علّمني حرفًا، أو قدّم لي مشورة، أو فتح لي بابًا من أبواب المعرفة، سواء في جامعة بسكرة أو خارجها، وإلى كل من مدّ لي يد العون، ولو بكلمة، ولو بدعاء، فله في هذا العمل نصيب.

ولا يفوتني أن أخصّ بالشكر زملائي في دفعة الدكتوراه 2022/2021، رُفقاء الرحلة، وحملة الهدف المشترك، متمنّية لهم جميعًا بلوغ قمم العلم والتميز، لكل من واصل الطريق بثبات، ولكل من شارك ولو بكلمة طيبة أو دعم معنوي.

وختامًا، إلى كلّ من آمن بأهمية هذا الموضوع، وفتح لنا قلبه وذاكرته خلال البحث الميداني، أقول: إن هذا العمل ثمرة ثقة صادقة، وعهدٌ بأن يبقى للتراث من يحمل قضاياه ويعيد له صوته.

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وبه تُختم الكلمات.

خازن زعرة

إهداء

أهدي عملي هذا إلى:

- **نفسي ...**

الى تلك التي عافرت وتعبت لتحقيق الحلم،

صمدت حين كان الطريق موحشا،

وآمنت بنفسها حين خذلتها الظروف،

فكانت العزم حين ضعف كل شيء،

- **والى ابنائي..**

رفقاء دربي، ونور ايامي،

الذين تحملوا معي الغياب والانشغال،

وصبروا على التعب وكانوا لي السند المعنوي والدافع للاستمرار،

فبهم اشتد ظهري، وبحبهم اكتمل النجاح.

خازن زعرة

فهرس

المحتويات

فهرس المحتويات

- **ملخّص الأطروحة..... ..... /**

مقدمة..... 1

الفصل الأول: الإطار النظري والمنهجي للدراسة 17

أولا. إشكالية الدراسة:..... 17

ثانيا: أهمية الدراسة..... 23

ثالثا: أهداف الدراسة..... 25

رابعا: طبيعة الموضوع:..... 27

خامسا: المناهج والأدوات المستخدمة في الدراسة:..... 28

سادسا: فضاءات الدراسة:..... 33

سابعا: المقاربة النظرية:..... . 35

ثامنا: مفاهيم الدراسة..... 51

تاسعا: الدراسات السابقة: 57

الفصل الثاني: مدخل إيكولوجي لمنطقة الدراسة 45

تمهيد:..... 45

أولا: الخصائص الجغرافية والطبيعية لقصبة الجزائر:..... 46

ثانيا: المعالم المعمارية والأنماط البنائية في قصبة الجزائر..... 48

ثالثا: الموارد البيئية وتأثيرها على نمط الحياة في قصبة الجزائر 54

رابعا: الموارد المائية وارتباطها بتطور القصبة: دور العيون المائية والآبار التاريخية في حياة سكان القصبة وتكيفهم البيئي..... 57

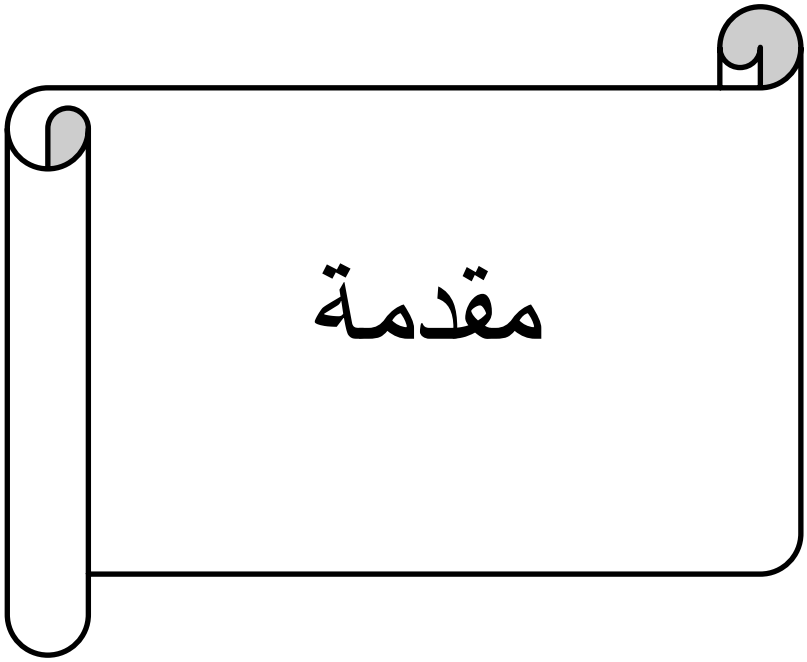
خامسا: الممارسات اليومية المرتبطة بالحفاظ على الموارد البيئية: استعراض ممارسات أهل القصبة في احترام البيئة واستدامة الموارد المتاحة..... 59
سادسا: التحديات البيئية المعاصرة وتأثيرها على قصبة الجزائر: تأثير التوسع الحضري والتغيرات البيئية الحديثة..... 61
سابعا: الجهود والمبادرات لحماية الخصوصية الإيكولوجية للقصبة: استعراض المبادرات المحلية والوطنية..... 66
ثامنا: جوانب أهمية الحفاظ على قصبة الجزائر: 69
خلاصة الفصل:..... ..... **72**
الفصل الثالث: التراث المادي لقصبة الجزائر: بين الحضور والاندثار..... **46**
تمهيد:..... ..... **46**
أولا: العمران في قصبة الجزائر 47
ثانيا: الحضارات التي أثّرت في عمران القصبة..... 52
ثالثا: التلاقح الحضاري في القصبة: طبقات من الهوية وتجذّر محلي عميق 62
رابعا: الخصائص المعمارية للقصبة..... 64
خامسا: الاحتلال الفرنسي ومحاولات طمس المعالم الدينية ومظاهر المقاومة المحلية..... 86
سادسا: جهود الترميم والمحافظة على هذه الصروح الدينية في العصر الحديث 88
سابعا: العناصر الزخرفية كحصيلة ثقافية لمتتالية تأثيرات حضارية..... 89
خلاصة الفصل الثالث: **94**
الفصل الرابع: التراث اللامادي في قصبة الجزائر **96**
تمهيد:..... . **96**
أولا: حمامات القصبة: عمارة الماء والتقاليد الاجتماعية..... 98
ثانيا: أسواق القصبة العتيقة: أنثروبولوجيا المكان وذاكرة التراث الحي..... 112

ثالثا: الحرف التقليدية والرموز اليومية في قصبة الجزائر..... 121
ثالثا: النسيج التقليدي في القصبة: خيوط تحوك الذاكرة الجماعية..... 127
رابعا: الإكسسوارات في قصبة الجزائر: حين تتكلم الزينة لغة الهوية..... 131
خامسا: زينة الأطفال في قصبة الجزائر: حماية تزهوبالجمال..... 134
سادسا: الختان والحلاقة في قصبة الجزائر: طقوس العبور بين الطفولة والرجولة 136
سابعا: الزواج: طقس العبور نحو النضج الاجتماعي..... 139
ثامنا: مطبخ قصبة الجزائر: نكهات الأصالة وعبق التقاليد..... 140
تاسعا: الموروث الشفهي للقصبة..... 146
الفصل الخامس: تراث القصبة بين الماضي والحاضر..... 173
تمهيد:..... 173
أولا: أهمية القصبة في السياق الثقافي..... 173
ثانيا: الحاضر المعقد: تحديات البقاء والاستمرار..... 175
ثالثا: محاولات الإحياء والحفاظ..... 176
رابعا: نماذج من التراث المهدد والمحفوظ..... 176
خامسا: رؤية مستقبلية: التوازن بين الأصالة والمعاصرة..... 177
خامسا: القصبة، جسر بين الماضي والمستقبل..... . 178
سادسا: السياحة الثقافية كفرصة: كيف نُعرّف بالقصبة؟..... . 182
سابعا: قصبة الجزائر في السياسات الثقافية: حضور أم غياب؟..... . 189
ثامنا: نحو إنقاذ التراث الحيّ: توصيات واستشراف..... 191
خلاصة الفصل الخامس: 194
نتائج الدراسة:..... 197
خاتمة:..... 201

المقترحات:..... 203

قائمة المراجع..... 204

قائمة الملاحق:..... 214


مقدمة

مقدمة

في خضم التغيرات العميقة التي يشهدها العالم المعاصر، تُطرح مسألة الهوية الثقافية بوصفها إحدى أبرز التحديات التي تواجه المجتمعات، لاسيما تلك التي تقف على مفترق طرق بين الأصالة ومتطلبات الحداثة. لم تعد الهوية مجرد انتماء تاريخي أو موروث جغرافي، بل غدت بنية رمزية متعددة المستويات، تتشكّل وتُعاد صياغتها باستمرار، بفعل التحولات الاجتماعية، والعولمة، والتقدم التكنولوجي. وفي هذا السياق، بات الحفاظ على التراث – لا باعتباره مجرد رصيد ماضوي، بل كمنظومة قيم وأنماط عيش ورؤى للعالم – ضرورة أنثروبولوجية وثقافية ملحّة.

لقد أظهرت الدراسات الأنثروبولوجية أن التراث بشقّيه المادي واللامادي، ليس مجرد مجموع من الأشياء أو الطقوس، بل هو ممارسة ثقافية حية، و" نظام معنى" يتفاعل مع البيئة والسياق الاجتماعي والسياسي والرمزي. هو أداة جماعية لإنتاج المعنى، وطريقة المجتمع في قول نفسه، وتأطير علاقته بالزمن الماضي والمستقبل، والمكان، والآخر، كما يُعدّ التراث من أبرز الوسائط التي يُعاد من خلالها إنتاج الهوية وتماسك الجماعة، خاصة في الأوقات التي تشهد اضطرابات أو تحولات. فحين تتعرض المجتمعات لضغوط الانسلاخ أو الاستلاب الثقافي، فإنها غالبًا ما تلجأ إلى تراثها بوصفه سندًا وجوديًا وسرديًا.

إن الجزائر، كغيرها من دول الجنوب، تواجه في الحاضر تحديات كبرى تتعلق بإعادة بناء هويتها الوطنية في ظل تاريخ استعماري عنيف، وحاضر اجتماعي هش، ومستقبل مفتوح على احتمالات متناقضة، ويُعدّ التراث الجزائري أحد أبرز مجالات الصراع والتفاوض حول المعنى: كيف نحفظه؟ من يمتلك حق تمثيله؟ وهل نُعيد إنتاجه كما هو، أم نُعيد تأويله بما يخدم المعاصرة؟، ضمن هذا الإطار، تبرز قصبة الجزائر لا كموقع أثري فقط، بل كنسيج حضري واجتماعي وروحي يُجسّد تعقيد الهوية الجزائرية وتعدديتها وتاريخها المقاوم.

القصبة ليست مجرد حيّ قديم في قلب العاصمة، بل هي نقطة تقاطع لأنظمة رمزية متنوعة: الأمازيغي، والعثماني، والإسلامي، والمتوسطي، والمعماري، والشعبي. هي ذاكرة مبنية، و"أرشيف حي" لزمن اجتماعي تحوّل، لكنها ما تزال ترويه من خلال حيطانها، وحمّاماتها، وأسواقها، وزواياها، وصيحات

بائعيها، واغاني نسائها. كما تُعتبر القصبة **فضاءً** سوسيومعرفيًا مكثفًا، يُمكن من خلاله تفكيك العلاقة بين الفرد والمجتمع، بين المعمار والمعنى، بين الذاكرة والمكان.

لكن هذا التراث، رغم غناه، مهدّد بالاندثار، لا فقط بفعل الإهمال، بل أيضًا بسبب تمثلات السلطة، وضعف السياسات الثقافية، واستراتيجيات التنشيط السياحي المفرغة من البعد المجتمعي، كما أن عمليات الترميم لا تتم غالبًا بمنطق أنثروبولوجي– ثقافي، بل بمنظور تقني يختزل القصبة في مبنى دون روح. هنا تحديدًا، تبرز الحاجة إلى مقاربة علمية شاملة، تُنصت لصوت السكان، وتُفكك ديناميكيات التحوّل، وتُعيد الاعتبار للتراث كحقل للمعنى وللهوية في آنٍ معًا.

تأتي هذه الأطروحة لتستجيب لهذه الحاجة، عبر مساءلة التراث القصباوي في أبعاده المادية واللامادية، لا بوصفه ماضٍ يجب حفظه فقط، بل كمخزون حيوي يُسهم في تشكيل الحاضر وصناعة المستقبل. تسعى الدراسة إلى فحص كيف يُعيد المجتمع المحلي إنتاج هويته عبر ممارسات الحياة اليومية، والرموز، والمناسبات، والطقوس، والمعمار، واللغة، والأسواق، والمأكولات. وتُركّز على البعد الأنثروبولوجي للتراث من خلال ملاحظة الفعل الاجتماعي داخل فضاء القصبة، وتحليل الروايات المحلية، وتمثلات السكان، وآليات التفاعل بين الموروث والمتغير.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على منظور أنثروبولوجي متعدد المستويات، يجمع بين قراءة البُنى الثقافية وتمثّلات الهوية، وبين تحليل المعيش اليومي داخل الفضاء القصباوي، من خلال توظيف منهج اثنوجرافي مكثف ميداني ارتكز على الملاحظة المباشرة والانخراط الطويل في الميدان، إلى جانب المنهج المقارن الذي سمح بقراءة وضعية قصبة الجزائر ضمن سياقات ثقافية مشابهة، والمنهج التاريخي الذي أتاح تتبع التحولات الطويلة التي طرأت على النسيج الاجتماعي والعمراني والتراثي للقصبة. وقد تم اعتماد مجموعة من الأدوات الاثنوجرافية التي تنوعت بين ما هو كيفي وبصري، لتوفير قراءة متعددة الزوايا لواقع الحياة الثقافية والاجتماعية في قصبة الجزائر؛ في مقدّمتها كانت الملاحظة الاثنوجرافية، بوصفها أداة رئيسية في البحث الميداني، تتيح للباحث التفاعل العميق والمباشر مع الأفراد داخل فضائهم اليومي، وتسجيل السلوكيات والطقوس والممارسات الاجتماعية في سياقها الطبيعي، بما يسمح بفهم المعاني المتجذّرة التي لا تُفصح عنها الكلمات دائمًا، وقد رافقتها المقابلة الاثنوجرافية، بنوعيها المفتوح وشبه المفتوح، لتُشكّل امتدادًا للحوار مع الفاعلين الاجتماعيين، والسعي لاستخلاص تصوراتهم الذاتية حول تراثهم، وهويتهم، وعلاقتهم المتحوّلة بالفضاء القصباوي.

أما من الجانب البصري، فقد كانت الاثنوجرافيا المرئية ركيزة مكملة في مقاربة الموضوع، حيث تم توظيف الصورة (الثابتة والمتحركة) كوسيط ثقافي قادر على التقاط الرموز، والإيماءات، وتفاصيل الحياة اليومية التي يصعب توثيقها بالكلمات فقط، وقد ساهم التصوير الفوتوغرافي والفيديو في توثيق التغيرات المعمارية، والتحولات الرمزية، ومظاهر التراث اللامادي كما تتجلى في الجسد، واللباس، والمحيط، ما جعله أداة تحليلية لا مجرد وسيلة توثيقية.

كما كان للإخباريين المحليين دور محوري في هذا المسار، إذ لم يُنظر إليهم كمصادر للمعلومة فقط، بل كحَمَلة للذاكرة الجمعية، ووسطاء بين الباحث والمجتمع، أتاحوا للبحث الولوج إلى مناطق رمزية عميقة، غالبًا ما تبقى عصية على الفهم الخارجي دون وساطة محلية.

وقد أسهم هذا التكامل بين أدوات البحث، في بسط رؤية اثنوجرافية شاملة ومعمّقة، سمحت بتفكيك البُنى الثقافية المتشابكة، والتقاط مظاهر التحول التي يعرفها التراث المادي واللامادي في القصبة، على خلفية التبدلات الاجتماعية والاقتصادية والرمزية التي يشهدها المجتمع المحلي.

هكذا، فإن أهمية هذه الدراسة لا تكمن فقط في كونها تركز على تراث مدينة ذات بعد رمزي وتاريخي في المخيال الوطني الجزائري، بل أيضًا في كونها تحاول إعادة طرح سؤال الهوية من خلال التراث، عبر أدوات الأنثروبولوجيا الثقافية، مستندة إلى معطيات ميدانية وتحليل نظري معمّق، في أفق استشراف مستقبل تُحفظ فيه الذاكرة دون أن تُختزل، ويُعاد فيه بناء الحاضر دون أن يُبتَر عن جذوره، وانطلاقًا من هذه الخلفية النظرية والمنهجية، ارتأينا أن ننظّم هذه الأطروحة وفق هيكل متكامل يأخذ بعين الاعتبار تعدد مستويات التحليل، وتداخل أبعاد التراث، وتنوع الحقول المعرفية التي تُقارب الهوية الثقافية. فجاء تصميم فصول الدراسة على نحوٍ يُراعي التسلسل المنطقي والعمق الأنثروبولوجي، ويفتح المجال أمام الربط بين ما هو نظري وما هو ميداني، وبين ما هو مادي وما هو رمزي.

وقد قُسّمت الأطروحة إلى خمسة فصول أساسية، إضافة إلى تمهيد نظري ومنهجي، وخاتمة تحليلية وتركيبية، وذلك على النحو التالي:

- **الفصل الأول:** خصص للإطار النظري والمنهجي، حيث تناولنا إشكالية الدراسة، وأهميتها وأهدافها، إلى جانب التحديد الدقيق لمفاهيمها المركزية، واختيار المقاربة النظرية المناسبة، مع عرض للأدوات المنهجية المعتمدة ومبررات استخدامها، والفضاء المكاني والزمني للدراسة.

- **الفصل الثاني:** يمثل مدخلًا إيكولوجيًا لقصبة الجزائر، سعينا فيه إلى تحليل الخصائص الجغرافية والطبيعية للمنطقة، وكيفية تفاعل الإنسان مع بيئته عبر القرون، مع إبراز أبعاد التكيّف المحلي مع الموارد البيئية، خاصة في ظل التحديات البيئية والتحولات الحضرية المعاصرة.

- **الفصل الثالث:** تم تخصيصه لدراسة التراث المادي في القصبة، حيث تم التوقف عند البنية العمرانية، والخصائص المعمارية، والتأثيرات الحضارية المتعاقبة، مع التركيز على دور الاحتلال الفرنسي في طمس المعالم الدينية وإعادة إنتاج الفضاء الرمزي وفق منطق الهيمنة، دون إغفال الجهود المعاصرة في الترميم والحفظ.

- **الفصل الرابع:** تناولنا فيه التراث اللامادي للقصبة، بما يشمله من ممارسات يومية، وحِرف تقليدية، وطقوس اجتماعية، وأسواق، وأمثال شعبية، ومرويات شفوية، ومأكولات ومناسبات، باعتبارها أنماطًا حيوية تُعيد إنتاج الهوية في كل فعل رمزي، كما توقفنا عند آليات نقل هذا التراث بين الأجيال ودوره في الحفاظ على التماسك المجتمعي.

- **الفصل الخامس:** عُني باستشراف العلاقة بين القصبة والمستقبل، من خلال تسليط الضوء على التحديات التي تواجه التراث اليوم، والإمكانات التي توفرها السياحة الثقافية، وأدوار السياسات الثقافية، مع تقديم توصيات عملية تعكس رؤية تكاملية تجمع بين الأصالة والانفتاح، وتحترم السياق المحلي دون عزلة.

وقد خُتمت الأطروحة بعرض نتائج الدراسة في صيغة تحليلية مكثفة، تلخص أهم ما تم التوصل إليه، متبوعة بخاتمة تركيبية تتأمل في مستقبل التراث في الجزائر عمومًا، والقصبة خصوصًا، وتُقترح مسارات عملية لتعزيز الوعي الجماعي بالهوية الثقافية كرافعة للتنمية المستدامة. كما أُلحقت الدراسة بقائمة مفصلة للمراجع والملاحق التوضيحية، توثيقًا للمعاينة الميدانية وللبيانات النوعية المعتمدة.

بهذا التقسيم، تسعى الدراسة إلى الإحاطة الشاملة بالموضوع، وتقديم مقاربة علمية معمّقة لدور التراث في تشكيل الهويات، من خلال رؤية أنثروبولوجية تستنطق الواقع وتُعيد بناء المعنى داخل فضاء حضري له حمولة رمزية كثيفة، مثل قصبة الجزائر.

الفصل الأول

الفصل الأول: الإطار النظري والمنهجي للدراسة

أولا. إشكالية الدراسة:

يُعدّ التراث الثقافي من أهم العناصر المكوّنة للهويات الثقافية للأمم والشعوب، حيث يمثل مجموعة متكاملة من الموروثات المادية واللامادية التي تتجسد من خلال المعالم التاريخية، الفنون، التقاليد، والطقوس التي تنقلها المجتمعات من جيل إلى آخر. في السياق الأنثروبولوجي، يُنظر إلى التراث الثقافي على أنه تجسيدٌ حيّ للذاكرة الجماعية والمخزون الرمزي للمجتمعات البشرية، إذ يحمل في طياته الأنساق الفكرية والمعرفية التي تعبر عن فهم الإنسان لذاته وللعالم من حوله.

إن التراث الثقافي، بمفهومه الواسع، يتجاوز كونه مجرد مجموعة من الأشياء القديمة أو التقاليد المتوارثة؛ فهو يعكس البنية العميقة للثقافة ويُشكل ركيزة أساسية لهوية المجتمع، حيث يمنح الأفراد الشعور بالانتماء إلى سياق تاريخي واجتماعي مشترك. من هذا المنطلق، يُعدّ التراث عنصرًا ديناميكيًا يتفاعل باستمرار مع التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويحافظ على استمرارية الهوية الثقافية من خلال إعادة إنتاج المعاني والرموز التي تشكلها وتغذيها.

على المستوى العالمي، يُعترف بالتراث الثقافي كأداة استراتيجية في تعزيز التفاهم المتبادل بين الثقافات والشعوب، إذ يُسهم في الحفاظ على التنوع الثقافي وحمايته من مخاطر التهميش أو الاندثار. كما يلعب دورًا حاسمًا في تشكيل الوعي الجماعي والذاكرة الجمعية، مما يجعل منه عاملًا أساسيًا في التفاوض حول الهوية الثقافية وفي بناء التضامن الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

من منظور أنثروبولوجي، يمكن القول إن التراث الثقافي لا يقتصر على نقل الماضي إلى الحاضر، بل إنه يعيد صياغة الماضي في ضوء متطلبات الحاضر وتحدياته، مما يمنحه بعدًا مستقبليًا يؤهله لأن يكون أداة فعالة في صياغة الهويات الثقافية التي تستجيب للتغيرات العالمية والمحلية على حد سواء.

في العالم العربي وشمال إفريقيا، يتخذ التراث الثقافي بُعدًا خاصًا يتمثل في كونه أكثر من مجرد مخزون تاريخي؛ فهو عامل حيوي في تشكيل الهوية الثقافية للمجتمعات، خاصة في ظل التنوع العرقي واللغوي والديني الذي يميز هذه المنطقة. تُعدّ هذه المجتمعات نتاجًا لتفاعل طويل الأمد بين حضارات

مختلفة، مثل الأمازيغية، الفينيقية، الرومانية، الإسلامية، والعثمانية، وكل واحدة منها تركت بصمتها الخاصة على التراث الثقافي المشترك.

التراث في هذه المنطقة ليس مجرد سجل للماضي، بل هو عملية ديناميكية تعكس التفاعل المستمر بين المجتمعات المحلية وعناصرها الثقافية. من خلال المعالم الأثرية، التقاليد الشفوية، الفنون الشعبية، والممارسات الدينية، يبرز التراث كمحور مركزي في بناء الهوية الثقافية. فهذه المكونات ليست فقط رموزًا للذاكرة الجماعية، ولكنها أيضًا أدوات تعبير عن الانتماء والتماسك الاجتماعي.

في سياق شمال إفريقيا، يُعتبر التراث الثقافي وسيلة أساسية في ترسيخ الهوية الوطنية وتعزيز الشعور بالفخر الثقافي. على سبيل المثال، تعدّ القصبة في الجزائر، مدينة فاس في المغرب، وقرطاج في تونس، رموزًا بارزة تعكس التداخل بين الماضي والحاضر وتؤكد على استمرارية الهوية الثقافية رغم التحولات السياسية والاجتماعية. هذه المواقع التاريخية ليست مجرد معالم سياحية، بل هي أيضًا مصادر للإلهام الوطني والهوية الجماعية.

من هذا المنظور، يلعب التراث في العالم العربي وشمال إفريقيا دورًا مزدوجًا: فهو من جهة يحافظ على الخصوصية الثقافية ويصون الذاكرة الجماعية، ومن جهة أخرى يواجه تحديات العولمة والتغيير الاجتماعي التي قد تهدد بتآكل هذه الهويات. إن العلاقة بين التراث والهوية في هذه المنطقة ليست علاقة ثابتة، بل هي علاقة تتسم بالتفاعل المستمر، حيث يعاد تشكيل الهوية الثقافية باستمرار من خلال استيعاب التأثيرات الخارجية والتكيف معها دون فقدان الأسس الثقافية المتجذرة.

يُساهم التراث في بناء الهوية الثقافية من خلال تعزيز الفخر بالانتماء إلى تراث غني ومعقد، ومع ذلك، يبقى هذا التراث عرضة للتحديات، سواء كانت نتيجة لعمليات التحديث أو تأثيرات العولمة التي قد تؤدي إلى زوال بعض عناصره. في ظل هذه الظروف، يظل التراث الثقافي في العالم العربي وشمال إفريقيا عنصرًا حيويًا يعبر عن الإرث المشترك ويؤكد على الهوية المتجددة للمجتمعات.

الجزائر، بجغرافيتها الفريدة الممتدة من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى عمق الصحراء الكبرى، كانت على مر العصور ملتقى للثقافات والحضارات المختلفة، فمنذ فجر التاريخ، استقبلت هذه الأرض الغزاة والتجار والمستكشفين، لتتحول إلى بوتقة انصهرت فيها ثقافات متعددة، فقد ترك الفينيقيون، والرومان، والبيزنطيون، والعرب، و المورسكيون، والأتراك، والأوروبيون آثارهم المتشابكة على نسيج

الهوية الجزائرية، مما خلق تنوعًا ثقافيًا قلما يوجد له نظير في العالم، هذا التنوع لم يكن مجرد تراكم للثقافات، بل هو عملية ديناميكية مستمرة من التفاعل والتكيف والتزاوج الثقافي، حيث أعاد الجزائريون تشكيل واستهلاك هذه التأثيرات المختلفة بما يتناسب مع بيئتهم الاجتماعية وقيمهم العميقة. فعلى سبيل المثال، تُعدّ قصبة الجزائر نموذجًا حيًا لهذا التفاعل، حيث تختزل في طياتها تراثًا معماريًا وثقافيًا يعكس التأثيرات الأندلسية، العثمانية، والعربية–الإسلامية.

ومن هذا المنظور الأنثروبولوجي، يمكن القول أن الهوية الثقافية الجزائرية هي هوية هجينة، تتشكل باستمرار عبر التفاعل مع الآخر، لكنها تبقى راسخة في جوهرها المستمد من القيم والتقاليد المحلية، هذا التمازج هو ما يعطي للجزائر خصوصيتها الثقافية ويمنحها تلك القدرة الفريدة على التكيف مع التغيرات دون فقدان جوهرها الأصيل، فالتراث الثقافي في الجزائر ليس مجرد بقايا من الماضي، بل هو عنصر فاعل وحيوي يسهم في تشكيل الحاضر وبناء المستقبل، ومن خلال فهم هذا التراث والتعمق في دراسته من منظور أنثروبولوجي، يمكننا الكشف عن العمق الحضاري الذي يمتد عبر الزمن ويبرز القوة الرمزية التي يحملها في تشكيل الهوية الثقافية للجزائريين، تلك الهوية التي تحمل في طياتها مزيجًا من الأصالة والانفتاح، القوة والتنوع، الثبات والتغيير.

التراث الثقافي الجزائري ليس مجرد مجموعة من الآثار أو المعالم التاريخية، بل هو مرآة تعكس التفاعل الديناميكي بين الأجيال المختلفة في الحفاظ على هوية وطنية متجذرة. يتجلى هذا التراث في العمارة الفريدة للمدن القديمة مثل قصبة الجزائر، التي تُعدّ مثالًا حيًا على التمازج بين التراث الامازيغي والعربي والإسلامي. كما يُعبر عن ذلك التراث الشعبي والفلكلور، من الأغاني والأهازيج التقليدية إلى الحرف اليدوية والموروثات الشفوية التي تستمر في نقل قيم المجتمع الجزائري وثقافته عبر الأجيال.

لقد لعب التراث الثقافي دورًا محوريًا في تشكيل الهوية الوطنية الجزائرية، خاصة في فترات المقاومة والتحرر الوطني. خلال فترة الاستعمار الفرنسي، على سبيل المثال، كانت الممارسات الثقافية والتراثية تُستخدم كأدوات للمقاومة الثقافية والتمسك بالهوية الوطنية في وجه محاولات الطمس والاندماج القسري. وبذلك، أصبح التراث رمزًا للنضال من أجل الحفاظ على الشخصية الوطنية والاعتزاز بالجذور الثقافية المشتركة.

اليوم، يُشكل التراث الثقافي الجزائري جزءًا أساسيًا من الهوية الوطنية، حيث يُسهم في تعزيز الشعور بالانتماء الوطني والفخر الجماعي. إن الحفاظ على هذا التراث ليس فقط من أجل تذكير الأجيال الحالية بماضيها الغني، بل أيضًا لتأكيد استمرارية الهوية الوطنية في ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي تشهدها البلاد.

يُعتبر التراث في الجزائر مصدرًا للقوة الثقافية والسياسية، حيث يُعزز الوحدة الوطنية ويُسهم في بناء مجتمع متماسك ومتصالح مع تاريخه وتنوعه الثقافي.

القصبة الجزائرية، كنموذج للتراث المعماري والتاريخي، تعكس ليس فقط مراحل تاريخية متعددة، ولكنها أيضًا تجسد روح الجزائر وهويتها الثقافية المميزة. هذا الموقع الذي أُدرج ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو، يُعتبر أحد أهم الرموز الثقافية في البلاد، والذي لا يزال يحمل دلالات قوية على التماسك الاجتماعي والهوية الوطنية. يمكن القول أن التراث الثقافي الجزائري يلعب دورًا أساسيًا في تعزيز الهوية الوطنية، حيث يُمثل الجسر الذي يربط بين الماضي والحاضر، ويضمن استمرارية الهوية الوطنية عبر الزمن، في ظل مواجهة تحديات العولمة والتغيرات الاجتماعية.

قصبة الجزائر تُعتبر أحد أبرز المعالم التراثية في الجزائر، وتمثل قلب العاصمة القديمة وشاهدًا حيًا على تاريخها العريق وتنوعها الثقافي. هذا الحي التاريخي، الذي يعود تاريخه إلى العصور الوسطى، يعكس بفنونه المعمارية وتخطيطه الحضري معاني عميقة للهوية الثقافية الجزائرية، إذ يشكل مثالًا حيًا على التمازج بين التأثيرات الزيرية، العربية، الإسلامية، الموريسكية والعثمانية. قصبة الجزائر ليست مجرد تجمع للمباني التاريخية والأزقة الضيقة، إنها فضاء اجتماعي وثقافي يعكس الحياة اليومية لسكان الجزائر عبر القرون. من خلال بنيتها المعمارية المميزة، التي تشمل المنازل التقليدية، المساجد، الأسواق، العيون، والحمامات العامة، تروي القصبة قصة مدينة عاشت تطورات تاريخية وسياسية كبيرة، ومع ذلك استطاعت أن تحافظ على روحها الثقافية وهويتها الفريدة.

على مستوى الهوية الثقافية الجزائرية، تُعد القصبة رمزًا مركزيًا يختزل في طياته معاني المقاومة والصمود. خلال فترة الاستعمار الفرنسي، كانت القصبة معقلًا للمقاومة الشعبية، حيث احتضنت العديد من حركات التحرر الوطني. بفضل هذا الدور البطولي، أصبحت القصبة رمزًا للنضال من أجل الاستقلال، ومرجعًا أساسيًا في الذاكرة الجماعية للجزائريين. هذا البعد النضالي للقصبة يعزز الشعور

بالانتماء والفخر الوطني، ويؤكد على الهوية الجزائرية كهوية مرتبطة بالجذور التاريخية والنضال من أجل الحرية.

القصبة ليست فقط تراثًا ماديًا، بل هي أيضًا حاضنة للتراث اللامادي، مثل التقاليد الشفوية، الحرف اليدوية، والفنون الشعبية التي لا تزال تُمارس داخل هذا الفضاء التاريخي. هذه الممارسات الثقافية تُسهم في الحفاظ على التراث الثقافي وتعزيز الهوية الجماعية لسكان الجزائر. بالإضافة إلى ذلك، يُمثل التراث اللامادي للقصبة جزءًا من الذاكرة الجماعية التي تُنقل من جيل إلى جيل، مما يُسهم في استمرارية الهوية الثقافية وتعزيزها، وإدراجها ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو في عام 1992 عزز من مكانتها كموقع تراثي ذو أهمية عالمية، وعكس الاعتراف الدولي بقيمتها الثقافية، هذا الاعتراف العالمي لا يُعزز فقط الهوية الوطنية الجزائرية، بل يُسهم أيضًا في الحفاظ على القصبة كموقع تراثي يستمر في التأثير على الحياة الثقافية والاجتماعية في الجزائر.

في سياق العولمة والتغيرات الاجتماعية السريعة، تبقى قصبة الجزائر أحد الرموز البارزة التي تُجسد الهوية الثقافية الجزائرية وتؤكد على أهمية الحفاظ على التراث كمصدر للفخر الوطني ومرجعية ثقافية للأجيال القادمة. إنها ليست مجرد موقع تاريخي، بل هي جزء حيوي من النسيج الثقافي الذي يُسهم في تكوين الهوية الوطنية وتعزيزها في مواجهة التحديات الحديثة، وفي ظل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي يشهدها العالم اليوم، يبرز التراث الثقافي كمكون أساسي في تشكيل الهوية الوطنية والحفاظ عليها.

يتمثل السؤال الرئيسي لهذه الدراسة:

"كيف يتمظهر الدور الفعلي للتراث الثقافي المادي واللامادي لقصبة الجزائر في تشكيل وإعادة إنتاج الهوية الثقافية الوطنية؟

- **الأسئلة الفرعية:**

1. كيف شكّلت البيئة الطبيعية لقصبة الجزائر عمرانها، وكيف تعكس الممارسات اليومية لسكانها تكيفًا ثقافيًا فريدًا مع المكان؟

2. ما الدلالات الرمزية والتاريخية التي يحملها التراث المعماري للقصبة، وكيف يتجلى اليوم التوتر بين قيمته الثقافية وخطر الاندثار؟

3. ما الوظائف الاجتماعية التي يؤديها التراث اللامادي (الطقوس، الحرف، الموروث الشفهي) في صون الذاكرة وتعزيز مقومات الهوية الاجتماعية بالقصبة؟

4. ما طبيعة العلاقة بين سياسات الحفظ الرسمية والمبادرات الأهلية لإحياء تراث القصبة، وما هي سبل تفعيله كرأسمال ثقافي مستدام؟

هذه الأسئلة تساعد في توجيه البحث نحو تحليل شامل لدور قصبة الجزائر في تشكيل الهوية الثقافية الوطنية، مع التركيز على التحديات والفرص التي تواجه هذا التراث في السياق الحديث.

ثانيا: أهمية الدراسة

تكتسب دراسة "دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية: قصبة الجزائر أنموذجًا" أهمية بالغة من عدة جوانب أكاديمية وثقافية واجتماعية، حيث تسعى إلى تقديم تحليل شامل ومفصل لدور التراث الثقافي في تشكيل الهوية الوطنية الجزائرية، مع التركيز على معلم تراثي بارز مثل القصبة الجزائرية.

1. أهمية أكاديمية:

- توسيع المعرفة الأكاديمية: توفر هذه الدراسة إسهامًا أكاديميًا قيمًا في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية والدراسات التراثية، حيث تسعى إلى تعزيز فهم العلاقة بين التراث والهوية الثقافية من خلال دراسة حالة محددة. يتمثل أحد أهداف الدراسة في ملء الفراغات المعرفية المتعلقة بكيفية تأثير التراث المادي والمعنوي على بناء الهوية الوطنية، وخاصة في سياق الجزائر.
- تطوير المناهج الدراسية: يمكن أن تسهم النتائج التي تقدمها الدراسة في تطوير المناهج التعليمية الأكاديمية التي تركز على التراث والهوية الثقافية، مما يساهم في تحسين برامج التعليم الثقافي والتراثي في الجزائر وفي الدول ذات السياق الثقافي المشابه.

2. أهمية ثقافية:

- حماية التراث الثقافي: تسهم الدراسة في تسليط الضوء على أهمية الحفاظ على التراث الثقافي، وتحديد التهديدات التي تواجهه، بما في ذلك تأثيرات العولمة والتوسع العمراني. هذا التوضيح يمكن أن يؤدي إلى زيادة الوعي حول أهمية الحفاظ على المواقع التراثية وحمايتها من التهديدات التي قد تضر بها.
- تعزيز الفخر الثقافي: من خلال تحليل دور القصبة الجزائرية في تشكيل الهوية الوطنية، تسهم الدراسة في تعزيز الفخر بالتراث الثقافي لدى الأجيال الجديدة وتعميق فهمها لقيم التراث. هذا الفخر يمكن أن يعزز الوعي الثقافي والاعتزاز بالتراث بين الشباب والمجتمع بشكل عام.

3. أهمية اجتماعية:

- تعزيز التماسك الاجتماعي: إن دراسة دور التراث في تشكيل الهوية الثقافية تساعد في تعزيز التماسك الاجتماعي من خلال فهم كيف يمكن أن يُجمع التراث بين الأفراد ويعزز شعورهم

بالانتماء إلى وطن مشترك. هذا التماسك يمكن أن يكون مفيدًا في تعزيز الوحدة الوطنية والاستقرار الاجتماعي في ظل التغيرات الحديثة.

- توجيه السياسات الثقافية: توفر الدراسة بيانات وتحليلات يمكن أن تكون أساسية لصناع القرار والمخططين الثقافيين في الجزائر. يمكن أن تسهم النتائج في صياغة سياسات ثقافية تهدف إلى حماية التراث وتعزيز دوره في بناء الهوية الوطنية، مما يساهم في تحقيق التنمية المستدامة وحماية الموروث الثقافي.

4. أهمية عملية:

- توجيه الجهود الترميمية: من خلال تحليل التحديات التي تواجه التراث، يمكن أن توفر الدراسة توصيات عملية للحفاظ على قصبة الجزائر وترميمها بطرق تحافظ على قيمتها الثقافية والتاريخية. هذا يمكن أن يوجه جهود الترميم والحفاظ بطرق فعالة تضمن استمرارية التراث للأجيال القادمة.
- تطوير السياحة الثقافية: يمكن أن تسهم نتائج الدراسة في تطوير استراتيجيات سياحية تعزز من قيمة التراث الثقافي وتدعم الاقتصاد المحلي، حيث يمكن الاستفادة من جذب السياح المهتمين بالتراث والثقافة من خلال تقديم تجربة ثقافية غنية تبرز قيمة قصبة الجزائر كموقع تراثي عالمي.

وبذلك تعتبر دراسة "دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية: قصبة الجزائر أنموذجًا" خطوة حيوية نحو تعزيز الفهم الأكاديمي والثقافي والاجتماعي للتراث كعنصر محوري في تشكيل الهوية الوطنية. من خلال تقديم رؤية متكاملة حول كيفية تأثير التراث على الهوية، وتحديد التحديات التي يواجهها، يمكن أن تسهم الدراسة في تحقيق الأهداف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تسعى إليها الجزائر.

ثالثا: أهداف الدراسة

تسعى دراسة "دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية: قصبة الجزائر أنموذجًا" إلى تحقيق مجموعة من الأهداف التي تتناول جوانب متعددة من التراث والهوية الثقافية. تشمل الأهداف الرئيسية للدراسة ما يلي:

1. **تحليل تأثير التراث على الهوية الثقافية:**

- تقييم تأثير التراث المادي والمعنوي: دراسة كيفية تأثير التراث المادي، مثل قصبة الجزائر، على تشكيل الهوية الثقافية الجزائرية، وكذلك تأثير التراث اللامادي كالتقاليد والاحتفالات الشعبية.
- فهم العلاقة بين التراث والهوية: تحليل كيفية تفاعل العناصر التراثية مع الهوية الثقافية وكيف يمكن أن تعزز هذه العناصر شعور الانتماء والفخر الوطني.

2. **تسليط الضوء على الدور الخاص للقصبة الجزائرية:**

- دراسة حالة قصبة الجزائر: تقديم تحليل مفصل لدور القصبة كرمز ثقافي وتاريخي في بناء الهوية الوطنية الجزائرية، بما في ذلك تأثيرها على الثقافة المحلية والذاكرة الجماعية.
- استكشاف قيمة القصبة كموقع تراثي: تقييم الأهمية الثقافية والمعمارية للقصبة كمعلم تراثي بارز وكيفية تعبيرها عن تاريخ الجزائر وتنوعها الثقافي.

3. **تحديد التحديات التي تواجه التراث الثقافي:**

- تشخيص التهديدات الحالية: تحديد التحديات التي تواجه قصبة الجزائر نتيجة التغيرات الحديثة مثل التوسع العمراني، العولمة، وتأثيرات السياحة.
- تحليل التأثيرات السلبية المحتملة: دراسة كيف يمكن أن تؤثر هذه التحديات على الحفاظ على التراث وضمان استمراريته.

4. **اقتراح استراتيجيات للحفاظ على التراث:**

- تقديم توصيات للحفاظ على التراث: تطوير استراتيجيات وتوصيات عملية للحفاظ على القصبة وضمان حمايتها من التهديدات المحتملة، بما في ذلك استراتيجيات ترميم وصيانة فعالة.

- اقتراح سياسات ثقافية: تقديم اقتراحات للسياسات الثقافية التي يمكن أن تعزز حماية التراث ودعمه ضمن استراتيجيات التنمية الثقافية المستدامة.

5. تعزيز الوعي الثقافي والفخر الوطني:

- رفع الوعي بين الأجيال الجديدة: نشر الوعي حول أهمية التراث الثقافي في بناء الهوية الوطنية بين الشباب والمجتمع، وتعزيز الفخر بالتراث الثقافي.
- تعزيز التعليم الثقافي: دعم المناهج التعليمية التي تركز على التراث والهوية الثقافية، بما يسهم في تعزيز المعرفة حول التراث الثقافي والأهمية التاريخية للقصبة.

6. استكشاف دور التراث في التنمية الاقتصادية:

- تطوير السياحة الثقافية: دراسة كيفية استخدام التراث كأداة لتعزيز السياحة الثقافية، وكيف يمكن أن تسهم السياحة في التنمية الاقتصادية المحلية.
- تعزيز الروابط الاجتماعية: تحليل كيفية استخدام التراث في تعزيز الروابط الاجتماعية والتماسك المجتمعي.

وعليه فهذه الدراسة تهدف إلى تقديم رؤية شاملة ومعمقة حول كيفية تأثير التراث، ممثلًا في قصبة الجزائر، على تشكيل الهوية الثقافية الجزائرية، واستكشاف التحديات التي تواجه هذا التراث في ظل التحولات الحديثة. من خلال تحقيق هذه الأهداف، تسعى الدراسة إلى الإسهام في تعزيز فهم التراث كعنصر أساسي في الهوية الوطنية وتقديم توصيات عملية للحفاظ على هذا التراث وضمان استمراريته للأجيال القادمة.

رابعا: طبيعة الموضوع:

تندرج هذه الدراسة الأنثروبولوجية التي تتناول دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية، مع اتخاذ "قصبة الجزائر" كأنموذج ضمن البحوث الكيفية ذات الطبيعة الاستكشافية كأسلوب رئيسي لتحليل وفهم البيانات. يتميز البحث الكيفي بقدرته على التعمق في فهم الظواهر الاجتماعية والثقافية من خلال وصف وتحليل التجارب والمعاني المرتبطة بها.

مبررات اعتماد البحث الكيفي:

* الطبيعة الأنثروبولوجية للدراسة: بما أن الدراسة تتناول موضوعات ذات أبعاد ثقافية، تاريخية، واجتماعية مثل التراث والهوية، يصبح من الضروري استخدام البحث الكيفي الذي يتيح تحليل الظواهر من خلال فهم السياقات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بها. يركز هذا البحث على المعاني التي يحملها التراث للناس وعلى كيفية تأثيره في تشكيل هويتهم الثقافية.

* التراث كموضوع معقد ومتعدد الأبعاد: التراث الثقافي، وخاصةً في سياق قصبة الجزائر، لا يمكن فهمه بشكل كامل من خلال البيانات الكمية فقط. يتطلب التراث استكشافاً معمقاً للتجارب الشخصية، الممارسات الاجتماعية، والرموز الثقافية التي تشكل الهوية الجماعية. وهذا ما يقدمه البحث الكيفي عبر الأدوات المتنوعة المستخدمة لجمع البيانات.

* التركيز على السياق المحلي: البحث الكيفي يسمح بفهم أعمق للسياق المحلي الخاص بقصبة الجزائر، بما في ذلك الظروف التاريخية والاجتماعية التي أثرت على تشكيل هويتها الثقافية. ويتيح التفاعل المباشر مع الأشخاص المعنيين (السكان، الخبراء المحليين، المهتمين بالتراث) للحصول على رؤى متعمقة حول معنى التراث ودوره في حياتهم اليومية.

يعتبر البحث الكيفي الاسلوب الأنسب لهذه الدراسة، حيث يوفر مرونة وإمكانية للتعمق في فهم التراث الثقافي المعقد لقصبة الجزائر. ومن خلال هذا البحث، يمكننا استكشاف العلاقة الديناميكية بين التراث والهوية الثقافية، وتحليل تأثير المتغيرات الاجتماعية والثقافية على الحفاظ على التراث وتعزيزه.

خامسا: المناهج والأدوات المستخدمة في الدراسة:

1. المناهج المعتمدة:

1.1. المنهج الاثنوغرافي المكثف:

يعرف المنهج الاثنوغرافي المكثف بانه منهج نوعي ميداني يقوم على المعايشة الطويلة والمباشرة للباحث داخل المجتمع المدروس، مع الاعتماد على الملاحظة بالمشاركة، المقابلات المعمقة، بهدف فهم الممارسات الاجتماعية والثقافية من داخل سياقها الطبيعي. ولا يكتفي هذا المنهج بوصف السلوك الظاهر، بل يسعى الى تأويل المعاني والرموز التي يمنحها الفاعلون الاجتماعيون لممارساتهم اليومية، باعتبار الثقافة نسقا من الدلالات المتشابكة التي لا تفهم الا من خلال الانغماس الميداني والتحليل المكثف [1].

وقد تم توظيف هذا المنهج من خلال العمل الميداني داخل قصبة الجزائر، عبر المعايشة المباشرة للفضاء الاجتماعي، والملاحظة بالمشاركة، والمقابلات المعمقة، بما يسمح برصد أنماط العيش اليومية، واشكال التفاعل الاجتماعي، والتمثلات الرمزية التي يضفيها الفاعلون الاجتماعيون على التراث، وقد مكن هذا الانغماس الميداني من قراءة التراث بوصفه نصا ثقافيا يعاد انتاجه وتأويله باستمرار، وليس مجرد بقايا مادية من الماضي.

وقد سمح المنهج الاثنوجرافي بفهم الديناميات الداخلية للمجتمع المحلي، والكشف عن آليات إعادة انتاج الهوية الثقافية من خلال الممارسات اليومية للتراث، بعيدا عن المقاربات الوصفية السطحية، مما [1]اضفى على الدراسة بعدا تحليليا تأويليا يعكس تفاعل التراث مع الذاكرة الجماعية والهوية الثقافية الجزائرية.

2.1. المنهج المقارن:

يعرف المنهج المقارن بانه منهج علمي يقوم على دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية من خلال المقارنة بين وحدات متعددة (مجتمعات، جماعات، فضاءات، فترات زمنية مختلفة)، بهدف الكشف عن

[1] غيرتز كليفورد، تاويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2004، ص 23-25.

أوجه التشابه والاختلاف، وفهم العوامل التاريخية، الاجتماعية والثقافية التي تسهم في تفسير تنوع الظاهرة او ثباتها. ويسمح هذا المنهج بتجاوز الوصف الجزئي الى تحليل العلاقات والبنى العميقة التي تحكم تشكل الممارسات والرموز والهويات داخل سياقات ثقافية متباينة[1].

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج المقارن بوصفه إطارا منهجيا ملائما للبحث الانثروبولوجي، لما يوفره من أدوات تحليلية تسمح بفهم الظواهر الثقافية في سياقاتها المتعددة، والكشف عن بنياتها العميقة ودلالاتها الرمزية. وقد تم توظيف هذا المنهج في تحليل دور التراث في ابراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية، من خلال اتخاذ قصبة الجزائر انموذجا للدراسة، باعتبارها فضاء تراثيا كثيف الدلالات التاريخية والاجتماعية والرمزية[1].

وتمت المقارنة على مستوى زماني يرصد تحولات التراث ووظائفه الاجتماعية والثقافية بين الماضي والحاضر. وشملت المقارنة مختلف اشكال التراث المادي كالبنية العمرانية، التنظيم المجالي، والمعالم التاريخية، الى جانب التراث اللامادي المتمثل في أنماط العيش، الممارسات الاجتماعية، العادات والتقاليد، والحرف التقليدية.

وقد أتاح المنهج المقارن تحليل آليات استمرارية الهوية الثقافية وتحولاتها، وفهم العلاقة الجدلية بين التراث والهوية في ظل المتغيرات التاريخية والاجتماعية والسياسية، بالاعتماد على المعطيات الميدانية، والمقابلات، والمصادر التاريخية، والدراسات الانثروبولوجية ذات الصلة، بما يضمن مقاربة تحليلية شمولية تبرز البعد الرمزي للتراث ودوره في إعادة انتاج الهوية الثقافية الجزائرية.

3.1. المنهج التاريخي:

هو منهج تحليلي يقوم على تتبع تطور الظواهر الثقافية والاجتماعية عبر الزمن، من خلال دراسة المصادر التاريخية، والذاكرة الجماعية مثل الوثائق والآثار والتقاليد الشفهية لفهم تغير المجتمعات

[1] الفريد رادكليف براون، الفرد، الانثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة عبيد الله عبد الدايم، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1986، ص 37-41.

[1] انظر أيضا: نادل، سيغفريد، أسس الانثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة محمد عودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ص 112-115.

وتطورها عبر الزمن. يستخدم هذا المنهج الفحص النقدي لتفسير الأحداث وأنماط السلوك البشري، وهو ضروري لفهم سياقات الثقافات الحالية من خلال دراسة استمراريتها وتغيراتها[1].

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي باعتباره مدخلا أساسيا لفهم تشكل التراث وتطوره داخل سياقه الزمني، لما يتيحه من تحليل ديناميات الاستمرارية والتحول التي مست الأبنية الثقافية والاجتماعية.

وقد تم توظيف هذا المنهج في تتبع المسار التاريخي لقصبة الجزائر، منذ نشأتها وتطورها في العصور الإسلامية مرورا بالفترة العثمانية، ثم المرحلة الاستعمارية، وصولا الى مرحلة ما بعد الاستقلال، قصد كشف التحولات التي طرأت على وظائف التراث ودلالاته الرمزية وعلاقته بالهوية الثقافية الجزائرية.

وقد مكن المنهج التاريخي من فهم تأثير العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إعادة تشكيل الفضاء التراثي للقصبة، والكشف عن الكيفية التي تحول بها التراث من ممارسة حياتية الى رمز ثقافي ووطني. كما أسهم هذا المنهج في تأطير المعطيات الاثنوغرافية والمقارنات المكانية والزمانية ضمن رؤية تحليلية شمولية، تبرز العلاقة الجدلية بين الذاكرة التاريخية والتراث والهوية الثقافية الجزائرية.

2. ادوات الدراسة:

لضمان تحقيق أهداف الدراسة "دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية: قصبة الجزائر أنموذجًا"، سيتم استخدام مجموعة من الأدوات البحثية الكيفية التي تتيح جمع البيانات وتحليلها بشكل موضوعي وموثوق. فيما يلي تفصيل لأدوات الدراسة:

1.2. الملاحظة الاثنوجرافية (Ethnographique Observation):

- **المفهوم:** تعرف الملاحظة الاثنوغرافية بانها أداة بحث ميدانية نوعية تقوم على المعايشة المباشرة والطويلة للباحث داخل المجتمع المدروس، حيث يشارك الفاعلين الاجتماعيين في انشطتهم اليومية، ويرصد سلوكهم وتفاعلاتهم في سياقها الطبيعي، مع توثيق دقيق ومنهجي للممارسات، الخطابات، والرموز الثقافية. ولا تقتصر هذه الملاحظة على تسجيل الوقائع الظاهرة، بل تهدف

[1] ايفانز بريتشارد ادوارد، الانثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة محمد عودة، الهيئة المصرية العامة للكتابن القاهرة، 1991، ص 68-72

الى فهم المعاني التي يضفيها الافراد على افعالهم وعلاقاتهم بالفضاء الاجتماعي والثقافي، بما يسمح ببناء وصف كثيف وتأويل علمي للسلوك الاجتماعي داخل سياقه التاريخي والثقافي.[1]

- **التطبيق في الدراسة:** سيتم استخدام الملاحظة الاثنوجرافية لدراسة الحياة اليومية في قصبة الجزائر، وفهم كيفية تفاعل السكان مع تراثهم الثقافي والبيئة المحيطة بهم. ستساعد هذه الأداة في تحديد الأنماط الثقافية والاجتماعية التي تشكل الهوية الثقافية للمنطقة.

2. 2. المقابلة الاثنوجرافية (Ethnographique Interview):

- **المفهوم:** تعرف المقابلة الاثنوغرافية بانها أداة بحث نوعية تستخدم في إطار العمل الميداني الاثنوغرافي، وتقوم على حوار مفتوح او شبه موجه بين الباحث والمبحوثين داخل سياقهم الاجتماعي والثقافي الطبيعي. وتهدف هذه المقابلة الى الكشف عن التمثلات والمعاني، والتأويلات التي يمنحها الفاعلون الاجتماعيون لممارساتهم اليومية وتجاربهم الحياتية، ولا تختزل في جمع المعلومات بل تعد فعلا تفاعليا يسمح بفهم الثقافة من منظور الفاعلين أنفسهم ضمن علاقة قائمة على الثقة والمعايشة الميدانية المستمرة. [2]
- **التطبيق في الدراسة:** ستُجرى مقابلات معمقة مع السكان المحليين، وخاصةً مع الأفراد الذين لهم علاقة مباشرة بتراث قصبة الجزائر (مثل الحرفيين، الشيوخ، والمسؤولين المحليين...). ستساهم هذه المقابلات في فهم تصورات السكان لتراثهم ودوره في تشكيل هويتهم، استكشاف المعاني الرمزية المرتبطة بالمكان، وربط الخطاب الشفهي بالممارسة اليومية والذاكرة الجماعية.

3.2. الأثنوجرافيا المرئية (Visual Ethnographie):

- **المفهوم:** هي أداة منهجية تعتمد على استخدام الوسائط البصرية، مثل التصوير الفوتوغرافي والفيديو لتوثيق الحياة اليومية والتفاعلات الثقافية في المجتمع. توفر هذه التقنية منظورًا بصريًا

---

[1] غيرتز كليفورد، مرجع سابق، ص 24-26.

انظر أيضا: مالينوفسكي برونسلافن ارجونات غرب المحيط الهادئ، ترجمة عبد الله عبد الدايم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص 17-20.

[2] سبردلي جيمس، المقابلة الإثنوغرافية، ترجمة عبد الله عبد اللهن دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998، ص 3-7.

انظر أيضا: غيرتز كليفورد، نفس المرجع، ص 30-32.

يساعد في تحليل العناصر الثقافية والمادية، وتأويل المعاني الكامنة في المشاهد البصرية ضمن سياقها الاجتماعي والتاريخي.[1]

- **التطبيق في الدراسة:** سيتم استخدام التصوير الفوتوغرافي والفيديو لتوثيق المواقع التراثية في قصبة الجزائر والأنشطة الثقافية للسكان. ستساعد هذه المواد المرئية في تحليل كيفية تجسيد الهوية الثقافية من خلال الفضاءات المعمارية والممارسات الاجتماعية، كما ستدعم المقاربة الايكولوجية في فهم العلاقة بين الانسان والمكان.

4.2. الإخباريون (Informants):

- **المفهوم:** يقصد بالإخباريون في البحث الانثروبولوجي الافراد الذين يمتلكون معرفة محلية معمقة بالمجتمع المدروس، سواء بحكم الإقامة الطويلة، التجربة الحياتية، او الموقع الاجتماعي والثقافي، ويعتمد عليهم كمصادر أساسية للمعلومات خلال العمل الميداني. ولا يقتصر دور الاخباريين على نقل المعطيات الوصفية، بل يسهمون في تفسير الممارسات الرموز، التمثلات الثقافية، وشرح المعاني التي يمنحها الفاعلون الاجتماعيون لفضائهم وتراثهم، مما يجعلهم شركاء معرفيين في انتاج المعرفة الاثنوغرافية.[2]
- **التطبيق في الدراسة:** سيتم التعاون مع إخباريين من سكان قصبة الجزائر ممن يمتلكون معرفة عميقة بتاريخ وتراث المنطقة، الحرفيين التقليديين، الفاعلين الثقافيين وأصحاب الاختصاص. سيساعد هؤلاء الإخباريون في توفير معلومات قيمة وشهادات تاريخية تساعد في فهم السياق الثقافي للقصبة.

5.2. الوثائق والسجلات (Documents and Records):

- **المفهوم:** تعرف الوثائق والسجلات بانها مصادر مكتوبة او محفوظة تتضمن معطيات تاريخية، إدارية، قانونية، او ثقافية، يعتمد عليها في البحث الانثروبولوجي لفهم السياقات الزمنية

---

[1] بنك ماركوس، المنهجيات البصرية في البحث الاجتماعي، ترجمة حسن قبيسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012، ص 21-26

انظر أيضا: كولين هوارد، الانثروبولوجيا المرئية، ترجمة عبد الله عبد الله، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ص 21-26.

[2] سبردلي جيمس، مرجع سابق، ص 45-48.

انظر أيضا: مالينوفسكي، مرجع سابق، ص 21-2

والاجتماعية التي تشكلت فيها الظواهر الثقافية، وتشمل هذه الوثائق الارشيفية الرسمية، السجلات البلدية، المخطوطات، التقارير، والخرائط، وتوظف بوصفها معطيات تحليلية تكمل المعطيات الميدانية، لا بوصفها معطيات محايدة[1].

- **التطبيق في الدراسة:** سيتم جمع الوثائق والسجلات التي تحتوي على معلومات عن تاريخ قصبة الجزائر، مثل الوثائق الاستعمارية، السجلات البلدية، والمخطوطات القديمة. ستساهم هذه الوثائق في تتبع التحولات العمرانية والاجتماعية للقصبة، وتحليل السياسات الاستعمارية وما بعدها تجاه التراث، وربط الذاكرة المكتوبة بالذاكرة الشفوية والممارسات اليومية.

سادسا: فضاءات الدراسة:

1. الفضاء المكاني (Spatial Contexte):

- **قصبة الجزائر:**

تعتبر قصبة الجزائر الفضاء المكاني الرئيس للدراسة، فهي مدينة قديمة تحمل تاريخًا طويلًا وثريًا، وتعدّ موقعًا للتراث العالمي لليونسكو منذ عام 1992[2]. ستركز الدراسة على مختلف المواقع داخل القصبة، بما في ذلك المباني التاريخية، الأسواق، والأزقة، كأماكن رئيسة لاستكشاف العلاقة بين التراث والهوية.

- **المؤسسات الثقافية والاجتماعية:**

سيتم أيضًا إجراء جزء من الدراسة في المؤسسات الثقافية والاجتماعية في القصبة، مثل مراكز الثقافة، المكتبات، والمتاحف، حيث تلعب هذه الأماكن دورًا مهمًا في نقل التراث وتعزيزه.

---

[1] مارك بلوخ، الدفاع عن التاريخ او مهنة المؤرخ، ترجمة محمد عبد الله، دار الفكر، دمشق، 1996، ص 56-60.
انظر أيضا: هالبواكس موريس، مرجع سابق، ص 41-45.

[2] قصبة الجزائر". (2025، 24 أكتوبر). في ويكيبيديا، الموسوعة الحرة. تم الاطلاع عليه بتاريخ 12 نوفمبر 2025، الساعة 16:30، من https://ar.wikipedia.org/wiki/قصبة_الجزائر.

2. الفضاء الزماني (Temporal Contexte):

- **الإطار الزمني للدراسة:**

يحدد الإطار الزمني للدراسة بالفترة الممتدة من جانفي 2023 إلى غاية جانفي 2025، وهي المدة التي تم خلالها إنجاز العمل الميداني وجمع المعطيات الاثنوغرافية، بما في ذلك الملاحظة بالمشاركة، المقابلات المعمقة والتوثيق المرئي، وقد أختير هذا الإطار الزمني لما يتيحه من رصد الممارسات الاجتماعية والثقافية في سياقها الراهن، مع الاستناد الى معطيات تاريخية وأرشيفية تعود إلى فترات سابقة، قصد تحليل استمرارية التراث وتحولاته ودوره في ابراز معالم الهوية الثقافية داخل قصبة الجزائر.

- **التركيز على التحولات:**

ستتناول الدراسة أيضًا التحولات التاريخية التي شهدتها القصبة وكيف أثرت على الهوية الثقافية لسكانها، مع مراعاة السياق التاريخي الطويل الذي يمتد من العصور القديمة إلى الفترة الاستعمارية وحتى العصر الحديث.

3. الفضاء البشري (Human Contexte):

- **عينة الدراسة:**

اعتمدت هذه الدراسة على عينة قصدية، تم اختيارها وفق معايير نوعية تخدم اهداف البحث وطبيعته الاثنوغرافية، حيث شملت أفرادا من سكان قصبة الجزائر ممن يمتلكون معرفة مباشرة وتجربة معيشية بالفضاء التراثي المدروس، وقد ضمت العينة فئات مختلفة، من بينها: سكان اصليون للقصبة، كبار السن الحافظون للذاكرة المحلية، حرفيون تقليديون، فاعلون ثقافيون، إضافة الى بعض الفاعلين المحليين المرتبطين بحفظ التراث.

سيتم أيضًا إشراك خبراء في التراث والهوية من الأكاديميين والممارسين الثقافيين لإثراء الدراسة بمداخلاتهم وتقديم رؤى مستنيرة حول الموضوع.

وقد تم اختيار هذه العينة لكونها قادرة على تقديم معطيات غنية ودلالية حول الممارسات اليومية، التمثلات الرمزية، والعلاقة بين التراث والهوية الثقافية، بما ينسجم مع طبيعة المنهج الاثنوغرافي المكثف الذي يركز على العمق التحليلي أكثر من التمثيل العددي.

تعدّ أدوات الدراسة المختارة، فضلاً عن تحديد الفضاءات المكانيّة والزمانيّة والبشريّة، عوامل أساسية لضمان تحقيق الأهداف المرجوة من هذه الدراسة. من خلال هذا المنهج المتكامل، ستسهم الدراسة في تقديم فهم أعمق لدور التراث في تشكيل الهوية الثقافية الجزائرية، مع التركيز على قصبة الجزائر كأنموذج حي ومعبر عن هذه العلاقة المعقدة.

- **سابعا: المقاربة النظرية:**

اعتمدت هذه الدراسة مقاربة تكاملية متعددة المداخل، انطلاقا من طبيعة الموضوع المدروس الذي يتناول التراث بوصفه ظاهرة مركبة تتداخل فيها الابعاد التاريخية، البيئية، الرمزية، الاجتماعية والوظيفية. وقد تم توظيف هذه المداخل بصورة تكاملية لا تجميعية، بحيث يؤدي كل مدخل وظيفة تفسيرية محددة ضمن البناء العام للتحليل.

يمثل المدخل الإيكولوجي إطارًا نظريًا مهماً لفهم العلاقة بين الإنسان وبيئته المحيطة، حيث يركز هذا المدخل على التفاعل بين العوامل البيئية والثقافية في تشكيل الهوية. القصبة ككيان عمراني وتاريخي تعكس هذا التفاعل بشكل واضح، حيث تندمج الثقافة المحلية مع البيئة الطبيعية لتشكيل هوية فريدة للمدينة وسكانها. في هذا السياق، سنستخدم المدخل الإيكولوجي لتحليل كيف أن بيئة القصبة وتضاريسها الطبيعية أثرت على نمط الحياة والثقافة المحلية، وكيف أن هذه العوامل مجتمعة أسهمت في تشكيل الهوية الثقافية لسكان الجزائر.

واعتماد المقاربة التأويلية الرمزية يعد مناسبا لطبيعة موضوع البحث المتعلق بالتراث والهوية الثقافية، باعتبارهما ظاهرتين رمزيتين بامتياز، تتجاوزان حدود الوصف المادي او التفسير الوظيفي الاختزالي، فالتراث في هذا الإطار يفهم كنص ثقافي مفتوح للتأويل، تعاد قراءته باستمرار في ضوء التحولات الاجتماعية والتاريخية، وهو ما يتجلى بوضوح في قصبة الجزائر.

المدخل التاريخي يتيح لنا فهم تشكل المعاني الرمزية للهوية الثقافية لقصبة الجزائر في سياقها الزمني. المدن لا تُفهم بمعزل عن تاريخها، حيث أن السياقات التاريخية المختلفة تترك بصماتها على

هوية المدينة وسكانها. من خلال هذا المدخل، سنقوم بتحليل تاريخ القصبة، بدءًا من تأسيسها وصولًا إلى حاضرها، مع التركيز على الفترات الزمنية التي شهدت تحولات ثقافية وسياسية واجتماعية كبيرة. هذا التحليل سيمكننا من فهم كيف أن التراث التاريخي للقصبة لعب دورًا أساسيًا في تشكيل الهوية الثقافية للجزائريين، وكيف أن هذه الهوية تتأثر بالتغيرات الزمنية والسياسية والاجتماعية.

اما المدخل الوظيفي، فقد تم اعتماده انطلاقا من افتراض معرفي يرى ان الظواهر الثقافية تكتسب معناها الاجتماعي من الأدوار التي تؤديها داخل النسق الاجتماعي. فالتراث لا يستمر فقط لكونه موروثا من الماضي، بل لأنه يؤدي وضائف اجتماعية ورمزية في الحاضر، لأنه محمل بمعاني مشتركة، من قبيل تعزيز الانتماء، ترسيخ الذاكرة الجماعية، وضمان الاستمرارية الثقافية. وسيوظف هذا المدخل في الدراسة بصورة غير اختزالية، بحيث لا يختزل التراث في وظيفته، بل يربط بالمعنى والسياق.

المدخل السوسيوثقافي يُعتبر أساسيًا لفهم كيف أن الثقافة والإبداع الإنساني يتجسدان في الفضاء الحضري للقصبة. يرى هذا المدخل أن المدينة ليست مجرد كيان مادي، بل هي نتاج للتفاعل الاجتماعي والإبداع الثقافي. في حالة قصبة الجزائر، يعكس الطابع العمراني والثقافي للمدينة الثقافة الجماعية لسكانها، ويتجسد هذا في الأنشطة الاجتماعية، الفنون، والتصاميم الحضرية التي تشكل الفضاء الحضري. من خلال هذا المدخل، سنقوم بتحليل كيف أن المدينة كإنتاج اجتماعي وفني يعكس الهوية الثقافية لسكانها، وكيف أن التراث الثقافي للقصبة يمثل إبداعًا جماعيًا يعزز الشعور بالانتماء والهوية الوطنية.

من خلال دمج هذه المقاربات، سنتمكن من تقديم تحليل شامل ودقيق لدور التراث في تشكيل الهوية الثقافية للقصبة، بما يتيح لنا فهمًا أعمق لكيفية تفاعل العوامل البيئية، التاريخية، والاجتماعية في إبراز معالم الهوية الجزائرية. هذه المقاربات توفر لنا أدوات نظرية متعددة الأبعاد لفهم التعقيدات التي تحيط بالتراث الثقافي ودوره في تكوين الهوية في سياق عالمي ومحلي متغير.

1. المقاربة الإيكولوجية:

المدخل الإيكولوجي، أو المنظور الإيكولوجي، يُعد أحد المقاربات النظرية البارزة في دراسة العلاقة الجدلية بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها، وقد تأسس هذا المدخل بشكل منهجي في الأنثروبولوجيا تحت مسمى "الإيكولوجيا الثقافية" (Cultural Ecology) على يد الأنثروبولوجي الأمريكي **جوليان ستيوارد (Julian Steward)**. يستند هذا المدخل إلى فكرة أن هناك "نواة ثقافية" (Cultural Core) في كل مجتمع، تتكون من الممارسات الاقتصادية وتقنيات العيش المرتبطة بشكل مباشر بالبيئة الطبيعية، وهذه النواة هي التي تؤثر بشكل حاسم في تشكيل البنى الاجتماعية والهوية الثقافية للمجتمعات، وبالمقابل، يسهم الإنسان أيضًا في تشكيل هذه البيئة من خلال ممارساته الثقافية والاجتماعية، مما يخلق علاقة تأثير متبادلة ومعقدة[1].

يتجاوز المدخل الإيكولوجي الفهم البسيط للعلاقة بين الإنسان والبيئة إلى دراسة التأثيرات المتبادلة والمعقدة بين العناصر المختلفة التي تشكل البيئة ككل، مثل العوامل الجغرافية، الاقتصادية، الاجتماعية، والثقافية. في إطار دراستنا حول "دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية "قصبة الجزائر أنموذجًا"، يعتبر المدخل الإيكولوجي أساسيًا لفهم كيف أن البيئة التاريخية والمعمارية لقصبة الجزائر تسهم في تشكيل الهوية الثقافية لسكانها؛ القصبة ليست مجرد حي تاريخي محاط بأسوار قديمة، بل هي نظام بيئي ثقافي معقد يتفاعل فيه التراث المادي المتمثل في المباني والأزقة والآثار، مع التراث غير المادي مثل العادات، التقاليد، والروابط الاجتماعية التي تربط سكانها.

عند إسقاط المدخل الإيكولوجي على قصبة الجزائر، يمكننا النظر إلى القصبة كبيئة فريدة نشأت من تفاعل طويل ومعقد بين الإنسان ومحيطه. السكان الذين يعيشون في هذه المنطقة لم يقتصروا على التكيف مع البيئة المحيطة بهم، بل كانوا أيضًا جزءًا من إعادة تشكيل هذه البيئة عبر الأجيال، تتجلى هذه العلاقة الإيكولوجية في كيفية بناء البيوت التقليدية في القصبة باستخدام المواد المحلية، وفي التكيف مع التضاريس الجبلية للمدينة، بالإضافة إلى الحفاظ على طرق تقليدية في البناء والمعمار التي تعكس الهوية الثقافية العميقة.

---

[1] Steward, Julian H., Theory of Culture Change: The Methodology of Multilinear Evolution, University of Illinois Press, Urbana, USA, 1955, p. 37.

من خلال المدخل الإيكولوجي، نرى أن الهوية الثقافية لسكان قصبة الجزائر لم تكن نتاجًا عرضيًا، بل هي نتاج لتفاعل دائم بين الإنسان والبيئة على مدار قرون، هذا التفاعل يبرز في الحياة اليومية للسكان، في طقوسهم، في احتفالاتهم، وفي كيفية استخدامهم للمساحات العامة والخاصة داخل القصبة. كل هذه العناصر الإيكولوجية تسهم في تكوين هوية ثقافية خاصة وفريدة لسكان القصبة.

على الرغم من هذه العلاقة المتينة بين التراث البيئي والهوية الثقافية في قصبة الجزائر، تواجه هذه المنطقة تحديات كبيرة نتيجة للتغيرات البيئية والاجتماعية والاقتصادية الحديثة. التوسع العمراني، التدهور البيئي، وتحولات الاقتصاد المحلي، كلها عوامل تشكل تحديات كبيرة أمام الحفاظ على الهوية الثقافية للقصبة. من خلال المدخل الإيكولوجي، يمكننا تحليل كيف تؤثر هذه التحديات على التراث المادي وغير المادي للقصبة، وما هي الاستراتيجيات الممكنة للحفاظ على هذه الهوية الثقافية في مواجهة هذه التحديات.

وعليه فالمدخل الإيكولوجي يعتبر أداة تحليلية قوية تساعد في فهم الديناميات المعقدة التي تشكل العلاقة بين الإنسان والبيئة في قصبة الجزائر، من خلال هذا المدخل، يمكننا النظر إلى القصبة كمنظومة بيئية ثقافية تتأثر وتؤثر في الهوية الثقافية للسكان، مما يتيح لنا فهمًا أعمق لدور التراث في تشكيل الهوية الثقافية الجزائرية.

2. المقاربة التأويلية:

تُعَدّ **المقاربة التأويلية** أحد المداخل النظرية الأكثر تأثيرًا في الأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة، وقد صاغها الأنثروبولوجي الأمريكي **كليفورد غيرتز(Clifford Geertz, 1973)** ، الذي ركّز على فهم الثقافة باعتبارها نصوصًا رمزية قابلة للقراءة والتفسير، وفقًا لهذه الرؤية لا يُمكن فهم سلوك الأفراد أو الممارسات المجتمعية بوصفها مجرد أنشطة يومية عابرة، بل يجب النظر إليها بوصفها أنظمة رمزية غنية بالمعاني، يمكن قراءتها لاستخلاص كيف يُشكّل الأفراد والمجتمعات رؤيتهم للعالم وهويتهم الذاتية[1].

[1] صفحة ويكيبيديا الموثوقة عن الكتاب:The Interprétation of Cultures
https://en.wikipedia.org/wiki/The_Interpretation_of_Cultures

في هذا الإطار، يفهم التراث ليس كمجموعة من المظاهر المادية او الممارسات التقليدية فحسب، بل كخطاب رمزي محمل بالدلالات الاجتماعية والتاريخية، يسهم في تشكيل الهوية الثقافية وإعادة انتاجها، "المقاربة التأويلية تقوم على فرضية أن الثقافة ليست كيانًا ثابتًا، بل هي عملية متجددة من إنتاج المعنى"[1]. فالتراث، وفق المنظور التأويلي، يُمارس ويُؤوّل من قبل الافراد والجماعات، وتُمنح له معان تختلف باختلاف السياقات والفاعلين، مما يجعله ظاهرة دينامية تتجاوز الثبات والتقديس.

ويعد فضاء قصبة الجزائر مجالا خصبا لتطبيق المقاربة التأويلية الرمزية، لما يحمله من كثافة رمزية ناتجة عن تراكب التاريخ، العمران، الذاكرة، والممارسات اليومية. فالقصبة لا تفهم فقط كنسيج عمراني تقليدي، بل كرمز ثقافي يعكس معاني الانتماء، المقاومة، والاستمرارية التاريخية، كما تقرا عناصرها المعمارية كالأزقة الضيقة، البيوت المتلاصقة، المساجد، الساحات، بوصفها علامات ثقافية تعبر عن تنظيم اجتماعي محدد، وقيم جماعية قائمة على التضامن، الخصوصية، والروابط القرابية.

تتيح المقاربة التأويلية قراءة الرمزية المضمرة في المعمار والزقاقات والفناءات الداخلية للبيوت . فالبيوت التقليدية الملتفة حول فناء داخلي، والأسواق المتفرعة في الأزقة الضيقة، والمساجد التي تحتل مواقع محورية، كل هذه العناصر ليست عشوائية، بل تحمل معانٍ رمزية عميقة، فهي تعكس تنظيم المجتمع، توازن العلاقات بين الفرد والجماعة، وتحدد طريقة إدراك السكان للفضاء الاجتماعي والثقافي. تسمح هذه المقاربة أيضًا بفهم كيفية تفاعل السكان مع التغيرات الحديثة دون فقدان الهويّة الثقافية. فالنشاطات الاقتصادية، الاحتفالات الدينية، والممارسات الحرفية التقليدية يمكن تأويلها بوصفها وسائل لإعادة إنتاج الهوية الثقافية في مواجهة التحولات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، على سبيل المثال، استمرار بعض الحرف اليدوية في قصبة الجزائر لا يُفسّر فقط اقتصادياً، بل كونه **رمزًا** للمقاومة الثقافية والمحافظة على الانتماء التاريخي للمكان.

وتسهم المقاربة التأويلية الرمزية أيضا في فهم العلاقة بين التراث والذاكرة الجماعية، حيث ينظر الى قصبة الجزائر كفضاء لتجسيد الذاكرة التاريخية والوطنية، لا سيما تلك المرتبطة بفترات المقاومة

[1] BA Notes. “Clifford Geertz’s Interpretative Theory in Anthropology.” Last updated January 6, 2024. https://banotes.org/social-cultural-anthropology/clifford-geertz-interpretative-theory-anthropology/?utm_source=chatgpt.com

والاستعمار، مما يمنح التراث بعدا رمزيا يتجاوز المحلي الى الوطني. وبهذا المعنى، يصبح التراث أداة رمزية لإعادة بناء الهوية الثقافية في الحاضر، من خلال استحضار الماضي وتأويله في ضوء التحولات المعاصرة.

من خلال هذه الرؤية، يصبح التراث الثقافي للقصبة مشروعًا تأويليًا مستمرًا، إذ لا يقتصر دوره على الحفاظ على المباني أو تقاليد الماضي، بل يمتد إلى إعادة إنتاج المعنى والهوية الثقافية يوميًا . المقاربة التأويلية تمكّن الباحث من تجاوز الوصف البصري أو التاريخي للقصبة، إلى قراءة رمزية متعمقة، تكشف كيف يقرأ السكان ويعيدون إنتاج قيمهم وهويتهم في حياتهم اليومية، وكيف يُترجم التراث الثقافي إلى مرجعية رمزية لحياة جماعية متجددة.

وعليه، يمثل اعتماد المقاربة التأويلية إضافة حيوية لأطروحتنا، إذ يتيح الربط بين التراث الثقافي والمعنى الرمزي الذي يحمله، ويوفر إطارًا تحليليًا قادرًا على فهم الديناميات الثقافية والاجتماعية المعقدة في قصبة الجزائر، بما ينسجم مع أهداف البحث حول "دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية".

3. المقاربة التاريخية:

أيضا سنعتمد على المدخل التاريخي الذي يُعتبر أحد المداخل الأساسية في الدراسات الأنثروبولوجية. يستند هذا المدخل إلى الفكرة المحورية التي يؤكد عليها الأنثروبولوجي **إدوارد إيفانز بريتشارد (E. E. Evans-Pritchard)**، ومفادها أنه لا يمكن فهم المؤسسات الاجتماعية في حاضرها فهمًا كاملًا دون دراسة تطورها وسيرورتها عبر الزمن، " إذ إن السياقات التاريخية تُشكل الإطار الذي تتبلور فيه الهويات الثقافية والاجتماعية للمجتمعات "[1]. ويتطلب تحليل المدن من خلال هذا المنظور دراسة تطورها التاريخي وتأثير الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها.

إن تبني المدخل التاريخي في هذه الأطروحة لا يعد خيارًا منهجيًا تكميليًا، بل هو ضرورة إبستيمولوجية لفهم قصبة الجزائر ليس بوصفها فضاءً جامدًا، بل بوصفها " أثرًا حيًا " وسيرورة تاريخية

[1] Evans-Pritchard, E. E., Essays in Social Anthropology, Faber and Faber, London, UK, 1962, p46.

متجسدة في المكان. فنحن لا نتعامل مع التاريخ كخلفية سردية للحاضر، بل كممارسة بنيوية فاعلة، تسهم في رسم ملامح المورفولوجيا الاجتماعية، وتُنتج المعنى في تفاصيل الحياة اليومية، انطلاقًا من رؤية أنثروبولوجية ترى في الثقافة عملية تراكمية وتفاعلية عبر الزمن[1]، وبناء على ذلك فإن فهم حاضر القصبة يقتضي تفكيك ما يمكن تسميته بـ " الجيولوجيا الرمزية (Symbolic Geology) "لطبقاتها التاريخية المتعاقبة[2].

ولهذا، فإن نقطة الانطلاق المنهجية في هذه الدراسة تستند الى لحظة تاريخية دقيقة، تتمثل في اللحظة التأسيسية الأولى على يد السلالة الزيرية في القرن العاشر الميلادي، هذه اللحظة لا تمثل مجرد بداية كرونولوجية، بل تعد الفعل التأسيسي (Founding Act) الذي طبع "الجينوم الحضري" للمدينة[3]. فقد أسهم اختيار الموقع الطبوغرافي على ذلك التل الاستراتيجي المطل على البحر في تحديد الوظائف الاستراتيجية والعمرانية للقصبة، وربطها بمجالها الايكولوجي المتوسطي[4]، كما أدى الى رسم النواة الأولى للنسيج العمراني المتدرج، وتحديد العلاقة العضوية بين الفضاء العسكري (الحصن) والفضاء الديني (المسجد) والفضاء المدني (السكن).

وتشكل هذه البنية الأولية ما يمكن اعتباره "النموذج الأصلي" (Archetype) للمدينة[5]، والذي ظل حاضرا عبر العصور اللاحقة سواء من خلال إعادة انتاجه، او تحويره، او حتى محاولة محوه. كما أرسي هذا النموذج ما يشبه "قواعد النحو المكاني" (Spatial Grammar) [6] التي حكمت تنظيم الفضاء، وحددت أنماط الحركة، وحدود الخاص والعام، والعلاقات الاجتماعية داخل القصبة.

---

[1].غيرتز كليفورد، مرجع سابق، ص 23-29.

[2] Ricoeur Paul, time and narrative, vol. 1, University of Chicago Press, 1984, pp.52-60
انظر أيضا: روسي ألدو، عمارة المدينة، ترجمة احمد زايد، دار الشروق، القاهرة، 1997

[3] Ravereau Andre, La Casbah D'Alger et le site créa la ville, Sindbad, paris, 1989, pp.17-24

[4] Braudel Fernand, La Méditerranée, Armand colin, paris, 1991, pp.41-48.

[5] Jung Carl Gostav, The Archetypes and the Collective Unconscious, University Press, 1984, pp.3-10

[6] Hillier Bill, Hanson Julienne, The Social Logic of Space, Cambridge University, Press, 1984, pp.48-55

ولا يهدف تحليل هذه المرحلة الى مجرد استعراض تاريخي، بل الى الكشف عن "النص الأصلي" الذي كُتبت فوقه نصوص الحضارات اللاحقة، في عملية ما يعرف بمفهوم " الطِّرْس(Palimpsest) "[1]، حيث لا تُمحى الطبقات القديمة تمامًا بل تبقى آثارها بادية لمن يملك الأدوات المنهجية لقراءتها.

باعتقادي أن أي محاولة أنثروبولوجية لفهم قصبة الجزائر تقتضي بالضرورة تجاوز القراءة السطحية لطبقاتها التاريخية، والنزول إلى عمق " النص التأسيسي" [2] الذي صاغ منطقها المكاني الأول. هذا النص هو العمارة الزيرية، التي لا يجب أن تُقرأ كحقبة تاريخية بهتت معالمها، بل بوصفها نتاج لفعل اجتماعي وثقافي يعكس منظومة قيم وهوية جماعية متجذرة، والذي لا يزال منطقه البنيوي حاضرًا كبنية عميقة تحت زخارف الحقب اللاحقة، وتناول هذه المرحلة يقتضي الانتقال من البحث عن الأثر الجمالي إلى قراءة الفعل المعماري كممارسة اجتماعية وتجسيد مادي للسلطة والهوية والعلاقة العضوية بين الإنسان ومحيطه، فالعمارة الزيرية في "جزائر بني مزغنة" لم تكن معنية بإنتاج الصروح الفخمة بقدر ما كانت معنية بإنتاج "مكان منطقي" مكانٌ قابل للحياة، قابل للدفاع، وقادر على ترسيخ هوية جماعية ناشئة.

في سياق سياسي مضطرب لسلالة محلية تسعى لتثبيت أركان حكمها، لم تكن العمارة ترفًا، بل كانت أداة براغماتية للبقاء والسيطرة، وقد تجلى هذا أولًا في الطابع الحصيني الغالب على النواة الأولى للمدينة، فاختيار التل المطل على البحر لم يكن مجرد اختيار طبوغرافي، بل كان فعلًا إيكولوجيًا واستراتيجيًا بامتياز[3]، يوفر حماية طبيعية وهيمنة على الممرات الحيوية. كانت الأسوار التي أحاطت بالمدينة بمثابة ترسيم رمزي حاسم بين " الداخل " المنظم والآمن الذي تمثله السلطة، و" الخارج " المهدد والفوضوي[4]، هذه العمارة الدفاعية اتسمت بجمالية وظيفية، حيث كانت المواد المحلية وتقنيات البناء البسيطة استجابة مباشرة لمتطلبات البيئة والحاجة، معبرةً عن "مادية براغماتية" تكون فيها قيمة البناء في قدرته على أداء وظيفته بأقصى كفاءة، هذا التقشف الظاهري ليس فقرًا فنيًا، بل هو جوهر منطق معماري أنتجته الضرورة لا الترف.

---

[1] Corboz Andre, The Land as Palimpsest, Diogenes, No.121,1983, pp.12-15.

[2] Rossi Aldo, the Architecture of the City, MIT Press, 1982, pp.29-34.

[3] بيومي محمد، جغرافيا المدن العربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999، ص 87.

[4] Creswell, K.A.C. Early Muslim Architecture, Oxford Université Press, 1969, p.211.

وفي قلب هذا الفضاء الحضري، لم يكن القصر هو المركز، بل المسجد[1]، الذي شكّل المركز الثقافي الروحي والاجتماعي للمدينة، فتأسيس الجامع الكبير، ببساطة تصميمه القائم على البلاطات الممتدة والمتوازية، لم يكن مجرد إنشاء لمكان عبادة، بل كان فعلًا يهدف إلى إضفاء الشرعية الدينية على السلطة السياسية، ودمج السكان في هوية جماعية واحدة محورها الإسلام. لقد كان المسجد هو النقطة التي تنظم الحياة العامة، ومن حوله نما النسيج الحضري بشكل عضوي، جاعلًا من الدين أساس التماسك الاجتماعي. إن هذه المركزية للمقدس في الفضاء الحضري هي سمة أساسية طبعت هوية المدينة منذ لحظتها الأولى، وجعلت من الدين مكونًا لا ينفصل عن الحياة اليومية والممارسة المكانية.

والأهم من المباني الفردية، هو المنطق البنيوي الذي أرسته الفترة الزيرية والذي سيحكم تطور القصبة لقرون. لقد نحتت هذه الحقبة " القواعد النحوية المكانية (Spatial Grammar) " التي ستشكل لاحقًا " هابيتوس " (Habitus) [2] سكان القصبة، أي طريقتهم المتجذرة في العيش والتفاعل مع المكان. فالأزقة الضيقة والمتعرجة لم تكن عشوائية، بل كانت " تكنولوجيا مكانية " ذكية توفر الظل والحماية من الرياح والأعداء، وترسخ في الآن ذاته تمايزًا صارمًا بين الفضاء العام الخارجي والفضاء الخاص الداخلي. وعلى نفس المنوال، فإن نموذج البيت الملتف حول فناء داخلي (وسط الدار)[3]، والذي يجد جذوره في هذه الفترة، ليس مجرد حل معماري، بل هو تجسيد مادي لنظام قيمي وثقافي يُعلي من شأن الأسرة والخصوصية [4]، وصُمم المكان ليعيد إنتاج بنية اجتماعية محددة، ويغرس في سكانه طريقة معينة في إدراك العالم والتفاعل معه.

وعليه، فإن العمارة الزيرية ليست مجرد طبقة تاريخية سحيقة، بل هي البنية العميقة والمنطق الخفي الذي لا يزال يسري في عروق القصبة. لقد كانت عمارة تُعلي الوظيفة على الزخرف، والجماعة على الفرد، والداخل على الخارج. وفهم هذا " النص التأسيسي" [5] هو شرط لا غنى عنه لقراءة الطبقات العثمانية اللاحقة، التي وإن أضافت فخامة وتفاصيل جمالية، إلا أنها ظلت تتحدث بنفس " اللغة النحوية

---

[1] غليون عبد الله، المدينة في الفكر الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001، ص102.

[2] Bourdieu Pierre, Outline of a Theory of Practice, Cambridge University Press, 1977, p.72.

[3] حماد محمد، البيت العربي الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، 2008، ص 39.

[4] الخولي محمد، فلسفة العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، 1994، ص 91.

[5] Rapopot Amos, HOUSE form and Culture, Prentice-Hall, 1969, p.18.

المكانية " التي صاغها الزيريون لأول مرة، جاعلة من القصبة نسيجًا حضريًا فريدًا تتناغم فيه كل حقبه التاريخية حول نواة تأسيسية واحدة.

كما أن العمارة العثمانية التي تُميز الكثير من المباني في القصبة تعكس الفترات التي كانت فيها الجزائر جزءًا من الدولة العثمانية[1]، في حين أن التعديلات والتحولات التي شهدتها المدينة خلال الاستعمار الفرنسي تُظهر محاولات الاستعمار لفرض هويته الثقافية على السكان[2].

من خلال المدخل التاريخي، يمكننا تحليل كيفية تفاعل سكان القصبة مع التغيرات التاريخية الكبيرة، وكيف أن هذه التفاعلات ساعدت في تشكيل هويتهم الثقافية الفريدة، على سبيل المثال، مقاومة السكان للاستعمار الفرنسي والحفاظ على تقاليدهم وثقافتهم المحلية يمكن أن تُفهم في سياق السعي للحفاظ على الهوية الثقافية في مواجهة التهديدات الخارجية، كما يمكننا دراسة كيف أن الفترات التاريخية التي شهدت حركات الاستقلال والتحرر قد عززت من ارتباط السكان بتراثهم الثقافي وجعلته جزءًا لا يتجزأ من هويتهم الوطنية.

المدخل التاريخي يتيح لنا فهم كيف أن القصبة، كموقع تراثي، ليست مجرد بقايا من الماضي، بل هي حامل للذاكرة الجماعية والرمزية، وجزء نشط ومؤثر في تشكيل الهوية الحالية للسكان.[3] إذ إن الأحداث التاريخية الكبرى التي مرت بها المدينة لا تزال تؤثر في حياة السكان اليوم، سواء في طريقة عيشهم، أو في ممارساتهم الثقافية، أو في كيفية رؤيتهم لذاتهم وهويتهم الوطنية. هذه العلاقة بين الماضي والحاضر تُظهر كيف أن الحفاظ على التراث التاريخي للقصبة يمكن أن يسهم في تعزيز الهوية الثقافية للأجيال الحالية والمستقبلية.

من خلال المدخل التاريخي، يمكننا أيضًا تحليل التحديات التي تواجه الحفاظ على التراث في ظل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة. على سبيل المثال، التوسع العمراني الحديث والتغيرات الاقتصادية قد تؤدي إلى تدهور بعض معالم القصبة أو تغير وظيفتها. من خلال فهم السياق التاريخي

---

[1] شريف ناصر، العمارة العثمانية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 64.

[2] Liauze Claud, Histoire de l Algerie colonial, La Decouverte, Paris, 2004, p.119.

[3] هالبواكس موريس، مرجع سابق، ص 35-41.

للقصبة، يمكننا تطوير استراتيجيات لحمايتها والحفاظ على هويتها الثقافية، وضمان أن تستمر في لعب دورها كموقع تاريخي يعزز الهوية الثقافية الجزائرية.

وبالتالي فالمدخل التاريخي يُعد أداة ضرورية لفهم قصبة الجزائر كموقع تراثي له تأثير عميق على الهوية الثقافية للسكان. من خلال دراسة السياقات التاريخية التي مرت بها القصبة، يمكننا كشف الروابط بين الماضي والحاضر، وفهم كيفية استخدام التراث التاريخي لتعزيز الهوية الثقافية والحفاظ عليها في مواجهة التحديات الحديثة.

4. المقاربة الوظيفية:

المقاربة الوظيفية إحدى الركائز النظرية المركزية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، إذ تنظر إلى المجتمع باعتباره نسقًا مترابط العناصر، تُسهم كلّ وحدة فيه بوظيفة محددة تُحافظ من خلالها على توازن النظام الاجتماعي واستمراريته. ويأتي هذا التصور منسجمًا مع ما طرحه " **رادكليف براون** " في إطار نظريته الوظيفية التي باتت من أهم المقاربات المتداولة في الدراسات الأنثروبولوجية، إذ يرى أن النظم الاجتماعية تشكّل "نسيجًا متشابك العناصر يؤثر كلّ عنصر في العناصر الأخرى، وتعمل مجموعها على خلق وحدة اجتماعية تسمح للمجتمع بالاستمرار والبقاء"[1].

وعليه تعد المقاربة الوظيفية من المقاربات الأساسية في هذه الدراسة، باعتبارها تمكن من تحليل قصبة الجزائر بوصفها نسقا اجتماعيا – ثقافيا متكاملا، تتحدد عناصره ووحداته من خلال الوظائف التي تؤديها داخل البناء الكلي للمجتمع[2]. فالعناصر المعمارية ن والفضاءات الحضرية، والمؤسسات الدينية والاجتماعية داخل القصبة لا يمكن فهمها فقط من خلال أصولها التاريخية او دلالاتها الرمزية، بل من خلال الأدوار الوظيفية التي تؤديها في حفظ التوازن الاجتماعي، وضمان الاستمرارية الثقافية، وتنظيم العلاقات اليومية بين الافراد والجماعات.[3]

---

[1].محمد الخطيب، النظرية الأنثروبولوجية، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، 2020، ص 20

[2] مالينوفسكي برونسلاف، نظرية الثقافة، ترجمة: محمد غنيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ص 38-42

[3] رادكليف براون، الفرد ريجنالد، البنية الوظيفية في المجتمع البدائي، ترجمة: احمد زايد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص 9-15.

وانطلاقا من هذا المنظور، ينظر الى المسجد، والدار، والزقاق، والساحة والسوق، باعتبارها وحدات وظيفية مترابطة، لكل منها دور محدد في إعادة انتاج النظام الاجتماعي والقيمي داخل القصبة[1] . فالمسجد لا يؤدي وظيفة دينية فحسب، بل يضطلع بوظائف تعليمية، وتنظيمية، ورمزية، في حين تمثل الدار فضاء لإعادة انتاج البنية الاسرية والقرابية، وترسيخ قيم الخصوصية والتضامن [2]. والازقة المتعرجة، فلا تفهم فقط كاختيار عمراني تقني، بل كآلية وظيفية لضبط الحركة، وحماية المجال الداخلي، وتعزيز التماسك الاجتماعي، اما الساحات والأسواق والأسواق فتقوم بتشجيع التفاعل الاجتماعي بين السكان، أو حتى تعزيز الاقتصاد المحلي من خلال الحرف التقليدية.

وتسمح المقاربة الوظيفية كذلك بفهم كيفية استمرار بعض اشكال الممارسات التراثية داخل القصبة رغم التحولات التاريخية والاجتماعية، اذ يفسر هذا الاستمرار بقدرتها على أداء وظائف اجتماعية حيوية، تجعل المجتمع متمسكا بها باعتبارها عناصر ضرورية لاستقراره الرّمزي والاجتماعي[3]. وبهذا المعنى، فائن التراث داخل القصبة لا يقارب كرصيد مادي جامد، بل كنظام وظيفي حي، يتجدد من خلال الممارسة، ويعاد انتاجه بما يخدم حاجات الجماعة ويحفظ هويتها.

واحدة من القضايا المهمة التي يمكن معالجتها من خلال المقاربة الوظيفية هي كيفية تأثير الحداثة والعولمة على التراث الثقافي. ففي ظل التغيرات السريعة، تواجه قصبة الجزائر تحديات في الحفاظ على وظيفتها كمصدر للهوية الثقافية. يمكن أن تساعد هذه المقاربة في تحليل تلك التغيرات وفهم كيفية تأثيرها على التراث وأدواره الاجتماعية.

إدراج المقاربة الوظيفية في هذه الدراسة يوفر إطارًا لفهم "قصبة الجزائر" كعنصر فعال في تشكيل الهوية الثقافية، ليس فقط من منظور تاريخي أو ثقافي، بل أيضًا من خلال الأدوار التي يؤديها هذا التراث في الحفاظ على النظام الاجتماعي والهوية الوطنية.

---

[1] Evens-Pritchard, op.cit., pp.61-65.

[2] بورديو بيير، " البيت او العالم المقلوب"، ضمن: سوسيولوجيا الجزائر، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، 1986، ص 55-63.

[3] مالينوفسكي برونسلاف، السحر والعلم والدين، ترجمة: عبد الله عبد الدايم، دار المعرفة، القاهرة، 1966، ص 17-21.

5. المقاربة السوسيوثقافية:

ينظر المدخل السوسيوثقافي إلى المدينة بوصفها بنية اجتماعية وثقافية منتجة للمعاني، لا مجرّد حُلة معمارية. فالمدينة تُنتج وتُعاد إنتاجها يوميًّا عبر ممارسات السكان، عبر أنماط الاستخدام، والطقوس، والأسواق، والفضاءات العامة التي تصبح بدورها نُصوصًا ثقافية تحمل رموز القِيَم والمعايير الاجتماعية[1]. وفقًا لهذا المدخل، فإن المدينة ليست مجرد كيان عمراني أو تجمع سكاني، بل هي مساحة اجتماعية تنتج وتعيد إنتاج الأفعال الاجتماعية والثقافية لساكنيها. المدن تُعبر عن ثقافات ساكنيها، وتجسد هوياتهم، وتحمل بصمات القيم والمعايير الاجتماعية التي تسود فيها.

في حالة قصبة الجزائر، يتيح هذا المدخل قراءة العمران والأزقة والأسواق والحمّامات كمجالاتٍ اجتماعية ذات فترة حياة، حيث تتحوّل البنية المادية إلى حامل للدلالة، منطق الأماكن يتقاطع مع ممارسات يومية تشكل الذاكرة الجمعية وتعيد إنتاج الانتماء الاجتماعي والثقافي. بهذا الفهم تصبح القصبة نتاجًا اجتماعيًا–ثقافيًا يتجلى في البنى المادية وبالأخص في الطقوس والأساليب التي تُغذّيها، فلا يكفي الاهتمام بالهيكل المعماري وحده دون التقاط الممارسات الحية التي تمنحه معنى[2].

المقاربة السوسيوثقافية تمكّننا من رؤية المدينة ليس كمجرد تجمع مبانٍ وأزقّة، بل كمجال اجتماعي وثقافي حي يعكس تفاعل السكان مع بيئتهم المادية والرمزية. فحسب هذه المقاربة، المدينة هي فضاء إنتاج المعنى، إذ لا تتكوّن الهويات سوى من خلال الأفعال اليومية والطقوس والعلاقات التي تجمع الناس مع بعضهم البعض وفي علاقاتهم مع أماكنهم.

النقّاد **ملاس ومنكول (2023)** يرصدون كيف يعكس البناء المعماري في القصبة البعد الاجتماعي والديني معًا، ما يجعله حاملًا لهوية حضرية محلية متجذّرة[3].

---

[1] هادفي، سمية، سوسيولوجيا المدينة وأنماط التنظيم الاجتماعي الحضري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 6، العدد 17، جامعة 20أوت 1955 – سكيكدة، الجزائر، ديسمبر 2014، ص 169–184.

[2] ضاوية، وداش، قصبة الجزائر: اندثار نسيج حضري أم اندثار هوية حضرية، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 14، العدد 2، جامعة الجيلالي ليابس – سيدي بلعباس، الجزائر، 31 ديسمبر 2014، ص 472–493.

[3] ملاس حسيبة، منكول فاطمة، تجليات البعد الاجتماعي والديني في عمارة المدينة العربية الإسلامية: حي القصبة العتيق (الجزائر) أنموذجًا، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 10، العدد 2، 2023، ص 347–364.

إضافة إلى ذلك، يرى بعض الباحثين أن التغيرات الثقافية في المدن التراثية الجزائرية لا يمكن فهمها إلا عبر منظور سوسيوثقافي، كما يوضح **قربوع (2014)** في تحليله لتطور المدن القديمة " فالتغيير العمراني ليس مجرد مظهر فيزيائي، بل عملية ترتبط بالقيم، والذاكرة، والانتماء الثقافي"[1]

ومن جهة أخرى، تظهر الأبحاث الميدانية مثل دراسة **سعود والذيب (2023)** حول حي المخادمة في ورقلة أن التنظيم العمراني والتشريعات السكنية يتفاعل مع الممارسات الاجتماعية للسكان، ما يعكس بروز وظيفة ثقافية واجتماعية في الفضاء العمراني الصحراوي[2].

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن المدخل السوسيوثقافي يشكّل أداة تحليل قوية لدراسة التراث الحضري في قصبة الجزائر، فهو يفسّر كيف تتحوّل البنية المعمارية إلى نسيج رمزي يعبر عن العلاقات الاجتماعية، والهوية الجماعية، والتوازن بين الماضي والحاضر، بل يتيح أيضًا فهماً لكيفية تأثير التغيرات المعاصرة (العمرانية، الاقتصادية، الثقافية) على هذا التوازن.

المدخل السوسيوثقافي يساعدنا أيضًا في فهم أن المدينة ليست مجرد مجموعة من المباني والأزقة، بل هي نتاج لأفعال اجتماعية مستمرة. في قصبة الجزائر، تُعبر المدينة عن التفاعل الدائم بين السكان وبيئتهم، حيث تتشكل وتتحول مع مرور الزمن. الأفعال اليومية للسكان، مثل التجارة، الترفيه، الطقوس الدينية، والاحتفالات الاجتماعية، كلها تشكل البيئة الحضرية وتعيد إنتاجها، مما يجعل المدينة كيانًا حيًا وديناميكيًا، كما يؤكد على أن التراث الثقافي للمدينة هو نتاج إبداع جماعي يعكس الهوية الثقافية للسكان. في حالة قصبة الجزائر، نجد أن الحفاظ على التراث المعماري والثقافي للمدينة يعكس رغبة السكان في الحفاظ على هويتهم وتاريخهم. هذا التراث ليس ثابتًا، بل هو نتاج لتفاعلات اجتماعية مستمرة يعيد فيها السكان إنتاج ثقافتهم وهويتهم.

على الرغم من أهمية هذا المدخل في فهم قصبة الجزائر، فإنه يكشف أيضًا عن التحديات التي تواجه المدينة في العصر الحديث. التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، والتأثيرات الخارجية للعولمة، يمكن أن

---

[1] قربوع عبد الرزاق، التغير الثقافي وإشكالية تطور المدن التراثية في الجزائر: مقاربة سوسيوثقافية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، عدد خاص، 2014، ص 11–24.

[2] وحيد ساعد سعود، بلقاسم الذيب، البيئة السكنية في المدينة الصحراوية بين الممارسات الاجتماعية والتشريعات العمرانية: حي المخادمة، ورقلة، مجلة إنسانيات (CRASC)، عدد 101، 2023، ص 9–39.

تؤدي إلى تغييرات في الطابع الثقافي للمدينة، فمن خلال المدخل السوسيوثقافي، يمكننا دراسة كيفية تأثير هذه التحديات على الهوية الثقافية للمدينة، وكيف يمكن للسكان والمجتمع المدني التعامل مع هذه التغيرات للحفاظ على التراث الثقافي للقصبة.

وعليه فالمدخل السوسيوثقافي يعد أداة نظرية حيوية لفهم قصبة الجزائر كمجتمع حضري يُعبر عن الهوية الثقافية للسكان. من خلال هذا المدخل، يمكننا تحليل المدينة كنتاج فني واجتماعي يعكس إبداع سكانها وثقافتهم الجماعية، مما يتيح لنا فهمًا أعمق لدور التراث في تشكيل وتعزيز الهوية الثقافية الجزائرية.

6. خلاصة المقاربات النظرية المعتمدة في الدراسة:

إن استحضار المقاربات النظرية في هذه الأطروحة لم يكن مجرد التزام منهجي، بل يمثل خارطة معرفية تمكّن من فهم القصبة كظاهرة ثقافية وحضرية متكاملة، حيث تتقاطع البيئة، التاريخ، المجتمع، الوظيفة، والرمز في فضاء واحد متجذر في الواقع اليومي، فهذه المقاربات الخمس، الإيكولوجية، التأويلية الرمزية، التاريخية ،الوظيفية والسوسيوثقافية، توفر رؤية شاملة لتفكيك العلاقة المعقدة بين الإنسان والتراث والهوية الثقافية في قصبة الجزائر، وتتيح قراءة متعددة المستويات للعوامل المادية والرمزية والاجتماعية التي تشكل النسيج الحضري والثقافي.

- **المقاربة الإيكولوجية** قدّمت لنا فهمًا دقيقًا للعلاقة الجدلية بين الإنسان وبيئته، إذ أظهرت كيف أن قصبة الجزائر ليست مجرد حي تاريخي جامد، بل منظومة بيئية ثقافية متفاعلة، حيث تؤثر البنية الطبيعية والمعمارية في ممارسة السكان لحياتهم اليومية، وفي الوقت نفسه يعيد السكان إنتاج هذه البيئة عبر ممارساتهم، تقاليدهم، وطقوسهم. من هذا المنظور، يصبح التراث المادي، المباني، الأزقة، الفضاءات العامة، جزءًا لا يتجزأ من البيئة الثقافية التي تشكل الهوية، ويبرز كيف يمكن أن تؤثر التغيرات البيئية والاجتماعية الحديثة على هذه الهوية.
- **المقاربة التأويلية الرمزية** كما صاغها كليفورد غيرتز، أضافت عمقًا رمزيًا وتحليليًا لفهم القصبة كنص حي. هذه المقاربة تجعلنا ندرك أن المباني، الفناءات، الأسواق، والزقاقات ليست مجرد فضاءات، بل نصوصًا رمزية تحمل المعنى الاجتماعي والثقافي والسياسي. من خلالها يمكن تفسير كيفية إنتاج السكان للهوية الثقافية، وإعادة إنتاجها يوميًا عبر الممارسات والطقوس، وكيف يمكن

للتراث المادي أن يتحول إلى مرجع رمزي يعزز الانتماء والهوية الجماعية في مواجهة التغيرات الحديثة.

- **المقاربة التاريخية** سمحت بتتبع الجذور الزمنية للقصبة وفهم كيفية تراكم الطبقات الحضارية التي أنتجت "النص التأسيسي" للمدينة، فالقصبة، منذ تأسيسها على يد الزيريين، لم تكن مجرد فضاء مكاني، بل نص حضري متواصل يحفظ تأثير كل مرحلة تاريخية على البنية المعمارية والاجتماعية والثقافية. من خلال هذه المقاربة، يمكن رصد تأثير الفترات العثمانية والاستعمار الفرنسي على الهوية الثقافية للقصبة، وكيف حافظ السكان على رموزهم الثقافية عبر مقاومة التغيرات المفروضة من الخارج، مما يجعل التاريخ ليس مجرد خلفية سردية، بل عنصرًا فاعلًا في إنتاج المعنى والهوية.
- **المقاربة الوظيفية** أضافت بعدًا آخر مهمًا، إذ قدمت إطارًا لتحليل الترابط بين عناصر المجتمع والوظائف التي يؤديها التراث في استمرارية الحياة الاجتماعية، فالقصبة، عبر المباني، المؤسسات الدينية، والأسواق، ليست مجرد إرث تاريخي، بل آلية للحفاظ على القيم والمعايير الثقافية ونقلها عبر الأجيال. من منظور وظيفي، يمكن القول إن التراث يشكل دعامة أساسية لتعزيز الهوية الجماعية والاستقرار الاجتماعي، ويكشف كيف أن كل عنصر في المدينة يسهم في الحفاظ على توازن نسق الحياة اليومية.
- **المقاربة السوسيوثقافية** ركزت على الأبعاد الاجتماعية والرمزية للحياة اليومية داخل القصبة. فالمدينة هنا ليست مجرد بنية مادية، بل فضاء إنتاج المعنى، حيث تتحوّل الممارسات اليومية، الأسواق، الطقوس، والفضاءات العامة إلى نصوص ثقافية تعكس قيم المجتمع وتعيد إنتاج هويته الجماعية. من خلال هذا المدخل، يمكن فهم كيف يؤثر التفاعل بين السكان وبيئتهم المادية على إنتاج الهوية الثقافية، وكيف يتم تكييف الممارسات التقليدية مع التحولات الحديثة لضمان استمرارية الانتماء الثقافي.

من خلال الجمع بين هذه المقاربات، تتضح القيمة المضافة للاختيار المنهجي المتعدد الأبعاد فالمقاربة الإيكولوجية توضّح العلاقة مع البيئة، التاريخية توضح الجذور الزمنية، السوسيوثقافية تفكك التفاعلات اليومية، الوظيفية تحدد دور التراث في الاستمرارية الاجتماعية، والتأويلية تكشف البعد الرمزي للهوية. وهذا التكامل يسمح برؤية قصبة الجزائر كنظام حضري وثقافي حي، متداخل الطبقات، متعدد الدلالات، ومستجيب للتغيرات المعاصرة.

إن هذا الجمع المنهجي لم يكن اختيارًا عشوائيًا، بل جاء استجابة للضرورة الأكاديمية والبحثية لفهم الظاهرة التراثية في كل أبعادها، المادية، الرمزية، الاجتماعية، التاريخية، والوظيفية. كما يبرر هذا الاختيار قدرة الأطروحة على تقديم قراءة شاملة للهوية الثقافية للقصبة، توازن بين التحليل البنيوي للمدينة وفهم المعنى الرمزي الذي يحمله التراث، وتكشف آليات استمرار الهوية الثقافية الجزائرية في ظل التحديات الحديثة.

باختصار، هذه المقاربات المتنوعة والمتكاملة تجعل من الأطروحة إسهامًا منهجيًا متميزًا في الدراسات الأنثروبولوجية للتراث الحضري، إذ تسمح بفهم قصبة الجزائر ليس كماضٍ متروك، بل كنص حي يعيد إنتاج معانيه وهويته الثقافية عبر الزمان والمكان.

ثامنا: مفاهيم الدراسة

إنّ تبيان المفاهيم لا يقتصر على تقديم تعريفات جاهزة، بل يتطلب ضبطًا دقيقًا لحدودها الدلالية ووظائفها التحليلية داخل النسق النظري للبحث. وفي هذا السياق، تبرز إشكالية شائعة يقع فيها العديد من الباحثين، تتمثل في الخلط بين "**المفهوم**" و"**المصطلح**"؛ فالمفهوم ليس مجرد تعريف لغوي أو اصطلاحي، بل هو بناء ذهني يتجاوز اللفظ ليعبّر عن حقيقة ظاهرة أو موضوع أو مجموعة من الظواهر، ويشكّل تصورًا عقليًا عامًا يفترض قدرًا من الدقة والوضوح. وبدون هذا التحديد المفهومي الصارم، يصبح من العسير الإمساك بجوهر الظاهرة قيد الدرس أو تحليلها على نحو علمي منضبط[1].

إن المفاهيم في البحث الأنثروبولوجي ليست مجرد مصطلحات أكاديمية، بل هي أدوات تحليلية تُستخدم لفك شيفرات التعقيدات الثقافية والاجتماعية. فهي تمثل جسرًا يصل بين النظريات المجردة والواقع المعيش، وتعمل على تحويل التجارب الإنسانية إلى مادة قابلة للدراسة والفهم. في هذا السياق، تكتسب المفاهيم المستخدمة في هذا البحث أهمية خاصة؛ حيث إنها تعكس الطابع المركب والمتداخل للتراث والهوية. عند الاقتراب من مفاهيم مثل التراث والهوية في دراسة أنثروبولوجية، يصبح من الضروري ليس فقط تعريف هذه المفاهيم بدقة، ولكن أيضًا فهم العلاقات الديناميكية بينها وبين البيئة الاجتماعية

[1] طه حميد حسن الكعبي، نرجس حسين زاير. أصول البحث العلمي، منشورات ضفاف، بيروت، 2023، ص 20.

والثقافية. فكل مفهوم يحمل في طياته دلالات ومعاني تعكس تاريخًا طويلًا من التفاعل بين الفرد والمجتمع، وبين الماضي والحاضر.

يتطلب التناول الأنثروبولوجي لهذه المفاهيم التركيز على البعد الثقافي والاجتماعي لها، ومعرفة كيف تشكلت هذه المفاهيم عبر الزمن، وكيف يتم إعادة تشكيلها باستمرار في ضوء التغيرات المجتمعية. فالتراث ليس مجرد بقايا من الماضي، بل هو حقل تفاعلي يتجلى في الممارسات اليومية والتصورات الثقافية، أما الهوية فهي ليست ثابتة، بل متغيرة، تُعززها التجارب الجماعية والفردية على حد سواء. لذلك، يعد تحديد المفاهيم في هذا البحث خطوة أساسية لإلقاء الضوء على العلاقة المعقدة بين التراث والهوية، واستكشاف كيف يُمكن لهذه العلاقة أن تسهم في فهم أعمق لتجارب المجتمعات المحلية، خصوصًا في سياق التغيرات التي تشهدها المجتمعات الحديثة. بهذا التمهيد، نضع الأسس لفهم المفاهيم التي ستُستخدم في الدراسة، مع الحرص على تقديمها بطريقة تُسهم في تحقيق أهداف البحث الأنثروبولوجي.

1. تعاريف التراث:

1. 1. تعريف اصطلاحي:

يعرّف **محمد عابد الجابري** التراث بأنه " كل ما هو موروث وحاضر فينا أو معنا من الماضي، سواء ماضينا أم ماضي غيرنا، وسواء أكان قريباً أم بعيداً " [1] .

يقول **حسن حنفي** في تعريف التراث " هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو إذن قضية موروث وفي نفس الوقت قضية معطى حاضر" [2].

يعرّف **زكي نجيب محمود** التراث بأنه " ما خلّفه لنا السلف من آثار علمية وفنية وأدبية، سواء كانت مادية كالكتب والآثار والتماثيل، أو معنوية كالآراء والاتجاهات والعادات " [3].

---

[1] الجابري محمد عابد. التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (1991)، ص 21.

[2] في حسن. التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، (1980)، ص 13.

[3] محمود زكي نجيب، في فلسفة النقد، دار الشروق، القاهرة، (1993)، ص 87.

يرى **محمد الجوهري** أن التراث هو " مجموع الإنتاج الثقافي الذي يتناقله جيل عن جيل في مجتمع معين، ويشمل العادات والتقاليد والمعتقدات والقيم والفنون والحرف والمعارف الشعبية " [1].

كما يُعرف **جراهام** وآخرون التراث بأنه " مجموعة من المعاني والقيم التي يتوارثها المجتمع عبر الأجيال، والتي تتشكل من خلال الثقافة والتاريخ والبيئة الاجتماعي " [2].

2.1. تعريف إجرائي:

تراث القصبة هو الذاكرة الحية التي تَحمل في طياتها تجارب الأجيال السابقة للجزائر وتُجسدها في أشكال مادية وغير مادية، فهو ليس مجرد مخزون من العادات والتقاليد، بل هو نسيج متشابك يربط الماضي بالحاضر، ويُعيد تشكيل الهويات الثقافية للأمة الجزائرية. تراث القصبة يُعتبر مرآة تعكس قيم المجتمع الجزائري ورؤيته للعالم، ويعمل كحلقة وصل تربط أفرادها بجذورهم التاريخية والثقافية.

3.1. الدلالات وعلاقاتها الديناميكية:

التراث يُعتبر عنصرًا حيويًا في تكوين الهوية الثقافية، فهو ليس ثابتًا بل يتطور باستمرار مع تغير الظروف الاجتماعية والثقافية. العلاقة بين التراث والبيئة الاجتماعية تُعزز من خلال الممارسات الثقافية اليومية، حيث يتفاعل الأفراد مع تراثهم بشكل ديناميكي يُعيد تشكيله ويُكيّفه مع الحاضر.

2. تعاريف الهوية الثقافية:

1.1. تعريف اصطلاحي:

يعرّف **محمد عمارة** الهوية الثقافية بأنها " القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعاً تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى"[3].

---

[1] الجوهري محمد، علم الفولكلور: دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (2006)، ص 42.

[2] . (Graham, B., Ashworth, G. J., & Tunbridge, J. E. (2000). A Geography of Heritage: Power, Culture and Economy. Arnold Publishers)

[3] عمارة محمد، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (1999)، ص 18

يقول **عبد العزيز التويجري** في تعريف الهوية الثقافية " هي الصفات والخصائص المشتركة التي تميز أمة من الأمم عن غيرها من الأمم، وتعبر عن شخصيتها الحضارية " [1].

ويعرّفها **سعد الدين إبراهيم** بأنها " منظومة من العمليات المعرفية والوجدانية والسلوكية التي تنطوي على إدراك الفرد لذاته، كعضو في جماعة أو أكثر، والاتجاه النفسي نحو الانتماء لهذه الجماعة " [2].

يرى **نصر محمد عارف** أن الهوية الثقافية هي " مجموعة الخصائص والمميزات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الثقافات الأخرى " [3].

كما يُعرفها **كاستيلز** بأنها "بناء للمعاني على أساس سمة ثقافية أو مجموعة من السمات الثقافية التي تُحدد الفرد أو الجماعة في تفاعلهم مع العالم " [4].

3.2. تعريف إجرائي:

الهوية هي التعبير الأصيل عن الذات الجمعية والفردية الجزائرية، وهي تُجسد التفاعل المستمر بين الفرد والمجتمع. الهوية تُشكل إطارًا لفهم الذات والعالم، وهي تعكس مجموعة من القيم والمعتقدات والتجارب التي تُكوّن الشخصية الثقافية والاجتماعية للفرد الجزائري. الهوية ليست ثابتة، بل هي عملية ديناميكية تتأثر بالبيئة الاجتماعية والتاريخية، وتتطور باستمرار مع تجارب الحياة.

---

[1] التويجري عبد العزيز، الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو، الرباط، (2015)، ص 25.

[2] إبراهيم سعد الدين، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في الوطن العربي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (1998)، ص 103.

[3] عارف نصر محمد، الحضارة – الثقافة – المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، (2001)، ص 76.

[4] Castells, Manuel. (1997). The Power of Identity, The Information Age: Economy, Society and Culture, Vol. II. Oxford: Blackwell Publishers, p. 6.

3.2. الدلالات وعلاقاتها الديناميكية:

الهوية، سواء كانت فردية أو جماعية، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالبيئة الاجتماعية والثقافية. فالهوية الثقافية تُعزز من خلال التراث وتُعبر عن العلاقة بين الفرد وجماعته الثقافية. الهوية تتشكل من خلال تجارب الحياة الاجتماعية، والبيئة الثقافية المحيطة تُؤثر بشكل مباشر على كيفية تعريف الأفراد لهويتهم. الهوية هي أيضًا وسيلة للتفاعل مع التراث، حيث يستمد الأفراد والجماعات منها شعورًا بالانتماء والتميز.

3. العلاقة الديناميكية بين التراث والهوية:

1.3. تفاعل مستمر:

العلاقة بين التراث والهوية هي علاقة تفاعلية تتسم بالديناميكية والتطور المستمر. التراث يُشكل جزءًا أساسيًا من الهوية الثقافية، حيث يُعزز الشعور بالانتماء إلى مجموعة ثقافية معينة، ويساهم في تمييزها عن المجموعات الأخرى. من جهة أخرى، تُعيد الهوية تشكيل التراث من خلال تفسيره وتجديده بشكل يتلاءم مع التغيرات الاجتماعية والثقافية.

2. 3. التأثير المتبادل مع البيئة الاجتماعية والثقافية:

البيئة الاجتماعية والثقافية تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل كل من التراث والهوية. التراث، كمجموعة من القيم والممارسات الموروثة، يتفاعل مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة، مما يُسهم في إعادة تفسيره وإعادة تشكيله. الهوية بدورها تتأثر بالعوامل الثقافية والاجتماعية، فهي ليست مجرد انعكاس للتراث، بل هي عملية تفاعل مستمر مع البيئة المحيطة.

3.3. التغير والاستمرارية:

في ضوء التغيرات السريعة التي يشهدها العالم المعاصر، تظل العلاقة بين التراث والهوية علاقة ديناميكية تُعزز الاستمرارية والابتكار. التغيرات الاجتماعية والثقافية قد تؤدي إلى إعادة تفسير التراث، مما يُساهم في تطور الهوية. في هذا السياق، تُصبح الهوية عاملًا أساسيًا في الحفاظ على التراث وتطويره بما يتلاءم مع الحاضر.

هذه المفاهيم، رغم تداخلها وتشابكها، تُشكل الأساس لفهم أعمق للعلاقة بين التراث والهوية في السياقات الثقافية والاجتماعية المختلفة.

4. قراءة أنثروبولوجية سريعة للتعاريف المذكورة للتراث والهوية الثقافية

1.4. مفهوم التراث:

- **استمرارية الماضي في الحاضر:** يظهر في تعريفات **الجابري** و **حنفي** تأكيد على أن التراث ليس مجرد ماضٍ منقطع، بل هو حاضر وفاعل في الثقافة المعاصرة. هذا يتوافق مع المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة كعملية ديناميكية مستمرة.
- **المادي واللامادي:** يشير تعريف **زكي نجيب محمود** إلى الجوانب المادية واللامادية للتراث، وهو تمييز مهم في الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة التي تهتم بكلا الجانبين.
- **النقل بين الأجيال:** يؤكد تعريف **الجوهري** على عملية النقل الثقافي بين الأجيال، وهو مفهوم محوري في دراسات الأنثروبولوجيا الثقافية حول استمرارية الثقافة وتغيرها.

2.4. مفهوم الهوية الثقافية:

- **التمايز الثقافي:** تركز التعريفات على فكرة التمايز عن الآخر، وهي فكرة مركزية في الدراسات الأنثروبولوجية حول الهوية والتنوع الثقافي.
- **الثبات والتغير:** هناك إشارة ضمنية في بعض التعريفات مثل تعريف **عمارة** إلى وجود عناصر ثابتة في الهوية، بينما تشير دراسات أنثروبولوجية حديثة إلى الطبيعة المتغيرة والمتفاوض عليها للهويات الثقافية.
- **البعد الجماعي والفردي:** يشير تعريف سعد الدين إبراهيم إلى التفاعل بين الفرد والجماعة في تشكيل الهوية، وهو موضوع مهم في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة.
- **السياق الاجتماعي:** تؤكد التعريفات على أهمية السياق الاجتماعي والتاريخي في تشكيل الهوية، وهو ما يتوافق مع النهج الأنثروبولوجي في دراسة الثقافات ضمن سياقاتها.

3.4. ملاحظات نقدية:

- معظم التعريفات تميل إلى رؤية الهوية والتراث كشيء ثابت نسبياً، بينما تؤكد الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة على الطبيعة المتغيرة والمتفاوض عليها لهذه المفاهيم.

- هناك تركيز على الخصوصية الثقافية في تعريفات الهوية، مما قد يغفل عن التأثيرات العابرة للثقافات والتهجين الثقافي الذي تهتم به الأنثروبولوجيا المعاصرة.
- التعريفات لا تتطرق بشكل كافٍ إلى قضايا السلطة والهيمنة في تشكيل التراث والهوية، وهي جوانب مهمة في التحليل الأنثروبولوجي النقدي.
- هناك حاجة لمزيد من التركيز على كيفية إعادة إنتاج وتفسير التراث والهوية في السياقات المعاصرة، خاصة في ظل العولمة والتحولات الاجتماعية السريعة.

في الختام، تقدم هذه التعريفات نقطة انطلاق مهمة لفهم مفاهيم التراث والهوية في السياق العربي، لكنها تحتاج إلى تحديث وتوسيع لتعكس بشكل أفضل الفهم الأنثروبولوجي المعاصر لهذه المفاهيم كعمليات ديناميكية ومتعددة الأبعاد.

تاسعا: الدراسات السابقة:

تعد دراسة القصبة في الجزائر أكثر من مجرد استكشاف لمكان تاريخي أو حضري، فهي فضاء حيّ يتشكل من تراكم التجارب الإنسانية، الممارسات الاجتماعية، والرموز الثقافية المتوارثة عبر الزمن. من هذا المنطلق، يشكل استعراض الدراسات السابقة خطوة أساسية لفهم كيفية إنتاج الهوية الثقافية للقصبة، وما الذي لم تتناوله البحوث السابقة، وما الذي يمكن أن تضيفه هذه الأطروحة.

وقبل أن نستعرض هذه الدراسات السابقة حري بنا أن ننبه أن القارئ قد يُلاحظ أن جزءًا معتبرًا من الدراسات التي تم اعتمادها ضمن هذا الفصل لا يندرج شكليًا ضمن حقل الأنثروبولوجيا بالمعنى الأكاديمي الضيق، بل ينتمي إلى مجالات قريبة مثل العمارة، التهيئة الحضرية، التاريخ العمراني، وسياسات التراث، غير أن هذا الاختيار ليس اعتباطيًا ولا تعويضيًا، بل ينبع من وعي منهجي وإبستمولوجي بطبيعة الموضوع المدروس، فالقصبة بوصفها موضوعًا للبحث، لا تُختزل في كونها بنية اجتماعية فقط، كما لا يمكن مقاربتها باعتبارها مجرد فضاء مادي أو معلم تاريخي منفصل عن الحياة الاجتماعية، إنها فضاء مركّب، تتقاطع داخله المادة والرمز ، التاريخ والممارسة، السياسة والذاكرة، اليومي والطقسي، ومن ثمّ فإن أي مقاربة أنثروبولوجية جادة للقصبة تقتضي الانفتاح على إنتاج معرفي متعدّد الحقول، شرط إخضاعه لقراءة أنثروبولوجية نقدية.

ان إدراج هذه الدراسات السابقة لا يعني تبنّي منطلقاتها النظرية أو التسليم بأفقها التحليلية، بل على العكس، يتم توظيفها بوصفها مواد معرفية خام، تُقرأ من خارج منطقها الأصلي، وتُعاد مساءلتها انطلاقًا من سؤال أنثروبولوجي مركزي:

كيف يُنتَج المعنى الثقافي داخل الفضاء التراثي؟

وكيف تُبنى الهوية من خلال الممارسة اليومية للتراث؟

من هذا المنظور، فإن الدراسات المعمارية لا تُستحضر بوصفها تحليلات تقنية، بل بوصفها خرائط مادية للعيش الاجتماعي، ودراسات التهيئة العمرانية لا تُوظَّف كتحليلات تنظيمية، بل كمدخل لفهم علاقات السلطة، الضبط، والتفاوض حول الفضاء، أما دراسات الجمعيات والسياسات، فهي تُقرأ أنثروبولوجيًا باعتبارها خطابات وممارسات رمزية لإنتاج الشرعية الثقافية والهوية.

بعبارة أدق، لم تُدرج هذه الدراسات لأنها تعوّض نقصًا في الدراسات الأنثروبولوجية، بل لأنها تكشف، من حيث لا تقصد حدود المقاربة غير الأنثروبولوجية للتراث، فهي تُظهر بوضوح كيف يتم التركيز على الشكل، التنظيم، أو الحماية القانونية، مقابل تغييب التجربة المعيشة، الجسد، الجندر، الطقس، والحرفة بوصفها ممارسات منتِجة للمعنى، وهذا التغييب هو بالضبط ما تسعى هذه الأطروحة إلى معالجته، وعليه فإن توظيف هذه الدراسات داخل فصل الدراسات السابقة لا يُعد خروجًا عن المنهج الأنثروبولوجي، بل هو تجسيد لأحد أسسه العميقة، أي النظر إلى المعرفة بوصفها حقلًا متداخلاً، وإعادة تأويل المعطيات غير الأنثروبولوجية داخل أفق أنثروبولوجي نقدي.

بهذا المعنى لا تتموضع هذه الأطروحة داخل هامش الحقول المجاورة، ولا تعيد إنتاج خطابها، بل تُعيد ترتيبها معرفيًا، وتضعها في خدمة سؤال أنثروبولوجي جوهري حول دور التراث في إبراز وبناء الهوية الثقافية الجزائرية داخل فضاء القصبة.

1. دراسة، قصبة مدينة الجزائر" علي خلاصي" الجزء الأول [1]

تناولت دراسة علي خلاصي (2007) الموسومة بـ " قصبة مدينة الجزائر، الجزء الأول" قصبة الجزائر بوصفها فضاءً تاريخيًا وعمرانيًا متكاملاً، وسعت إلى توثيق البنية المورفولوجية والعمرانية للقصبة، مع التركيز على تطورها التاريخي وعلاقتها بالتنظيم الاجتماعي للسكان. هدفت الدراسة أساسًا إلى إبراز الخصوصية العمرانية للقصبة باعتبارها نتاجًا لتفاعل طويل بين الإنسان والفضاء، ومحاولة فهم منطق تشكل النسيج العمراني التقليدي في سياقه التاريخي.

اعتمد الباحث منهجًا وصفيًا تحليليًا ذا طابع تاريخي عمراني، مستندًا إلى تحليل الوثائق التاريخية، الخرائط القديمة، والمعاينات الميدانية، دون اللجوء إلى أدوات البحث الكيفي المعمق مثل المقابلات الإثنوغرافية أو الملاحظة بالمشاركة. تمثّل مجتمع الدراسة في الفضاء العمراني لقصبة الجزائر ذاتها، دون تحديد عينة بشرية مباشرة، حيث انصبّ التحليل على المباني، الأزقة، أنماط السكن، والعلاقات الوظيفية داخل النسيج الحضري.

خلصت الدراسة إلى أن قصبة الجزائر ليست مجرد تجمع معماري تقليدي، بل منظومة حضرية متكاملة تعكس منظومة قيم اجتماعية وثقافية، حيث يتجلى التنظيم العمراني كاستجابة لحاجات اجتماعية، دينية، وأمنية. كما أبرزت النتائج أن الخصوصية المعمارية للقصبة شكّلت عنصرًا أساسيًا في الحفاظ على استمرارية نمط العيش التقليدي، رغم التحولات التاريخية التي عرفها الموقع.

أما على مستوى التوصيات، فقد دعا الباحث إلى ضرورة حماية القصبة من التدخلات العمرانية العشوائية، وإلى اعتماد مقاربات علمية في عمليات الترميم، تأخذ بعين الاعتبار القيمة التاريخية والمعمارية للمكان.

- **التعقيب النقدي والربط مع الدراسة الحالية:**

تتقاطع هذه الدراسة مع البحث الحالي في اعتبار القصبة فضاءً حاملاً للهوية الثقافية، وفي الإقرار بأن العمران ليس محايدًا بل مشحون بدلالات اجتماعية وتاريخية، غير أن دراسة **خلاصي**، رغم

[1] خلاصي علي، قصبة مدينة الجزائر، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.

قيمتها التوثيقية العالية، تظل محصورة في المقاربة العمرانية التاريخية، حيث يغيب التحليل الأنثروبولوجي للممارسات اليومية والتمثلات الرمزية للسكان تجاه هذا الفضاء، كما لا تعالج الدراسة التراث بوصفه ممارسة اجتماعية حية، بل تركّز عليه كمعطى مادي ثابت.

وتتمثل الفجوة البحثية التي تبرزها هذه الدراسة في غياب الربط بين التراث العمراني والهوية الثقافية من منظور أنثروبولوجي تأويلي، وهو ما تسعى الدراسة الحالية إلى تجاوزه عبر تحليل كيفية تَمثُّل السكان للقصبة، وكيف تُعاد صياغة الهوية الثقافية من خلال التفاعل اليومي مع التراث المادي واللامادي.

2. دراسة، قصبة مدينة الجزائر، الجزء الثاني، 20007: [1]

يُعالج الجزء الثاني من دراسة **علي خلاصي** الحياة اليومية داخل القصبة من منظور تاريخي اجتماعي، مع التركيز على الحرف التقليدية، الأسواق، والأنشطة الاقتصادية والاجتماعية للسكان. يُبرز المؤلف كيف كانت هذه الممارسات قلب النظام الاجتماعي للقصبة، وكيف انعكست على تنظيم الفضاء والروابط بين الأحياء والمجموعات السكانية. يُظهر الكتاب بوضوح أن القصبة لم تكن مجرد معلم تاريخي أو بنية عمرانية، بل فضاءً اجتماعيًا حيًا، حيث تتقاطع الحياة الاقتصادية مع الممارسات الثقافية والاجتماعية اليومية.

2.1. نقاط القوة:

- **تحليل الحياة اليومية:** يقدم المؤلف وصفًا مفصلًا للأنشطة اليومية للسكان، بما في ذلك الأسواق، الحرف، والوظائف التقليدية، ما يوفّر مادة غنية لفهم ديناميات المجتمع الحضري داخل القصبة.
- **تسليط الضوء على التراث المادي:** يوضح الكتاب دور الحرف التقليدية والأسواق في دعم الاقتصاد الرمزي والثقافي للقصبة، وهو ما يمكّن الباحث من الربط بين التراث والهوية الثقافية.

[1] خلاصي علي، قصبة مدينة الجزائر، الجزء الثاني، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.

- **ربط النشاط الاجتماعي بالفضاء:** يعكس النص كيف أن التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية تنعكس مباشرة على تنظيم الفضاء، مثل الزقاقات والأسواق، ما يجعل القصبة فضاءً متعدد الوظائف ويكشف عن العلاقات المعقدة بين السكان والمكان.

2.2. الفجوات البحثية:

رغم هذه المزايا، يظل العمل محدودًا من حيث:

- **التحليل الرمزي والتأويلي:** بينما يعرض المؤلف الحياة اليومية، فإنه لا يدرس الرمزية الثقافية للأنشطة أو الدلالات التي تحملها الحرف والأسواق ضمن السياق الاجتماعي الثقافي.
- **غياب المنظور الأنثروبولوجي المتكامل:** لا يُفصّل الكتاب في إنتاج الهوية الثقافية عبر الطقوس اليومية أو التمثلات الاجتماعية للسكان، مما يترك فجوة في فهم كيف تُنتج الهوية الثقافية من خلال الممارسة اليومية.
- **قلة الربط بالتحولات المعاصرة:** كما في الجزء الأول، يظل التركيز على التاريخي التقليدي دون استعراض الاستمرارية أو التغيرات في أنماط الحياة اليومية والحرف مع التحضر الحديث والعولمة.

2.3. مواءمة مع الدراسة الحالية:

- يُعد هذا الجزء أساسًا مهمًا للجزء الأنثروبولوجي من أطروحتنا، إذ يوفر مادة غنية لفهم الممارسة اليومية داخل القصبة، والتي يمكن إعادة قراءتها ضمن إطار تحليل رمزي وتأويلي، كما يسمح لنا بتوسيع التحليل ليشمل الهوية الثقافية المنتجة عبر الحرف، الأسواق، والتفاعلات اليومية، وهو البعد الذي تركز عليه أطروحتنا.
- يمكّننا من مقارنة الممارسة التقليدية بالتحولات المعاصرة، وإبراز كيف تتجدد الرموز الثقافية في الحياة اليومية داخل القصبة.
- يجعل من الجزء الثاني جسرًا معرفيًا بين دراسة التاريخ الاجتماعي للقصبة وتحليل الهوية الثقافية الرمزية التي تتناولها الأطروحة، بحيث تنتقل من المعطى الوصفي إلى التحليل الأنثروبولوجي المعمق.

3. [1] دراسة، تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولكس:

تُعد هذه الدراسة إخراجًا وتحقيقًا لمخطوطٍ أثريّ للباحث الفرنسي **ألبير ديفولكس (Albert Devoulx)**، الذي عاش في القرن التاسع عشر وعمل على تدوين معطيات دقيقة حول مدينة الجزائر، وخصوصًا القصبة، فيما يتعلق بـ:

- التحليل المكاني للمدينة وشوارعها.
- وصف المباني، الأسواق، الساحات والعمارة العامة.
- أسماء المواقع وطبيعة الاستخدامات الاجتماعية.
- التفاعل بين المكان والصيرورة التاريخية للمدينة.

يتشكل هذا العمل من نص مخطوط تم التحقيق فيه وإثراؤه بالتعليقات الحديثة عبر مصادر فرنسية وعثمانية، وقد اعتُبر مرجعًا مهمًا لكل من يبحث في تاريخ وعمران القصبة في مرحلتي نهاية الحكم العثماني وبدايات الحكم الاستعماري الفرنسي.

1.3. المنهج المستخدم:

العمل قائم على منهج تحقيق المخطوطات التاريخية، والذي يقوم على:

- إخراج النص الأصلي للجغرافي الفرنسي **ألبير ديفولكس** بعد تنقيحه من الأخطاء الطباعية والترميزية.
- مطابقة النص مع مصادر فرنسية وعثمانية أرشيفية لتثبيت صحة المواقع والأسماء.
- التعليق العلمي والتحليل المكاني والتاريخي الذي يربط بين ما ورد في المخطوط وبين الواقع التاريخي للقصبة كما عرفته المصادر الأخرى.
- الإدلاء بتفسير سياقي للأماكن والأحداث المذكورة داخل الإطار العمراني والاجتماعي للمدينة.

هذا المنهج، رغم كونه تقليديًا في قراءة المخطوط، إلا أنه يُتيح مصدرًا وثائقيًا أوليًا غير متكرر حول المدينة بتفاصيل يندر أن تتوافر في المصادر الأخرى.

---

[1] ديفولكس، ألبير، تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولكس، ترجمة وتحقيق بدر الدين بلقاضي ومصطفى بن حموش، منشورات موفم، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.

2.3. المحتوى والتحليل

تبرز الدراسة في تفصيلها للآتي:

- **وصف الفضاء العمراني والطرق:** يقدم **ديفولكس** وصفًا دقيقًا لشبكة الشوارع داخل القصبة، والمتجهة نحو ساحات وأبواب المدينة، مع ذكر الوظائف الاجتماعية لبعض هذه المسارات كالتجارة والحركة اليومية للسكان.
- **المباني العامة والأسواق:** تُعالج الدراسة دور الأسواق التقليدية والحرفيين داخل القصبة، وكيف كانت هذه المواقع تمثل نقاطًا محورية للحياة الاجتماعية والاقتصادية، هذا يجعل الدراسة ذات قيمة ليس فقط تاريخية بل سوسيولوجية حضرية.
- **وصف المساجد والمرافق الاجتماعية:** يشمل المخطوط وصفًا لبعض المرافق العامة كمساجد وساحات التجمع، ما يعطي صورة عن التداخل بين البعد الديني والفضاء العام داخل المدينة.
- **تحليل العلاقات بين المكان والتاريخ:** من خلال التفاصيل الدقيقة، يتعزّز فهم القارئ لكيفية تداخُل المكان والممارسة الاجتماعية، وكيف أثر ذلك على استمرارية العلاقات الاجتماعية والأدوار الاقتصادية للسكان داخل القصبة في تلك المرحلة التاريخية.

3.3. نقاط القوة:

- توثيق مباشر لأحد أقدم النصوص التي تناولت قصبة الجزائر بطريقة وصفية معمقة، ما يجعله مرجعًا وثائقيًا لا غنى عنه لأي دراسة تاريخية أو حضرية تُعنى بالمدينة.
- ربط بين النص المخطوط والواقع المعماري والاجتماعي عبر التحقيق العلمي الدقيق، ما يجعل المادة مناسبة ليس فقط للتاريخ، بل للعمارة والتراث أيضًا.
- مواد وصفية تفصيلية لشوارع وملاح وأسواق القصبة تعطي الباحث ورقة أولية يمكن أن تحوّلها إلى تحليل اجتماعي أو أنثروبولوجي.

4.3. الفجوات البحثية:

رغم أهميته المرجعية، تبقى هناك جوانب يمكن نقدها أو البناء عليها:

- غياب التحليل التأويلي للمعاني الاجتماعية داخل الممارسات اليومية، النص يصف المكان والحياة لكنه لا يفكك رموز المكان أو علاقاته بالمجتمع، ما يُبقيه في موقع المعطى التاريخي أكثر من كونه تحليلًا اجتماعيًا.
- المنهج لم يتناول التجربة الذاتية للممارسات اليومية للسكان، مثل إدراكهم للمكان، علاقاتهم الجندرية في الفضاء، أو رمزية الطقوس داخل الأسواق والمساجد، وهي عناصر مركزية في التحليل الأنثروبولوجي للهوية.
- التحديث المعاصر مُغيب: المخطوط والتعليقات العلمية لا تربط شكلًا منهجيًا بين الماضي والحاضر، مما يترك فجوة في فهم التحول والتجدد الرمزي للمكان اليوم.

5.3. مواءمة مع الدراسة الحالية:

تكمن أهمية هذه الدراسة ضمن إطار أطروحتنا حول التراث والهوية الثقافية في القصبة في كونها:

- مصدرًا أصليًا موثَّقًا لوصف الفضاء الحضري مركزًا على الحياة اليومية والبُنى المعمارية الاجتماعية في فترة حرجة من التاريخ (ما قبل التحول الاستعماري مباشرة).
- قادرة على أن تتحوّل من نص سطري وثائقي إلى مادة تحليلية أنثروبولوجية إذا ما أُعيد تفكيكها ضمن الإطار التحليلي الذي يربط بين المكان، الرمزية، والممارسة الاجتماعية، بحيث يصبح الوصف أولًا بيئة للسؤال التحليلي، لا مجرد سرد تاريخي.
- بما أن أطروحتنا تعنى بسؤال كيف يُنتج معنى الهوية الثقافية عبر التراث والممارسة اليومية، فإن هذا المخطوط، بعد إعادة قراءته سياقيًا، يُمكن أن يكون قاعدة بيانات أولية لتحليل الرموز والعلاقات الاجتماعية للفضاء، بدل أن يُستعمل كمرجع وصف تقليدي.

4. دراسة، ***La Casbah d'Alger, et le site créa la ville*** [1]

الباحث: André Ravéreau

ينطلق هذا العمل من ملاحظة جوهرية تتلخّص في أن الموقع هو الذي خلق المدينة، أي أن الموقع الطوبوغرافي لقصبة الجزائر، المعلّق بين السماء والبحر، هو العامل الأساسي في بنائها وتشكيلها.

[1] Ravéreau, André, La Casbah d'Alger, et le site créa la ville, Éditions Sindbad–Actes Sud, Arles, France, 2007.

يُعالج **رافيرو** في كتابه العمران والمكان والعمارة التقليدية للقصبة عبر وصف معماري شامل، يتدرّج من تحليل الموقع الجغرافي العام إلى تفكيك العناصر المعمارية الداخلية في البيوت، الفناء (patio)، أركان الجلسة (k'bou)، الأبواب والفتح والإغلاق، والمساحات الجدارية والفراغات التي تعكس منطق العلاقات الاجتماعية داخل البيوت والفضاءات المشتركة.

في تقديمه لفكرة الكتاب، يبيّن **رافيرو** كيف أن التقاليد الثقافية هي التي تنظم وتُعزّز الفضاء، وأن كل عنصر معماري من الباب إلى السطح له وظيفة اجتماعية ورمز دلالي يتجاوز مجرد الوظيفة التقنية، وقد سبقت هذه المقاربة مقدمة مهمة للمؤرخ **مصطفى لاشراف** التي تساند رؤية **رافيرو** في اعتبار القصبة ليس كمجموعة أبنية جامدة، بل كمجتمع منظّم ومعقّد.

1.4. منهج الدراسة:

يعتمد **رافيرو** منهجًا وصفيًا تحليليًا معماريًا، لكنّه في جوهره يبني قراءة تأويلية للمكان، حيث لا يقتصر على وصف الشكل، بل على تحليل القيم المنظمة للمكان عبر:

- تحليل الموقع الطبوغرافي وعلاقته بالبيئة الطبيعية والاقتصادية والثقافية.
- تفكيك العلاقات بين الفضاءات الداخلية (الفناء، البوابات، الاسطح) ووظائفها الاجتماعية.
- ربط الشكل المعماري بالممارسة الرّمزية التي تشتغل في الحياة اليومية للسكان.

ومن ثم، يمكن اعتبار المنهج هنا جامعا بين التحليل المعماري والتأويل الرمزي للفضاء، ما يجعله وثيقة مفيدة جدًا في فهم التركيبة الاجتماعية للقصبة عبر معمارها.

2.4. محتوى الدراسة:

تكشف نتائج هذا العمل أن عناصر القصبة المعمارية، من الفناء الداخلي إلى الأبواب، ومن توزيع الغرف إلى تدرّج الانتقال بين العام والخاص، ليست حلولًا تقنية فحسب، بل هي ترجمة مادية لمنظومة اجتماعية دقيقة تُنظّم العلاقات بين الأفراد، وتضبط حدود الخصوصية، وتؤطر أنماط التواصل اليومي. فالفناء، على سبيل المثال، لا يُقدَّم بوصفه عنصرًا بنائيًا مركزيًا فقط، بل كفضاء تلتقي فيه الحياة العائلية، وتنصهر فيه الوظائف المناخية مع الأبعاد الرمزية المرتبطة بالحميمية والانغلاق الواقي.

كما يبرز **رافيرو** كيف أن العلاقة بين الداخل والخارج، المفتوح والمغلق، المرئي والمستور، تعكس نظامًا أخلاقيًا اجتماعيًا يُعيد إنتاج نفسه عبر العمارة.

3.4. نقاط القوة:

قوة هذا العمل تكمن في قدرته على الربط بين الشكل والوظيفة والدلالة، حيث لا تظهر العمارة كإطار محايد للممارسة الاجتماعية، بل كفاعل يوجّه السلوك وينظّم الإيقاع اليومي للحياة داخل القصبة. ويُحسب **لرافيرو** أنه أعاد الاعتبار للمدينة التقليدية بوصفها نموذجًا حضريًا عقلانيًا، لا يقل تعقيدًا عن النماذج الحديثة، بل يتفوق عليها في قدرته على تحقيق الانسجام بين الإنسان وبيئته.

4.4. فجوات الدراسة:

ومع ذلك، فإن هذا العمل، رغم عمقه التحليلي، يظل محدودًا من منظور أنثروبولوجي خالص. **فرافيرو** لا يُفكّك بشكل صريح البُنى الاجتماعية الدقيقة التي تتحرّك داخل هذا الفضاء، مثل الفوارق الطبقية، أو أدوار الجندر، أو استراتيجيات التفاوض اليومي مع المكان. كما أن التحليل يبقى في مستوى البنية المستقرة، دون مساءلة كافية للتحولات المعاصرة التي طرأت على القصبة، ولا سيما تلك المرتبطة بالتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والعولمة، وما نتج عنها من إعادة تشكيل للمعاني الرمزية التي كان يحملها الفضاء في السابق.

من هذا المنطلق، فإن إدراج دراسة **رافيرو** ضمن الدراسات السابقة في هذه الأطروحة لا يتم بوصفها دراسة أنثروبولوجية مكتملة، بل باعتبارها مرجعًا تأسيسيًا يسمح بفهم العلاقة العميقة بين العمارة والهوية، ويفتح المجال لإعادة قراءة القصبة من زاوية أنثروبولوجية تأويلية. فالدراسة الحالية تنطلق من حيث توقف **رافيرو**، وتسعى إلى نقل التحليل من مستوى البنية المعمارية الدالة إلى مستوى الممارسة الاجتماعية المنتِجة للهوية، عبر ربط الفضاء بالحرفة، والطقس، والذاكرة، والعلاقات اليومية التي تمنح التراث معناه الحي داخل قصبة الجزائر.

5. دراسة، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي [1]

المؤلف، نور الدين عبد القادر

تُعدّ دراسة **نور الدين عبد القادر** الموسومة بـ " **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**" من بين الأعمال التاريخية المرجعية التي تناولت مدينة الجزائر في بعدها الزمني الطويل، مقدّمة سردًا تاريخيًا متسلسلًا لتطوّر المدينة منذ المرحلة الفينيقية مرورًا بالعهد الروماني، ثم الزيري والحفصي، وصولًا إلى نهاية الحكم العثماني. وتكمن أهمية هذا العمل في كونه لا يقتصر على التأريخ السياسي للأحداث، بل يُدرج ضمن سرده إشارات متكررة إلى التحولات العمرانية والاجتماعية، وإلى أدوار الفضاء الحضري في تنظيم الحياة اليومية للسكان.

من منظور أنثروبولوجي، يكتسب هذا الكتاب قيمة تأسيسية، إذ يوفّر معطيات تاريخية ضرورية لفهم تشكّل القصبة كفضاء حضري متراكم، ويُبرز، ولو بشكل غير مباشر، علاقة السكان بالمكان عبر الزمن، خاصة من خلال حديثه عن نشأة الأحياء، تحولات الوظائف العمرانية، وتطوّر المدينة من مركز ساحلي ذي وظيفة عسكرية إلى حاضرة دينية وتجارية. كما تُعدّ إشاراته إلى المرحلة الزيرية ذات أهمية خاصة، لكونها تمثل لحظة تأسيس محلية للمدينة الإسلامية على أنقاض العمران الروماني، وهو ما يسمح بربط التحليل الأنثروبولوجي اللاحق بجذوره التاريخية العميقة.

غير أنّ هذه الدراسة، رغم أهميتها، تظلّ عملاً تاريخيًا تقليديًا في مقاربته، إذ لا تُعالج القصبة بوصفها نسقًا ثقافيًا حيًا أو مجالًا للممارسات الرمزية واليومية، ولا تتناول مفاهيم الهوية، الذاكرة، أو التمثلات الاجتماعية بشكل صريح. لذلك، يتم توظيف هذا المرجع في هذه الأطروحة بوصفه مصدرًا تاريخيًا تأسيسيًا يوفّر الإطار الزمني والسياقي، لا بوصفه دراسة أنثروبولوجية مباشرة، على أن يُستكمل بما تقدّمه الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية الحديثة من أدوات تحليلية لفهم التراث المادي واللامادي لقصبة الجزائر.

[1] عبد القادر، نور الدين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.

6. دراسة، الهوية الاجتماعية والتراث الثقافي في قصبة الجزائر لعبادي طارق ومشتة ياسين (2025) [1]

تندرج دراسة **عبادي طارق** و**مشتة ياسين (2025)** ضمن الأبحاث المعاصرة التي سعت إلى مقاربة قصبة الجزائر من زاوية العلاقة بين الهوية الاجتماعية والتراث الثقافي في سياق التحولات الحديثة التي يشهدها الفضاء الحضري التاريخي. وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها من بين المحاولات القليلة التي اعتمدت العمل الميداني لفهم تمثّلات السكان المحليين لهويتهم داخل فضاء تراثي مُصنَّف، في ظل الضغوط الاجتماعية، الاقتصادية، والعمرانية المعاصرة.

اعتمد الباحثان مقاربة سوسيولوجية–سوسيوثقافية، ركزت على تحليل خطابات السكان، وتمثّلاتهم للقصبة بوصفها رمزًا للانتماء التاريخي والذاكرة الجماعية. وقد كشفت نتائج الدراسة أن الهوية الاجتماعية لسكان القصبة ليست معطى ثابتًا، بل هي بناء ديناميكي يتأثر بعوامل متعددة، من بينها التحولات العمرانية، تدخلات الدولة في الترميم، السياحة الثقافية، والتغيرات في أنماط العيش. كما أبرزت الدراسة وجود توتر بين القصبة كـ "تراث وطني/عالمي" والقصبة كـ "فضاء معيش"، وهو توتر ينعكس في شعور بعض السكان بالتهميش أو الاغتراب داخل مجال يُفترض أنه يحمل هويتهم.

من الناحية المنهجية، اعتمدت الدراسة على أدوات البحث الميداني مثل المقابلات شبه الموجهة والملاحظة، ما أتاح للباحثين رصد تمثلات الفاعلين الاجتماعيين للتراث والهوية، خاصة في علاقتها بالتحولات المعاصرة. غير أن تركيز الدراسة ظلّ موجّهًا أساسًا نحو مستوى الخطاب والتصوّر، أي كيف يتحدث السكان عن هويتهم وتراثهم، أكثر من اهتمامها بتحليل الممارسات اليومية التي تُنتج هذه الهوية وتعيد إنتاجها داخل الفضاء القصباوي.

ومن منظور أنثروبولوجي، يمكن القول إن الدراسة، رغم قيمتها العلمية، لم تنفذ بعمق إلى البُعد الإجرائي الممارساتي للهوية، إذ لم تتناول بشكل كافٍ الطقوس اليومية، الحرف التقليدية، أنماط الاستهلاك، أو العلاقات الجندرية بوصفها آليات مركزية في بناء الهوية الاجتماعية. كما أن مفهوم

[1] Abadi, Tarek, and Meshta, Yacine, “Social Identity and Cultural Heritage in the Casbah of Algiers: A Field Study in the Context of Contemporary Changes,” Al-Maghribi Journal of Manuscripts, vol. 21, no. 1, 2025, pp. 42–66.

التراث الثقافي في الدراسة ظلّ قريبًا من التصور المؤسسي (Heritage as Representation) ، دون تفكيك التراث بوصفه ممارسة حيّة (Heritage as Practice) متجسدة في الجسد، المادة، والزمن الاجتماعي.

وعليه، تُوظَّف هذه الدراسة في الأطروحة الحالية باعتبارها مرجعًا تحليليًا مهمًا لفهم التحولات المعاصرة في تمثلات الهوية داخل قصبة الجزائر، لكنها في الوقت نفسه تكشف عن فجوة بحثية واضحة تتعلق بغياب المقاربة الأنثروبولوجية العميقة للتراث اللامادي. فبينما ركزت **عبادي** و**مشتة** على ما يُقال عن الهوية، تسعى هذه الأطروحة إلى تحليل ما يُمارَس باسم الهوية، الطقوس، الحرف، الجسد، العلاقات الجندرية، والذاكرة الشفاهية، باعتبارها فضاءات حقيقية لإنتاج المعنى والانتماء.

وبهذا المعنى، تشكّل دراسة **عبادي** و**مشتة** نقطة انطلاق علمية مهمّة، لكنها لا تمسّ جوهر الموضوع في شموليته، إذ تعالج جزءًا من الظاهرة (التمثلات والخطابات)، وتترك أجزاءً أخرى مركزية (الممارسة، الرمز، الاقتصاد الطقسي، والبعد الجندري) مفتوحة للبحث، وهو ما تسعى هذه الأطروحة إلى معالجته ضمن أفق أنثروبولوجي يزاوج بين التراث المادي واللامادي، وبين الذاكرة والعيش اليومي.

7. دراسة، The Communication of Heritage Actors on the Heritage Identity of the Urban Casbah (2025) [1]

Mayouf, F. &Bendebili, I.

ركزت هذه الدراسة المعاصرة على الديناميات التواصلية بين الفاعلين الرسميين وغير الرسميين في الساحة التراثية، وكيف تؤثر هذه الاتصالات على بناء وإدامة الهوية التراثية للقصبة الحضرية في كل من قصبة الجزائر وقصبة بجاية. تتجاوز الدراسة الإطار التحليلي التقليدي لتنتقل إلى مدى قدرة الفاعلين على تقديم، تصوير، ونشر معنى الهوية التراثية للموروث الحضري في الوعي العام والأطر

[1] Mayouf, Fares, and Bendebili, Imane, "The Communication of Heritage Actors on the Heritage Identity of the Urban Casbah: A Comparative Study of the Casbahs of Algiers and Bejaia," International Journal of Social Communication, vol. 12, no. 3, 2025, pp. 95–113.

المؤسسية سواء على مستوى الثقافة أو السياحة أو التنمية. تُعتبر هذه المقاربة متقدمة لأنها لا تعالج التراث بوصفه موضوعًا جامدًا، بل كأداة للتواصل الثقافي والسياسي والاجتماعي ضمن سياق الحاضر.

1.7. الهدف العام والدوافع المنهجية:

تهدف الدراسة إلى:

- فحص طبيعة الاتصال بين الفاعلين التراثيين (المؤسسات الرسمية، الهيئات الثقافية، الإعلام، والفاعلين المدنيين) في موضوع الهوية التراثية للقصبة.
- تبيان مدى مساهمتهم في رفع الوعي بقيمة هذا التراث في السياق المحلي والإقليمي.
- تحليل طرق وممارسات التواصل المعتمدة للترويج للمكامن الثقافية والاجتماعية للقصبة، وربطها بتجارب سياحية وثقافية أوسع.

2.7. المنهجية:

اتبعت الدراسة منهجًا نوعيًا يرتكز على المقابلات العلمية مع مجموعة من الفاعلين التراثيين الرسميين وغير الرسميين في كل من الجزائر وبجاية، بما في ذلك ممثلي الهيئات الإشرافية للجوانب التراثية والثقافية. كما اعتمد البحث على الإطار النظري لـ Jean Davallon في المقاربة الاتصالية للتراث، والذي يرى أن التواصل ليس مجرد نقل معلومات بل أداة لإعادة إنتاج المعنى الثقافي في المجال العمومي.

بناء على ذلك، جُمعت البيانات من:

- مقابلات معمقة مع خبراء، موظفين في مؤسسات التراث، ومسؤولين عن مشاريع الترويج الثقافي.
- تحليل ممارسات الاتصال عبر وسائط مختلفة (ورشات، ملتقيات، نوافذ إعلامية، منصات رقمية).
- مقارنة الحالات لقصبة الجزائر وبجاية من منظور التواصل والتراث والهوية.

3.7. الإطار النظري:

تستند الدراسة إلى المقاربة الاتصالية للتراث كما طورها Jean Davallon، والتي تفترض أن التراث لا يمثل مجرد " مادة ثقافية " بل سلسلة من الإشارات والممارسات التي يتم إنتاجها وتداولها من خلال الاتصال، في هذا المنظور:

- الفاعلون التراثيون هم ليسوا ناقلين للمعلومة فقط، بل منتجون للمعنى ووسطاء في تكوين الوعي الاجتماعي بالتراث.
- التواصل هو عملية سياسية وثقافية واعية تُسهم في تثبيت أو إعادة إنتاج الهوية التراثية.
- الهوية التراثية ليست قيمة ثابتة، بل منتج تفاعلي يتشكل عبر علاقات القوة، المؤسسات، والإعلام.

3.7. النتائج الأساسية:

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج جوهرية:

- غياب استراتيجيات اتصال فعّالة لدى الفاعلين التراثيين يُضعف من الرؤية المشتركة لهوية القصبة ويؤدي إلى نقص في الوعي العام بقيمتها الثقافية والاجتماعية.
- العلاقات بين الفاعلين وترابطهم المؤسسي ضعيف، مما يحد من قدرتهم على تقديم سرديات موحدة وفعّالة حول الهوية التراثية.
- التواصل عبر الوسائل الرقمية والإعلام الجديد غير مستغَل بالشكل الكافي، رغم إمكانياته في توسيع جمهور الوعي بالتراث.
- قِلّة المبادرات التي تُحوّل الهوية التراثية من قيمة محلية فقط إلى عنصر جذب ثقافي وسياحي ذو بعد اجتماعي واقتصادي.

بناءً على هذه النتائج، تشير الدراسة إلى ضرورة إعادة التفكير في الاستراتيجيات الاتصالية لتشمل المنصات الرقمية، الشراكات بين الجهات الرسمية والمجتمع المدني، وبرامج تعليمية وتوعوية تُعزّز من فهم الجمهور للهوية التراثية للقصبة وتأثيرها الاجتماعي والثقافي.

4.7. القراءة الأنثروبولوجية النقدية:

من منظور أنثروبولوجي، تُعد هذه الدراسة مساهمة هامة لأنها تُبرز أن التراث ليس موضوعًا ثابتًا يتم تحنيطه، بل منظومة اتصالية ثقافية تُنتج الهوية من خلال:

- التفاعلات بين الفاعلين والمؤسسات، حيث يُبرهن الاتصال على العلاقات الاجتماعية والسياسية التي تشكل فهم المجتمع للتراث.
- الحضور والغياب في السياسات التواصلية، ما يعكس مدى تمركز السلطة المؤسسية مقابل المبادرات الشعبية.
- رؤية التراث بوصفه عنصرًا ديناميكيًا في الثقافةالجماعية يمكن أن يُستثمر في الإدماج المجتمعي والسياحة المستدامة.

غير أن الدراسة، رغم قوتها، تترك فجوات يمكن لأطروحتنا أن تسدها، أهمها:

- غياب التحليل الجندري للممارسات الاتصالية، لا يتعمق البحث في كيفية تباين أدوار النساء والرجال ضمن علاقات الاتصال التراثي داخل المجتمع.
- التحولات المعاصرة في التجربة الاجتماعية اليومية غير مشمولة كافٍ، أي كيف يؤثر الاتصال المؤسسي والمحلي على الحياة اليومية للأفراد داخل القصبة وممارساتهم الرمزية.
- التركيز على العمومية الاتصالية مع ضعف تحليل التواصل الحسي الإدراكي الذي ينتج معنى الهوية داخل التجارب الفردية والجماعية.

8. دراس، La ville et l'architecture européennes du XIXe siècle dans la Casbah d'Alger [1]

- الباحثة: أسماء حجيلة

1.8. هدف الدراسة:

هدفت هذه الأطروحة إلى تحليل تأثير التحولات المعمارية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر على نسيج القصبة التقليدي، مع دراسة كيفية إعادة تشكيل الهوية المكانية للمجتمع الجزائري في ظل تدخلات السلطة الاستعمارية. بشكل أنثروبولوجي، تركّز الدراسة على العلاقة بين القوة والسياسة والفضاء المبني، وكيف أن العمارة تصبح وسيطًا لإنتاج المعنى والهوية.

2.8. المنهج المستخدم:

اتبعت الباحثة منهجًا تاريخيًا تحليليًا مركّبًا:

- المصدر الوثائقي التاريخي: خرائط، مخططات، وثائق استشراقية واستعمارية.
- تحليل ميداني: جولات ميدانية وملاحظة دقيقة لنمط الشوارع، البيوت، والساحات.
- مقاربة الأنثروبولوجيا المعمارية: ربط الأشكال الهندسية والمواد المستخدمة بالوظائف الاجتماعية والرمزية للفضاء.

هذا المنهج يمزج البعد التاريخي مع البعد الاجتماعي–الرمزي للفضاء الحضري، وهو ما يضع البحث في صميم الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية.

3.8. الإطار النظري:

استندت الدراسة إلى مجموعة مفاهيم مركزية:

[1] Hadjilah, Amina, La ville et l'architecture européennes du XIXe siècle dans la Casbah d'Alger, thèse de doctorat, École Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, Algérie, 2021. https://dspace.epau.edu.dz/items/effd56f5-5f39-4f0e-8466-1d961ed3794f/full

- الفضاء الاجتماعي والرمزي: كيف يُنتَج الفضاء ليس فقط هندسيًا بل اجتماعيًا وثقافيًا.
- الهوية الثقافية والذاكرة المكانية: كيف تُخزّن التجارب الاجتماعية في النسيج العمراني، وتشكل الهوية الجمعية.
- التأثير الاستعماري على المدن: كيفية فرض القيم البنائية والثقافية للسلطة الاستعمارية على الفضاء المحلي.

4.8. أهم النتائج:

- تحولات في النسيج العمراني: المباني الأوروبية، الشوارع المستقيمة، والساحات المفتوحة أدت إلى إعادة ترتيب الشبكة التقليدية للقصبة، مما أثر على حركة السكان وأنماط حياتهم اليومية.
- اختلاط الوظائف الاجتماعية والرمزية: بعض البيوت والمساحات العامة اكتسبت وظائف مزدوجة، سياسية واستعمارية من جهة، وممارسة اجتماعية محلية من جهة أخرى.
- تشكيل الهوية المكانية: الهوية التقليدية للقصبة تأثرت بالهيمنة المعمارية الأوروبية، لكنها لم تُمحَ بالكامل، السكان استمروا في إنتاج معانيهم الرمزية عبر التكيف والتوظيف المحلي للفضاء.

5.8. القراءة الأنثروبولوجية النقدية:

من منظور أنثروبولوجي:

- الدراسة تربط بشكل واضح بين السلطة، التراث، والهوية، وهو محور مركزي لفهم القصبة كموقع للذاكرة الجماعية.
- رغم جودة التحليل التاريخي والمعماري، لا تتعمق في دراسة الجندر أو الأدوار الاجتماعية اليومية للسكان داخل الفضاء، أي كيف أن النساء، الأطفال، أو مجموعات محددة استخدمت هذه المباني بطرق رمزية خاصة بهم.
- الجانب الرمزي للمواد والديكور الداخلي للبيوت لم يُستغل بالكامل كوسيلة لفهم كيف يُترجم التراث المادي إلى هوية ثقافية.

- تقدم الدراسة نقطة انطلاق قوية لفهم التداخل بين التاريخ المعماري والتحولات الاجتماعية، لكنها تترك فجوة معرفية يمكن أن تُسد بالأطروحة من خلال تحليل التجربة اليومية للسكان وربطها بالهوية الثقافية.

6.8. الاستنتاج:

هذه الأطروحة تمثل إطارًا متينًا لفهم التحولات التاريخية في القصبة، لكنها تركز أكثر على الجانب البنيوي والمعماري وتترك فرصة لإضافة بعد أنثروبولوجي ميداني وتجريبي، يدرس الهوية الثقافية المتولدة من الممارسة اليومية، وهو بالضبط ما يسعى بحثنا إلى معالجته.

9. دراسة الباحث: محمد أمين زواوي، Les Caractéristiques structurelles des maisons de la Casbah d'Alger [1]

1.9. هدف الدراسة

تركز هذه الأطروحة على الخصائص الهيكلية والفنية للمنازل التقليدية في قصبة الجزائر، مع تحليل المواد المستخدمة، الأداء الإنشائي، والنسيج العمراني لكل وحدة سكنية. هدف الباحث هو توضيح كيفية تفاعل السكان مع بيئتهم المبنية وكيف يمكن للمكونات المادية أن تعكس الذاكرة الجماعية والهوية الثقافية للقصبة.

من منظور أنثروبولوجي، الدراسة تحاول ربط العمارة بالثقافة اليومية، وتُظهر أن البيوت ليست مجرد بنايات صلبة، بل فضاءات إنتاج الهوية والتقاليد والممارسة الاجتماعية.

2.9. المنهجية:

- الملاحظة الميدانية التفصيلية: قياس وتحليل أبعاد البيوت والزقاقات والمداخل.

[1] Zouaoui, Mohamed Amine, Les caractéristiques structurelles des maisons de la Casbah d'Alger (tests et simulations), thèse de doctorat, École Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, Algérie, 2021. https://dspace.epau.edu.dz/items/ff56b994-4f7f-4f64-9bd3-5bfd6823dc16/full

- المسح الوثائقي: مقارنة مع المخططات التاريخية للقصبة من القرن التاسع عشر والعشرين.
- المقاربة التحليلية: دراسة المواد، أنماط البناء، التشطيبات، وربطها بالوظائف الاجتماعية والطقوسية.

المنهج يُظهر قدرة الباحث على الجمع بين تحليل البنية المادية والتفسير الأنثروبولوجي للفضاء الاجتماعي.

3.9. الإطار النظري:

- العمارة التقليدية كحامل للهوية: العمارة ليست مجرد شكل، بل تجربة مكانية ومعنوية.
- الذاكرة المكانية: البيوت والمساحات تعكس خبرة الأجيال وتجاربهم اليومية، وبالتالي تُساهم في ترسيخ الانتماء.
- التراث كأداة اجتماعية: المباني التقليدية ليست أشياء جامدة، بل وسائل لتفاعل المجتمع مع تاريخه وهويته.

3.8. أهم النتائج

- الهيكلية المادية تدعم الوظائف الاجتماعية: البيوت القصباوية صممت لتلبية احتياجات متعددة: التكيف مع المناخ، استقبال العائلة الممتدة، وحماية الخصوصية.
- العلاقة بين المادة والرمز: استخدام الحجر والطين والخشب في التشطيب يعكس تقاليد متوارثة، وممارسات رمزية محددة (مثل المدخل والزخرفة).
- استمرارية الذاكرة الحضارية: النسيج العمراني للمنازل يدعم التواصل الاجتماعي اليومي ويعزز الانتماء للسكان.

4.9. القراءة الأنثروبولوجية النقدية:

- الدراسة تقدم تحليلاً معماريًا دقيقًا يمكن دمجه مع البحث الأنثروبولوجي للهوية الثقافية.
- لكنها تركز أكثر على البنية المادية والهندسية ولا تعالج بشكل كافٍ التفاعلات الاجتماعية اليومية في الفضاءات الداخلية والخارجية للبيوت.

- هناك فرصة لاستكشاف الجندر، الطقوس، والحياة اليومية داخل هذه المنازل، وهو ما يُمكن أن يكون إضافة قوية لأطروحتنا.

5.9. الاستنتاج:

هذه الأطروحة تكمل الدراسة الأولى من حيث التركيز على المكون المادي للفضاء، وتضع قاعدة لفهم كيف يُنتج التراث العمراني للقصبة هوية ثقافية ملموسة. لكنها تترك فجوة في التحليل الاجتماعي الرمزي للممارسات اليومية للسكان، وهو المجال الذي ستسعى أطروحتنا لمعالجته.

10. دراسة الباحثة، إيمان رزوق، dL'expérience architecturale des parcours [1] de la Casbah D'Alger

سعت هذه الأطروحة إلى فهم تجربة الحركة داخل فضاء القصبة، أي كيف يتفاعل الفرد مع النسيج العمراني للمكان بطريقة إدراكية وعاطفية في آن واحد. تبحث الباحثة في هذه الدراسة في تجربة المستخدم للفضاء المبني، من منظور أنثروبولوجي يربط بين العمارة والوعي الاجتماعي، فالقصبة ليست مجرد شبكة من المنازل والشوارع، بل فضاء حيّ يُعاش ويُفهم ويُنتج عبر الحركة اليومية والتفاعل مع العناصر المكانية.

استخدمت الباحثة منهجًا ميدانيًا دقيقًا يتضمن مسحًا شاملًا للشوارع والزقاقات والممرات، مع تتبع حركة السكان والزوار عبر مسارات محددة وتحليل انطباعاتهم وتفاعلاتهم مع الفضاء، بما في ذلك الشعور بالانتماء، التوتر المكاني، والمستوى الرمزي للمساحات العامة والخاصة. هذه المقاربة تجعل الدراسة تركز على الجانب الحسي والمعنوي للفضاء، بعيدًا عن النظر إلى المباني كأشياء جامدة أو مجرد عناصر معمارية.

من خلال هذا التحليل، أظهرت الدراسة أن مسارات الحركة في القصبة ليست عشوائية، بل تشكل جزءًا من ذاكرة المكان والهويات الفردية والجماعية. الزقاقات الضيقة، التدرجات، الساحات

[1] Rezzoug, Imène, L'expérience architecturale des parcours de la Casbah d'Alger, thèse de doctorat, École Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, Algérie, 2021. https://dspace.epau.edu.dz/items/56357027-1b1f-446d-a0d6-617ad2ba11aa/full

الصغيرة، كلها عناصر تُنتج تجربة معيشية مميزة، وتجعل لكل ساكن أو زائر نمطًا فريدًا من التفاعل مع المكان. كما أن التجربة اليومية للمكان تعكس تراكم الخبرات الاجتماعية، مثل معرفة السكان بالمداخل والمخارج الخفية، استخدام الفضاء للمناسبات اليومية، وتوظيف الزوايا للحياة الاجتماعية أو الطقوسية، وهو ما يعكس تواصل المجتمع مع تراثه بطريقة عملية وذهنية في الوقت نفسه.

النقد الأنثروبولوجي لهذه الأطروحة يكمن في أنها تُعطي بعدًا إدراكيًا وحسيًا مميزًا للفضاء، لكنها لم تتعمق كثيرًا في دراسة العلاقات الاجتماعية التفصيلية مثل كيفية توظيف النساء للمساحات الداخلية للبيوت أو الزقاقات الصغيرة، أو كيفية تأثير هذه التجربة المكانية على العلاقات الجندرية والطائفية أو الطبقية داخل المجتمع. ومع ذلك، تمثل هذه الأطروحة قيمة كبيرة لأنها تضع التجربة اليومية للفضاء كمفتاح لفهم إنتاج الهوية الثقافية عبر الحركة والمعايشة الحية للقصبة، وهو بعد لا يغطيه إلا عدد قليل من الدراسات السابقة.

11. دراسة، [1] Le contrôle de la production de la forme urbaine dans Les zones tampons autour de la Casbah d'Alger

الباحث، محمد بوقادر

تركز هذه الأطروحة على سياسات التحكم وإدارة إنتاج الشكل الحضري في المناطق المحيطة بالقصبة، وهي ما يُعرف بالمناطق العازلة أوBuffer Zones ، التي تمثل حزام حماية للتراث العمراني. ينطلق بحث **محمد بوقادر** من فرضية أن الهوية الثقافية للقصبة لا يمكن الحفاظ عليها دون وجود إطار تنظيمي متكامل ينظم التحولات العمرانية المعاصرة. من منظور أنثروبولوجي، تتجاوز الدراسة البعد التقني للهندسة أو العمران لتبحث في كيفية تأثير السياسات العمرانية على ممارسة السكان اليومية، وعلى استمرارية الذاكرة والهوية الثقافية.

[1] Boukader, Amel, Le contrôle de la production de la forme urbaine dans les zones tampons autour de la Casbah d'Alger, thèse de doctorat non publiée, Faculté d'architecture et d'urbanisme, Université des Sciences et de la Technologie Houari Boumediene, Alger, Algérie, 2020.

1.11. المنهجية:

اتبعت الدراسة منهجًا تحليليًا تطبيقيًا يجمع بين:

- دراسة ميدانية للمناطق المحيطة بالقصبة: رصد التعديات، الاستخدامات المتعددة، وطرق توظيف الفضاء في الحياة اليومية.
- تحليل سياسات التخطيط الحضري: مراجعة النصوص القانونية، اللوائح، ومخططات الحماية المعتمدة من السلطات المحلية والدولية.
- مقابلات مع الفاعلين المحليين: معمارين، مخططين حضريين، وممثلين عن الجمعيات الثقافية، لتبيان أثر القرارات الإدارية على الهوية الحضرية والذاكرة الاجتماعية.

2.11. الإطار النظري:

تركز الأطروحة على العلاقة بين التحكم المؤسسي في الفضاء الحضري والهوية الثقافية، معتمدة على فكرة أن الحفاظ على التراث لا يقتصر على المباني نفسها، بليشمل التحكم في محيطها الاجتماعي والمادي. كما تؤكد الدراسة على أن الهوية تتولد في التفاعل بين السكان والمكان، وليس فقط من خلال البنية المادية للقصبة.

3.11. النتائج والتحليل:

أظهرت الدراسة أن:

- التنظيم العمراني المتسق يحمي التراث الرمزي للمكان: المناطق العازلة تمنع عمليات البناء العشوائي، وتحافظ على رؤية السياق التاريخي للقصبة.
- تأثير السياسة على الحياة اليومية: السكان يتكيفون مع القيود التنظيمية، لكنها أحيانًا تحد من التوسع الطبيعي للأنشطة الاجتماعية والاقتصادية.
- الهوية الثقافية معرضة للضغط: على الرغم من القوانين، بعض التحولات العمرانية أو الاستخدامات الحديثة تمثل تهديدًا خفيًا لاستمرارية الرموز الثقافية في المكان.

من منظور أنثروبولوجي، الدراسة تبرز التفاعل بين السلطة، السكان، والتراث، لكنها لا تغوص كثيرًا في تجربة الأفراد اليومية، الجندر، أو الرمزية الحسية للمساحات، أي كيف يحافظ السكان على هويتهم الثقافية عبر ممارساتهم اليومية رغم القيود التنظيمية.

4.11. القراءة الأنثروبولوجية النقدية:

تضيف أطروحة **بوقادر** البعد المؤسسي والتنظيمي لحماية التراث، وهو عنصر ناقص في معظم الدراسات السابقة، من ناحية نقدية:

- الدراسة تُعطي رؤية قوية لإطار الحماية واللوائح، لكنها لا تربط هذا الإطار بالممارسة اليومية للسكان بشكل كافٍ.
- تركّز على التحكم والقيود، بينما يمكن أن يكون التركيز على الإبداع المحلي في مواجهة القيود وسيلة لفهم إنتاج الهوية الثقافية ديناميكيًا.

بالتالي، تكمل هذه الدراسة المباحث السابقة من حيث البعد المؤسسي والتخطيطي، وتفتح المجال لأطروحتنا لربط السياسات العمرانية بالممارسة الاجتماعية اليومية وإعادة إنتاج الهوية الثقافية من خلال التجربة الميدانية.

12. دراسة الباحث، كريم بن صالح، الجمعيات الثقافية من اجل الحفاظ على قصبة الجزائر" دراسة ميدانية مقارنة لدور المنظمات في حماية القصبة. [1]

تركز هذه الأطروحة على الدور الحيوي للجمعيات والمنظمات غير الحكومية في صون التراث العمراني والثقافي للقصبة، وهي زاوية غالبًا ما تُهمل في الدراسات المعمارية أو التاريخية البحتة. ينطلق البحث من فرضية أن الحفاظ على الهوية الثقافية للموقع لا يعتمد فقط على المباني والقوانين، بل على الفاعلين المحليين الذين ينتجون الممارسة الثقافية ويؤطرون المجتمع للحفاظ على التراث.

[1] Bensalah, Kamelia. Les associations culturelles pour la préservation de la Casbah d'Alger: Étude comparative du rôle des organisations dans la protection de la Casbah. Thèse de doctorat, Université d'Alger 2020 .

1.12. منهج الدراسة:

اتبع الباحث منهجية ميدانية مقارنة تشمل:

- دراسة مجموعة من الجمعيات الثقافية والبيئية التي تعمل في القصبة، مع التركيز على مشاريعهم، البرامج التوعوية، والمبادرات الخاصة بحماية المباني التراثية.
- مقابلات معمقة مع أعضاء الجمعيات، السكان، والسلطات المحلية، لتحديد الرواية السياسية والثقافية وراء كل مبادرة.
- تحليل كيف تتداخل الخبرة المحلية والمهارات المجتمعية مع الأطر القانونية والمؤسساتية لتأمين استمرارية الهوية الثقافية للمكان.

2.12. النتائج والتحليل:

أظهرت الدراسة أن الجمعيات الثقافية تلعب دورًا مزدوجًا:

- الحفاظ المادي للقصبة، عبر حملات الترميم، التوثيق، ومراقبة التعديات على المباني التراثية.
- الإنتاج الرمزي للهوية، الجمعيات لا تكتفي بالصون المادي، بل تعمل على تعليم السكان والزوار معنى المكان وقيمه الرمزية، مما يعزز الانتماء الثقافي والوعي بالتراث.
- التفاوض مع السلطة والسياسات العمرانية، فالجمعيات كثيرًا ما تكون وسيطًا بين السكان والجهات الرسمية، محاولة خلق مساحة للتفاهم بين حماية التراث واحتياجات المجتمع اليومية.

3.12. القراءة الأنثروبولوجية النقدية:

- الدراسة تبرز البعد الاجتماعي والمجتمعي للتراث، وهو ما لم تتناوله الدراسات السابقة التي ركزت على البنية المادية أو التنظيم الرسمي فقط.
- من الناحية النقدية، على الرغم من أن البحث يعكس الدور الرمزي والسياسي للجمعيات، إلا أنه لا يغوص كثيرًا في التفاعلات اليومية للسكان العاديين مع هذه الجمعيات، أو تأثير المبادرات على الحياة اليومية والجندر والتقاليد المحلية.

- توفر هذه الدراسة بعدًا مهمًا لأطروحتنا، لأنها تربط الهوية الثقافية بالفاعلين المحليين وتوضح أن الحفاظ على التراث ليس مجرد مسألة قوانين أو مبانٍ، بل حراك اجتماعي متكامل.

13. دراسة الباحثة سميرة خليفي، Role of Heritage in Emphasizing Cultural Identity: The Water Springs in the Casbah [1]

ركزت هذه الأطروحة على الأبعاد الرمزية والوظيفية للينابيع والمياه في القصبة، وتوضح كيف أن التراث المائي ليس مجرد مورد طبيعي بل حامل للذاكرة الثقافية والهوية الجماعية. من منظور أنثروبولوجي، تعتبر المياه في القصبة عنصرًا مركزيًا في تنظيم الحياة اليومية، الطقوس، والرمزية الحضرية، حيث تؤثر على العلاقات الاجتماعية، العادات الغذائية، وأنماط التفاعل المكاني بين السكان.

1.13. المنهجية:

اتبعت الباحثة منهجًا ميدانيًا شاملاً يشمل:

- رصد استخدامات المياه، مواقع الينابيع، طرق الاستفادة منها، ودورات الصيانة التقليدية.
- مقابلات مع السكان المحليين لفهم الرمزية المرتبطة بالماء، والخبرات الحياتية اليومية المرتبطة بالينابيع.
- تحليل تاريخي وثقافي، دراسة المصادر التاريخية التي توثق استخدام المياه في القصبة، وربطها بالهوية المحلية.

2.13. النتائج والتحليل:

أظهرت الدراسة أن:

[1] Samira Khelifi, Le rôle du patrimoine dans la mise en valeur de l'identité culturelle : les sources d'eau dans la Casbah d'Alger, Thèse de doctorat, Université d'Alger 3, Alger, 2019.

- الينابيع كمراكز اجتماعية، تعمل كمحاور للتواصل بين السكان، وتعزز التفاعلات المجتمعية اليومية.

- الجانب الرمزي للمياه، يمثل الينبوع رمزًا للهوية الثقافية والذاكرة الجمعية، حيث تحافظ الطقوس المرتبطة بالماء على التقاليد عبر الأجيال.

- استمرارية التراث الحي، رغم التحديات العمرانية والتحولات الحديثة، يحافظ السكان على التقاليد المرتبطة بالماء، مما يعكس ولاءً للهوية الثقافية للقصبة.

4.12. القراءة الأنثروبولوجية النقدية:

- الدراسة تُبرز البعد الرمزي والاجتماعي للتراث الطبيعي ضمن الفضاء الحضري، وهو جانب نادر ما يُعالج في الدراسات المعمارية أو التاريخية التقليدية.

- من النقد، الدراسة لم تتناول بشكل كافٍ التداخل بين الفاعلين المؤسسيين والسياسات العمرانية، أي كيف يمكن للحماية القانونية أو المشاريع الحضرية الحديثة أن تؤثر على الممارسة التقليدية للمياه.

- تمنح الأطروحة بعدًا مهمًا لفهم التراث بوصفه تجربة معيشية حية، ما يجعلها مكملة للدراسات السابقة التي ركزت على المباني، الزقاقات، والسياسات المؤسسية، وتُعزز قدرتك على بناء تحليل متكامل للهوية الثقافية في القصبة من خلال التراث المادي والرمزي معًا.

- **خلاصة:**

عند استعراض الدراسات السابقة المتعلقة بفضاء قصبة الجزائر، يمكن ملاحظة تطور الاهتمام الأكاديمي بالمكان، بدءًا من البُعد التاريخي العام، مرورًا بالمعمار والعمران، وصولًا إلى الدراسات الاجتماعية والرمزية التي تتناول الهوية والتراث والثقافة اليومية. فقد قدمت الأعمال الأولى، مثل **قصبة مدينة الجزائر، الجزء الأول والثاني لعلي خلاصي (2007)**، قراءة دقيقة للقصبة بوصفها فضاءً عمرانيًا متراكمًا عبر التاريخ، حيث ركّزت على النسيج العمراني، وتوزيع البيوت، والأسواق، والحرف التقليدية، والأزقة، وسعت إلى كشف التفاعل بين الشكل العمراني ووظائف الحياة اليومية. هذه الدراسات أسست خلفية معرفية أساسية، وربطت بين المكان والزمان التاريخي، لكنها لم تتجاوز الجانب الوصفي التحليلي لتصل إلى مستوى التأويل الأنثروبولوجي للممارسات الاجتماعية والرمزية.

ومع انتقالنا إلى الدراسات المستندة إلى المخطوطات التاريخية، مثل **تحليل تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولكس**، يمكن إدراك كيف أن الفضاء العمراني كان يحوي تراكمات معرفية وتجارب مجتمعية صاغتها الأجيال. هذه الدراسات التاريخية توفر قراءة عميقة للسياق الزماني والمكاني للقصبة، وتوضح آليات الحفاظ على النسيج التقليدي، لكنها تظل محدودة بالمعمار والتاريخ، مع غياب التحليل الميداني للممارسة اليومية والرمزية الاجتماعية.

ثم جاء العمل التحليلي العمراني لـ " **أندريه رافيرو *La Casbah d'Alger et le site créa la ville***" الذي أضفى بعدًا إضافيًا من حيث دراسة الفضاء ككائن حي، مستخلصًا من التفاصيل المعمارية دلائل عن تنظيم العلاقات الاجتماعية والإيقاعات اليومية للمعيش، ليقرّ بأن العمارة ليست بنية جامدة، بل فعل اجتماعي يحمل قيمة رمزية. غير أن الدراسة بقيت على مستوى البنية والفضاء، دون الغوص العميق في تجربة السكان الفردية، أو في التحولات الحديثة للهوية الثقافية.

على مستوى الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية، مثل دراسة **عبادي طارق ومشتة ياسين (2025) حول الهوية الاجتماعية والتراث الثقافي في قصبة الجزائر**، وأعمال **Mayouf & Bendebili (2025)** حول **التواصل المؤسسي للتراث**، بدأت القراءة تتحول نحو الإنسان الفاعل داخل الفضاء التراثي، ومساءلة كيفية إنتاج المعنى والهوية من خلال التفاعل اليومي مع التراث المادي واللامادي. هذه الدراسات قدمت أدوات تحليلية قوية لفهم دور المؤسسات والجمعيات في الحفاظ على

الهوية، لكنها غالبًا ركزت على الخطاب الرسمي أو الرؤية المؤسسية، دون الوصول إلى تفاصيل الرمزية اليومية أو البُعد الحسي الجسدي للممارسة الثقافية.

على الجانب المعماري، الدراسات مثل ***La ville et l'architecture européennes du XIXe siècle dans la Casbah d'Alger*** و***Les Caractéristiques structurelles des maisons de la Casbah d'Alger*** و***L'expérience architecturale des parcours de la Casbah d'Alger***

وفرت قاعدة معرفية حول أشكال السكن، مسارات الحركة، توزيع الفضاء، وطرق التحكم في شكل المدينة. هذه الدراسات تسمح بفهم التنظيم المادي للقصبة، لكنها تبقى أدوات تحليلية أكثر منها قراءة أنثروبولوجية للمعنى الاجتماعي، حيث لم تفكك بعد كيف يعيد السكان إنتاج قيمهم وهويتهم من خلال الاستخدام اليومي للفضاء.

كما أن الدراسات التي تناولت **الجمعيات الثقافية ودورها في الحفاظ على القصبة**، أو دراسة ***Role of Heritage in Emphasizing Cultural Identity: The Water Springs in the Casbah***، تضيف بعدًا وظيفيًا وإداريًا للتراث، إذ توضح كيف يسعى الفاعلون الاجتماعيون والمؤسسات لحماية القيمة الثقافية للقصبة، لكنها أيضًا تغفل البُعد الرمزي الكامل والممارسة اليومية المتصلة بالهوية الفردية والجماعية. من خلال هذا الاستعراض، يمكن التأكيد على أن اختيار هذه الدراسات لم يكن عشوائيًا أو محصورًا في الانضباط الأنثروبولوجي الصرف، بل جاء بناءً على قدرتها على تزويد البحث بمواد مرجعية متكاملة تغطي التاريخ، العمران، العمارة، الممارسة الاجتماعية، التراث المؤسسي، والرمزية الجزئية.

إن الأنثروبولوجيا، بوصفها علمًا تأويليًا، لا تشتغل على موضوعات أنثروبولوجية جاهزة، بل تُعيد قراءة المعطيات التاريخية، العمرانية، المعمارية، والمؤسساتية من زاوية الفعل الاجتماعي وإنتاج المعنى وبناء الهوية. وعليه، فإن هذه الدراسات لا تُستحضَر بوصفها نهايات تفسيرية، بل كنصوص مرجعية تُعاد مساءلتها داخل أفق أنثروبولوجي نقدي يسمح بتوسيع التحليل ليشمل الرمزية اليومية، الممارسة الحرفية، الطقس الاجتماعي، وطرق إعادة إنتاج الهوية الثقافية داخل قصبة الجزائر، وهو ما يمثل الفراغ البحثي الأساسي الذي تسعى أطروحتنا لسدّه.

الفصل الثاني

الفصل الثاني: مدخل إيكولوجي لمنطقة الدراسة

تمهيد:

تعدُّ قصبة الجزائر واحدةً من أعرق المواقع التاريخية التي تشهد على تعاقب الحضارات والثقافات التي ساهمت في صياغة هوية الجزائر. فهي ليست مجرد مجموعة من الأبنية القديمة والشوارع الضيقة، بل تمثل منظومة بيئية واجتماعية وثقافية متكاملة، نشأت وتطورت عبر قرون طويلة.

تتجسد في قصبة الجزائر الخصوصية الإيكولوجية التي أثرت بشكل جوهري في تشكيل هوية المكان وساكنيه؛ إذ أن الموقع الجغرافي والموارد المائية والمناخ، وأسلوب البناء، شكلت جميعها البيئة التي تعايش معها المجتمع، وطبعت حياته اليومية بسمات فريدة.

القصبة تجسد نموذجاً مميزًا للتكيف البيئي، حيث بُنيت المنازل بشكل مترابط ومتراص، مما يُحقق تكيّفاً حرارياً طبيعياً ويتيح للسكان الاستفادة من الظلال والممرات الضيقة التي تمنحهم حماية من حرارة الصيف. هذا التنظيم العمراني لم يكن محض صدفة، بل هو نتاج عملية تعايش طويلة ومعقدة بين الإنسان وبيئته، تبرز كيف استطاع سكان القصبة، بفضل معرفة تراكمية وأساليب اجتماعية متوارثة، أن يطوّروا بُنية مجتمعية ملائمة تماماً لبيئتهم الطبيعية والاجتماعية.

الموارد المائية أيضاً شكلت عنصرا أساسياً في حياة القصبة؛ فالآبار والعيون، التي ظلت لقرون تغذي السكان بالماء، لم تكن فقط مصدرا للحياة، بل شكلت أيضاً جزءاً من الطقوس والممارسات اليومية التي تميّز حياة المجتمع، مما أكسبها طابعاً روحياً وثقافياً خاصاً. ومع مرور الزمن، أصبحت هذه الموارد والممارسات جزءاً من التراث الإيكولوجي للقصبة، حيث استمدت الأجيال الحالية عاداتها وأساليبها في التعامل مع الطبيعة من تلك التجارب والخبرات المتوارثة.

في هذا الفصل، نغوص في تفاصيل الخصوصية الإيكولوجية التي ميزت قصبة الجزائر ونستكشف الدور الحيوي للعوامل البيئية في صياغة هويتها الثقافية، سنحاول فهم كيف ساهمت البيئة الطبيعية والخصائص العمرانية والاجتماعية في تشكيل نسيجٍ ثقافي واجتماعي خاص، يمتد أثره ليشكّل جزءاً لا يتجزأ من الهوية الجزائرية بكل عمقها وتعقيداتها.

أولا: الخصائص الجغرافية والطبيعية لقصبة الجزائر:

تأثرت قصبة الجزائر بموقعها الجغرافي وتضاريسها بشكل كبير. بنيت القصبة على تلة تطل على البحر الأبيض المتوسط، مما أثر على تصميم المباني ذات الأسطح المسطحة والشرفات التي توفر التهوية الطبيعية. كما أن الشوارع الضيقة والملتوية جاءت لتوفير الحماية من الرياح القوية والعواصف. هذه الخصائص الهندسية نتجت عن تفاعل العمارة مع البيئة الطبيعية المحيطة، مما جعل القصبة نموذجاً مميزاً في العمارة المتوسطية التقليدية[1].

لقد ساعد الموقع المرتفع للقصبة على تحقيق قدر من الحماية والتحصين الطبيعي؛ مما جعلها محطّ جذب استراتيجي للعديد من القوى التي مرت على المنطقة، كالفينيقيين والرومان والعرب والعثمانيين، والذين استغلوا هذا الموقع كحصن دفاعي ضدّ الغزاة، مما جعل القصبة تتميز بمكانة عسكرية وسياسية بارزة في التاريخ الجزائري. ونتيجة لهذا التراكم الحضاري المتنوع، تشكّل فضاء القصبة بتأثيرات ثقافية وبيئية متداخلة، حيث تجذّرت بعض العادات والممارسات المحلية التي عكست روح التعايش والتكيف مع الطبيعة الجغرافية.

الطبيعة المناخية للقصبة تعد أيضاً عنصرا مؤثراً في حياة السكان وأسلوب عيشهم؛ فبفضل المناخ المتوسطي، الذي يتميّز بمواسم حارة وجافة صيفاً ورطبة معتدلة شتاءً، تشكلت أنماط معمارية متناسبة مع طبيعة هذا المناخ. فتراصّ المباني وتلاصقها أدى إلى توفير نوع من التكييف الحراري الطبيعي، حيث صُممت الأزقة والممرات الضيقة بعناية لتحدّ من شدة الشمس وتتيح تهوية طبيعية، مُستغلين الرياح البحرية لتلطيف الأجواء الداخلية للمباني. هذا التكيف البيئي أضفى بعداً أنثروبولوجياً عميقاً على القصبة، حيث يُظهر تفاعل الإنسان مع البيئة وابتكاره حلولاً مستدامة لأجل حياة أكثر ملائمة لطبيعة المكان.

من ناحية الموارد الطبيعية، كانت العيون المائية بمثابة شريان الحياة للقصبة؛ إذ أن هذه العيون لم تكن مجرد مصدر مائي لتلبية احتياجات السكان، بل لعبت دوراً جوهرياً في نمط العيش وفي الطقوس

[1] المرجع: حسن إبراهيم حسن سلام وآخرون، "**الوصف الأثري والمعماري لقصبة الجزائر التاريخيّة**"، مجلة الدراسات الأفريمية، 2020، ص 55.

اليومية للمجتمع المحلي، مما أكسبها أهمية ثقافية وروحية. كانت هذه العيون تتوزع في عدة مواقع ضمن حدود القصبة، مما جعلها تمثل محوراً اجتماعياً هاماً، حيث يتجمع السكان للحصول على الماء وللتفاعل والتواصل اليومي، مما يعزز مفهوم "المكان التفاعلي" الذي يُشير إلى البيئة الاجتماعية المترابطة.

يمكن القول إن الخصائص الجغرافية والطبيعية لقصبة الجزائر كانت ومازالت تشكل قاعدة صلبة للهوية الثقافية لهذا المكان. فمن خلال التكيف الذكي للإنسان مع بيئته الطبيعية، تتجلى هنا أعمق ملامح الهوية والخصوصية الثقافية التي تمتاز بها القصبة عن سواها من المناطق، حيث يصبح التراث البيئي جزءاً لا يتجزأ من معالم الهوية الجزائرية، ويؤكد على أن علاقة الإنسان ببيئته ليست مجرد علاقة استغلال، بل هي تفاعل واستمرارية بين العوامل الطبيعية والثقافية.

تتجلى هذه العلاقة التفاعلية بوضوح في العمارة التقليدية للقصبة، حيث صُممت المباني والمساكن بطريقة ذكية تتناغم مع التضاريس الصعبة والمناخ المتوسطي. فالمنازل المتراصة ذات الجدران السميكة والنوافذ الضيقة والأفنية الداخلية، كانت استجابة معمارية دقيقة للظروف المناخية القاسية. استطاع المعماريون والبناؤون تحويل التحديات الطبيعية إلى فرص للإبداع، مُنتجين نمطًا معماريًا فريدًا يحمي من حرارة الصيف ويوفر الدفء في الشتاء.

وفي السياق ذاته، برز التكيف البيئي في أنظمة الري والمياه، وفي طرق الزراعة والرعي، وحتى في الملابس التقليدية. كل هذه الممارسات شكلت منظومة ثقافية متكاملة جسدت الذكاء الجماعي للسكان في التعامل مع بيئتهم. فالهوية هنا لم تكن مجرد تراث جامد، بل كانت عملية مستمرة من التفاعل الخلاق بين الإنسان والطبيعة، حيث يظهر الإنسان كعنصر فاعل ومبدع وليس مجرد متلقٍ سلبي.

ثانيا: المعالم المعمارية والأنماط البنائية في قصبة الجزائر

تعتبر المعالم المعمارية والأنماط البنائية في قصبة الجزائر جزءاً لا يتجزأ من هويتها التاريخية والثقافية، فالتصميم المعماري للقصبة يعكس تمازجاً فريداً بين التراث الإسلامي والهندسة التقليدية المحلية، إلى جانب التأثيرات القادمة من حضارات مختلفة مرت عبر تاريخها، هذا المزج المعماري ساهم في خلق فضاء يعبر عن هوية ثقافية غنية، تمثل روح المجتمع الجزائري في ذلك الوقت، وطابعه المتأصل في الحياة الحضرية.

يتألف النسيج العمراني للقصبة من مبانٍ متراصة، متداخلة ومتعددة الطوابق، تنفتح على أزقة ضيقة ومتعرجة، تضفي إحساساً بالخصوصية والانتماء الجماعي. تشكل هذه الأزقة مساحات عامة للتفاعل الاجتماعي، حيث كان الناس يتبادلون الأخبار، ويقيمون المناسبات الدينية والاجتماعية، ويجتمعون لأداء الطقوس التقليدية، هذا التصميم يرمز إلى البعد الاجتماعي الذي كان يُميز سكان القصبة، ويعكس في الوقت نفسه جوانب من التلاحم الأسري والجماعي.

في هذا السياق، يروي لنا **عمي بوعلام**، وهو أحد سكان القصبة الأصليين يبلغ من العمر 78 عامًا، كيف كانت الحياة في هذه الأزقة، قائلاً: "الزنيقة هذيك ماكانتش طريق نمشيو فيها برك. . . كانت هي الحوش الكبير تاعنا كامل. أبوابنا كانت ديما محلولة على بعضاها، تسمع ضحك الدراري يلعبوا، وتشم ريحة القهوة والطبيخ لي تخرج من كل دار. العرس ديال واحد فينا كان العرس ديال الحومة كامل، والجنازة كيف كيف، نوقفو وقفة وحدة. ماكانش 'داري' و 'دارك'، كانت 'حومتنا'. كنا صح يد وحدة"[1].

إن هذه الشهادة الحية تحول الزقاق من مجرد عنصر معماري إلى" **فضاء اجتماعي معيش** " **(Lived Social Space)** بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فعبارات مثل "الحوش الكبير تاعنا" و "يد وحدة" ليست مجرد تعابير عاطفية، بل هي توصيف دقيق لآليات التضامن الاجتماعي التي كان المكان ينتجها ويحافظ عليها. فالزقاق، في ذاكرة سكانه، لم يكن ممرًا يفصل بين البيوت، بل كان هو

[1] مقابلة شخصية مع السيد بوعلام، (اسم مستعار للحفاظ على الخصوصية)، 78 عامًا، متقاعد، قصبة الجزائر، 15 مارس 2024

النسيج الذي يربطها ويجعل منها كيانًا اجتماعيًا واحدًا، مما يجسد بعمق علاقة التلاحم العضوي بين البنية العمرانية والبنية الاجتماعية في قصبة الجزائر.

تتوزع المباني في القصبة بين منازل سكنية، وقصور تعود لعائلات ميسورة، ومساجد قديمة، وأسواق تجارية تقليدية، كل من هذه المباني يحمل بصمات معمارية فريدة تتناغم مع البيئة الطبيعية المحيطة وتستجيب للاحتياجات المجتمعية، فعلى سبيل المثال، تتميز المنازل التقليدية بوجود أفنية داخلية تتوسطها، مما يسمح بدخول الهواء والضوء الطبيعيين، ويخلق جواً معتدلاً يلائم الطقس المتوسطي، فضلاً عن تحقيق الخصوصية التي يوليها المجتمع المحلي أهمية كبيرة.

من ناحية أخرى، تحظى المساجد والمرافق الدينية بمكانة خاصة في بنية القصبة؛ إذ تعكس الهندسة المعمارية لهذه المرافق روح العقيدة الإسلامية وتأثيراتها الثقافية على التصميم البنائي، فالمآذن العالية والأقواس المزخرفة والنقوش الهندسية الدقيقة التي تزين الجدران، كلها عناصر تعبر عن تمازج الروحانية والفن، وتبرز أصالة الموروث الديني وعلاقته بالمكان.

القيم الوظيفية للأنماط البنائية ليست مجرد شكل جمالي، بل تعبّر أيضاً عن تكيّف ذكي مع المعطيات البيئية والاجتماعية، فقد اعتمد سكان القصبة على مواد بناء محلية تتناسب مع الطقس وتمنح المباني قوةً أمام الظروف الطبيعية. هذا التكامل بين الفن المعماري ووظائفه البيئية يعكس ديناميكية متميزة، حيث تمثل العمارة في القصبة شاهداً على مدى عمق تفاعل المجتمع المحلي مع بيئته وقدرته على بناء نماذج معمارية تتحدى الزمن والظروف.

هذه الفلسفة البنائية، التي قد تبدو بسيطة للوهلة الأولى، هي في الحقيقة نظام معقد من المعرفة المتراكمة، وهو ما يؤكده المهندس المعماري والباحث في التراث **السيد فاتح**، الذي قضى عقودًا في دراسة وترميم مباني القصبة، حيث يقول: "الخطأ الشائع هو النظر إلى بيوت القصبة كأشكال فنية فقط. الحقيقة أن كل شيء هنا هو حلٌّ لمشكلة. الجدران السميكة من التراب والجير لا تعزل الحرارة مثل الإسمنت، بل تتنفس؛ هي تمتص الرطوبة في الليل وتطلقها في النهار، مما يخلق تبريدًا طبيعيًا. " **السّقيفة** " عند مدخل الدار ليست مجرد ممر، إنها حاجز حراري واجتماعي، تكسر تيار الهواء الساخن وتضمن حرمة العائلة عن أعين المارة في الزقاق. حتى ضيق الأزقة هو بحد ذاته نظام تكييف حضري، يخلق الظل ويوجّه نسيم البحر. البنّاؤون القدامى لم يكونوا يبنون *على* الأرض، بل كانوا يبنون مع الأرض

ومع المناخ. كانت فلسفة انسجام، لا فلسفة غزو للطبيعة، ولهذا السبب هذه البيوت 'حية' وقادرة على الصمودلقرون"[1].

تمثل المعالم المعمارية للقصبة تجسيداً مادياً للذاكرة الجماعية لسكانها؛ إذ إن هذه الأنماط البنائية ليست مجرد بنايات عادية، بل هي مكونات حية تحمل قصصاً وموروثات ثقافية عبر الأجيال، ويظل التراث المعماري للقصبة علامة مميزة على البراعة الفنية المحلية، التي تساهم في إبراز الهوية الثقافية الجزائرية وتأكيد أصالة التراث الحضاري الذي تحتضنه هذه المدينة التاريخية.

يمكن تلخيص أهم خصائصها المعمارية في النقاط التالية:

1. العناصر المعمارية الإسلامية:

- الطراز المغربي الأندلسي واضح في تصميم المنازل ذات الواجهات الداخلية المغلقة.
- استخدام الأقواس والعقود فيالمداخل والنوافذ.
- الديكورات الجصية والزخارف الهندسية الإسلامية المميزة.
- الملاقف والمشربيات لتهوية وتبريد المساكن.

تشير الدراسات إلى أن العناصر المعمارية الإسلامية في قصبة الجزائر تعكس الطراز المغربي الأندلسي، خصوصًا في تصميم المنازل ذات الواجهات الداخلية المغلقة، مع استخدام الأقواس والعقود في المداخل والنوافذ، وتزيين الجدران بالديكورات الجصية والزخارف الهندسية الإسلامية المميزة، إضافة إلى الملاقف والمشربيات التي تُستخدم لتهوية وتبريد المساكن، مما يعكس العلاقة بين العمارة والبيئة الاجتماعية والثقافية للسكان[2].

2. التأثيرات العثمانية:

- المباني متعددة الطوابق ذات النوافذ الخشبية البارزة.

---

[1] مقابلة شخصية مع السيد فاتح (اسم مستعار)، 67 عامًا، مهندس معماري وخبير في ترميم التراث، الجزائر العاصمة، 28 أبريل 2024.

[2] ضاوية وداش، «قصبة الجزائر: اندثار نسيج حضري أم اندثار هوية حضرية»، دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 14، العدد 2، 2014، ص. 472–493.

- استخدام الحجر والطوب في البناء.
- التصميمات المعمارية المعقدة التي تجمع بين البساطة والجمال.

تنقسم المشغولات المعدنية عامة إلى قسمين، القسم الأول يشمل التحف المعدنية المنقولة، والمتمثلة في الألواني والثريات والصناديق والأسلحة كالسيوف والخناجر والخوذات التي كان يمسكها المحاربون، والدروع التي كان يمسكها الفارس وتُقمد على الفرس، إضافة إلى أدوات أخرى[1].

3. خصائص البيئة المحلية:

- المباني المتراصة والضيقة المتكيفة مع التضاريس الجبلية.
- الأزقة الضيقة والمنعطفات المعقدة التي توفر الظل والبرودة.
- استخدام مواد البناء المحلية كالحجر والطين.

4. التأثيرات الاستعمارية الفرنسية:

- إدخال بعض العناصر المعمارية الأوروبية.
- تعديلات على التصميمات التقليدية مع الحفاظ على الطابع الأصلي.
- استخدام تقنيات بناء جديدة.

5. الوظائف المعمارية:

- المساكن متعددة الوظائف تجمع بين السكن والحرف.
- وجود الدكاكين والورش في الطوابق السفلية.
- تصميم داخلي يراعي الخصوصية والعادات الاجتماعية.

6. عناصر مميزة:

- البيوت الداخلية المفتوحة على فناء مركزي "وسط الدار"، مع نافورة وبئر او عين مائية داخل الدار.
- السلالم الحجرية الضيقة.
- النوافذ الخشبية المزخرفة.

[1] علام، مهدية، لمحة حول المشغولات المعدنية على عمائر قصبة الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الدراسات الأثرية، المجلد 16، العدد 1، 2018، ص 138–151.

- الأبواب المرصعة بالنقوش والزخارف.

هذا النسيج المعماري المعقد يعكس التاريخ المتعدد الطبقات للقصبة، حيث يمثل كل حجر وتصميم حكاية تاريخية عميقة تروي مراحل تطور المدينة عبر القرون. المعمار هنا ليس مجرد بناء، بل هو وثيقة حية تحكي قصة مجتمع وحضارة، ففي صمت الأحجار العتيقة، تنبض روايات التاريخ بأنفاس متعددة. كل حجر في قصبة الجزائر يحمل بين طياته سردًا عميقًا لحضارات توالت وأمم تعاقبت. هنا تتشابك الذكريات وتتداخل الهويات لتشكل نسيجًا معماريًا فريدًا يروي قصص الماضي بصمت مهيب، حيث تتحول الجدران إلى شهود على مراحل تاريخية متعاقبة.

المساحات الضيقة بين المباني المتراصة تحكي سيمفونية العيش المشترك؛ زقاق يضم بين جدرانه حكايات الجيران وسلم حجري يحمل أصداء أقدام مرت عبر عقود من الزمن، هنا المعمار ليس مجرد تراكم للحجارة، بل هو نسيج اجتماعي حي ينبض بالتاريخ والذاكرة.

في كل قوس وعقد تتجلى حكمة البناءين القدامى الذين اختاروا لكل تفصيل معنى ولكل زاوية رمزية، والنوافذ الخشبية المزخرفة تحكي قصص الصناع الذين أبدعوا في النحت والتشكيل، والأبواب المرصعة تروي تاريخ الحرف والتقاليد التي توارثتها الأجيال، هذه العلاقة الروحية بين الصانع والمادة هي ما يمنح عمارة القصبة "روحها" المتفردة، وهي حقيقة يؤكدها **عمي مختار**، شيخ النحّاتين في القصبة السفلى، الذي قضى أكثر من خمسين عامًا بين الأزاميل ورائحة خشب الأرز، حيث يقول واصفًا فلسفة حرفته: " الخشب ما يموتش، الخشب عندو ذاكرة، كي نخدم باب ولا مشربية، راني ما نخدمش في لوحة وخلاص، كل ضربة تاع إزميل هي كلمة، وكل زخة هي دعوة بالخير لمالين الدار. الباب في القصبة هو 'وجه الحرمة'، هو الستار اللي يخبّي أسرار العايلة ويحفظ قدرها. الخدمة ديال الماشينة (الآلة) باردة وميتة، بصح الخدمة ديال اليد فيها 'الروح' وفيها 'البركة'. حنا ما ورثناش غير الصنعة، ورثنا 'الأمانة' باه نخلو الحجر والعود ينطقوا بتاريخ جدادنا"[1].

تُنقلنا شهادة هذا الحرفي من المستوى الجمالي للعمارة إلى مستواها الأنثروبولوجي العميق، فالأبواب والنوافذ ليست مجرد فتحات وظيفية، بل هي" **عتبات رمزية** " مشحونة بقيم الحرمة والبركة والذاكرة.

[1] مقابلة شخصية مع السيد مختار، (اسم مستعار)، 74 عامًا، حرفي في النجارة الفنية والنقش على الخشب، ورشة بالقصبة السفلى، الجزائر العاصمة، 10 فيفري 2025.

الحرفي هنا لا يرى نفسه مجرد عامل، بل يرى نفسه" **حارسًا للذاكرة**"، يودع في كل قطعة يصنعها جزءًا من روح الجماعة وتاريخها، مما يجعل المبنى كائنًا حيًا يتنفس عبر مسامات الخشب والحجر.

المساحات الداخلية للمنازل تمثل عالمًا مصغراً من الخصوصية والأسرار. الفناء المركزي "وسط الدار" يحكي طقوس العائلة وتقاليدها، حيث تلتقي الأجيال وتتناقل الحكايات. هنا يتجسد المعمار كمرآة للهوية، يعكس القيم الاجتماعية والثقافية بكل تفاصيلها الدقيقة.

التداخل المعماري في القصبة يمثل لوحة حضارية معقدة، تلتقي هنا العمارة الزيرية والإسلامية والعثمانية والفرنسية في تناغم مدهش، حيث يبدو كل حجر وكأنه يحمل بصمة حضارة مرت وساهمت في تشكيل الهوية. المعمار هنا يتحول إلى لغة تتحدث عن التعايش والتسامح.

هذه القراءة العميقة للنسيج العمراني كـ "حوار بين الحضارات" يؤكدها **الدكتور أمين**، وهو مؤرخ معماري قضى حياته في دراسة وتحليل مدن شمال إفريقيا التاريخية. عند سؤاله عن هذا "التناغم" الظاهري بين أنماط معمارية متباينة، أجاب:

"الخطأ هو أن ننظر إلى القصبة كـ 'متحف' يعرض طرازًا بجانب طراز. هي ليست كذلك أبدًا. القصبة هي 'كائن حي' هجين. دقق النظر وسترى الحوار بنفسك: ستجد أساسًا زيريًا يحمل جدارًا عثمانيًا، وسترى بابًا خشبيًا محلي الصنع ضمن قوس له صدى أندلسي واضح. الفرنسيون أنفسهم لم يبنوا الجديد فقط، بل أعادوا توظيف القديم أحيانًا، مضيفين شرفة من الحديد المطاوع هنا أو نافذة أوسع هناك. عبقرية القصبة أن أي طراز لم يمحُ الذي سبقه بالكامل. كل حقبة، بوعي أو بغير وعي، احترمت 'القواعد النحوية' للمكان وأضافت مفرداتها الخاصة، والنتيجة ليست مجموعة جمل متفرقة، بل هي قصيدة واحدة معقدة كُتبت على مدار قرون، هذا هو التجسيد المادي لهوية الجزائر العاصمة، مدينة تعرف كيف تمتص، تتأقلم، وتخلق الجديد من القديم دون أن تفقد ذاكرتها"[1].

في صمت هذه الأحياء العتيقة، يبقى المعمار شاهدًا صامتا على تاريخ مدينة عاصرت حضارات وعانقت التغيير. كل زاوية وكل تفصيل يحمل إرثا ثقافيًا عميقًا، يروي قصة مجتمع تمكن من الاحتفاظ

[1] [1]مقابلة شخصية مع الدكتور أمين. (اسم مستعار)، 78 عامًا، مؤرخ متخصص في العمارة والتخطيط الحضري في شمال إفريقيا، الجزائر العاصمة، 17 جوان 2024.

بهويته رغم تقلبات الزمن. القصبة هنا ليست مجرد مكان، بل هي وعاء للذاكرة وشاهد على استمرارية الحياة

ثالثا: الموارد البيئية وتأثيرها على نمط الحياة في قصبة الجزائر

تعَدّ الموارد البيئية في قصبة الجزائر من العوامل الحاسمة التي أسهمت في تشكيل أنماط الحياة وساهمت في خلق ديناميكيات اجتماعية وثقافية متفردة؛ تتميز القصبة ببيئة طبيعية متوسطة الغنى، حيث تقع على مرتفع يطل على البحر الأبيض المتوسط، مما يمنحها طقساً معتدلاً وأراضي خصبة نسبياً، إضافة إلى توافر العيون المائية الطبيعية، هذه الموارد البيئية قد أثرت بشكل مباشر على نمط معيشة سكان القصبة وعلاقتهم مع المكان، بل شكّلت أساساً لوجودهم واستمراريتهم.

اعتمد سكان القصبة تاريخياً على موارد مائية محلية مثل العيون والآبار، التي كانت تلبي احتياجاتهم اليومية من مياه الشرب والري. كانت هذه الموارد مدمجة بذكاء في النظام العمراني، حيث ساهمت في استدامة حياة السكان داخل المدينة القديمة. المياه لم تكن فقط ضرورة بل جزءاً من الهندسة الاجتماعية للقصبة، مما يعكس تقدير المجتمع للبيئة[1].

من أبرز الموارد البيئية التي تميزت بها القصبة على مر العصور هو توافر المياه الجوفية والينابيع التي كانت تعد شريان حياة رئيسي، وقد ساعدت هذه الموارد المائية على استقرار السكان وتعزيز النشاط الزراعي، حيث أنشئت بساتين وأراضٍ زراعية تحيط بالمدينة، مما ساعد على تلبية احتياجات السكان الغذائية وتقوية ارتباطهم بالمكان، ووفقاً لدراسات أنثروبولوجية تناولت موضوع الموارد المائية في المدن العتيقة، فإن توافر الماء عادة ما يكون عاملاً أساسياً يؤثر في توزيع السكان وتنظيم الحياة الاجتماعية، وهو ما نجده بوضوح في حالة القصبة.

فالعيون والآبار التاريخية لم تكن مجرد مصادر للمياه، بل كانت شريان الوجود وأساس الاستقرار للسكان الأصليين. تميزت هذه المنطقة بشبكة معقدة من الأنظمة المائية التي برع سكانها في تصميمها وادارتها عبر قرون طويلة.

---

[1] سي مرابط شهرزاد، "**سياسة الحفاظ على المدُّنة التار خُّة ففً إطار التنمُّة المستدامة**"، مجلة التعمير والبناء، المجلد 4، العدد 22، دار النشر: جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر، 2020، ص64.

كانت العيون المائية المصدر الرئيسي للحياة، حيث وفرت المياه العذبة للشرب والزارعة والاستخدامات المنزلية. طور سكان القصبة أنظمة ري تقليدية مبتكرة اعتمدت على شبكات أنابيب فخارية دقيقة وقنوات مائية محفورة بعناية فائقة. هذه الأنظمة عكست براعة هندسية استثنائية في التعامل مع التضاريس الصعبة والموارد المحدودة.

لعبت العيون المائية دورًا محوريًا في تلبية احتياجات الحياة داخل قصبة الجزائر، حيث تشير المصادر إلى وجود ينابيع مهمة مثل **عين المزوّقة** و**عين الحامة** و**عين الأزرق** التي كانت تزود السكان بالمياه العذبة للشرب والاستخدامات الأخرى[1]. وقد أشار بعض الباحثين إلى أن هذه العيون لم تكن تُستخدم فقط كمصدر للمياه، بل كمرفق حضري وتراثي، يعكس مستوى من التنظيم القديم للموارد المائية ضمن بنية المدينة[2].

انعكست أهمية المياه بوضوح على العمارة التقليدية للقصبة. فقد صُممت المنازل والدور بطريقة ذكية تستوعب تدفق المياه وتوزيعها، مع وجود حدائق داخلية وأنظمة تبريد طبيعية تعتمد على المياه. شكلت هذه الموارد المائية جزءًا أساسيًا من النسيج الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة، حيث ارتبطت بالصناعات التقليدية والحرف اليدوية.

كما أن وفرة المياه وتأثيرها المباشر على البنية السكانية في القصبة يُعد مثالاً على تكيّف المجتمع المحلي مع المعطيات البيئية واستغلال الموارد الطبيعية بطريقة مبتكرة. فقد اعتمد السكان على نظام تقليدي لتوزيع المياه، حيث أنشئت أسبلة عامة وأحواض مياه، وأيضاً نظام قنوات لنقل الماء من العيون إلى الأحياء المختلفة في القصبة، مما ساهم في تعزيز العلاقات الاجتماعية عبر مشاركة هذه الموارد والتعاون بين الأفراد، لكن مع مرور الزمن، واجهت الموارد المائية في القصبة تحديات كبيرة. فالتوسع العمراني والتلوث وهجرة السكان أدت إلى تدهور البنية التحتية التاريخية. على الرغم من ذلك، تظل هذه الموارد شاهدًا حيًا على إبداع الأجداد وقدرتهم على التكيف مع البيئة القاسية.

---

[1] بلكبير بومدين، قصبة الجزائر، «جدران بيضاء وأبواب مشرعة على التاريخ»، نقلا عن: موقع المكتبة الرقمية العربية، https://alarabi.nccal.gov.kw/Home/Article/19391 ، يوم: 16-07-2024

[2] خديجة نشار، «المنشآت المعمارية المائية في الجزائر العهد العثماني (نموذج — الخربة)»، دراسات في آثار الوطن العربي، المجلد 8، العدد 1، 2005، ص 454-462

من جهة أخرى، تعد التضاريس الجغرافية للقصبة من العوامل التي أثرت بشكل مباشر في أنماط البناء وتوزيع المنازل، فبفضل وقوعها على مرتفع، كان يُصمّم البناء بحيث يكون متكيفاً مع الطبيعة الجبلية، حيث تتبع المباني انحدار الأرض بطرق تضمن الاستفادة القصوى من المساحات المتاحة وتوفر استقراراً في مواجهة الزلازل. هذه الأنماط المعمارية المستوحاة من البيئة تعتبر انعكاساً للوعي البيئي لدى السكان، الذين استغلوا طبيعة الأرض لتحقيق التوازن بين حاجاتهم السكنية ومتطلبات الأمن والسلامة.

كما لعبت الموانئ المرتبطة بمدينة الجزائر (والتي تشمل نطاق القصبة) دورًا مركزيًا في الاقتصاد العثماني، حيث أضحت نقطة تقاطع تجاري حيوي يربط الجزائر بدول البحر الأبيض المتوسط. وطبقًا لدراسة **زهير نادية**(2025) ، فقد صارت موانئ الجزائر التابعة للقصبة محورا أساسيا للتبادل التجاري، حيث صدرت عبرها الصوف، الجلود، الزيوت، وغيرها من البضائع، في حين استوردت الجزائر التوابل، المنسوجات، والمعادن[1]. كما يشير **رضوان شافو** و **عمر لمقدم** (2017) إلى أن العائدات التجارية من النشاط البحري البحري، بما في ذلك الجهاد البحري، شكّلت جزءًا كبيرًا من الاقتصاد المحلي للدولة العثمانية في الجزائر[2].

من هنا نرى أن الموارد البيئية لم تقتصر أهميتها على تأمين متطلبات الحياة اليومية، بل أسهمت في تحقيق ازدهار اقتصادي واجتماعي وثقافي، وبالإضافة إلى تأثير الموارد الطبيعية في الاقتصاد ونمط البناء، نجد أن القصبة طوّرت عادات وتقاليد ذات طابع بيئي، مثل الاستفادة من الموارد المحلية في الصناعات اليدوية التقليدية كصناعة الفخار والنسيج، والتي ترتكز على مواد مستخرجة من الطبيعة مثل الطين والنباتات المحلية. هذه الصناعات كانت تعبر عن إحساس السكان بضرورة الحفاظ على الموارد، وتعد انعكاساً لوعيهم البيئي وحرصهم على التوازن بين استغلال الموارد والحفاظ على استدامتها.

[1] زهير، نادية. دور الموانئ الجزائرية في التجارة الخارجية خلال العهد العثماني (1519-1830م): ميناء مدينة الجزائر أنموذجا. جامعة محمد بوضياف – المسيلة، 2025.

[2] رضوان شافو، عمر لمقدم، «نظرة حول الأنشطة الاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني»، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية (ASJP)، المجلد 1، العدد 1، 2017، ص 63-83.

إن الموارد البيئية في قصبة الجزائر لم تكن مجرد معطيات جغرافية أو طبيعية، بل كانت أساساً لتشكيل هوية ثقافية متكاملة تعكس تفاعل الإنسان مع بيئته، فكل نمط من أنماط الحياة وكل ممارسة مجتمعية كانت تسعى للاستفادة من الموارد بشكل يعكس حيوية المكان وتحدياته. هذا التكامل بين البيئة والحياة المجتمعية هو ما جعل قصبة الجزائر مركزاً للتراث الثقافي، ومثالاً على التكيّف الحضري الذي يستلهم من الطبيعة معاني البقاء والاستدامة.

رابعا: الموارد المائية وارتباطها بتطور القصبة: دور العيون المائية والآبار التاريخية في حياة سكان القصبة وتكيفهم البيئي

تعد الموارد المائية جزءًا لا يتجزأ من تاريخ قصبة الجزائر وتطورها، حيث كانت العيون المائية والآبار التاريخية من العوامل الأساسية التي ساهمت في بناء الحياة الاجتماعية والثقافية فيها. هذه الموارد لم تكن مجرد مصادر للمياه فحسب، بل كانت تشكّل بنية تحتية معقدة ومتكاملة عملت على تلبية احتياجات السكان وتعزيز الاستقرار في منطقة تتميز بتضاريسها الفريدة واطلالتها على البحر الأبيض المتوسط.

كانت العيون المائية في القصبة بمثابة الشريان الحيوي للسكان، إذ اعتمدوا عليها في تلبية احتياجاتهم اليومية من مياه الشرب والاستخدامات المنزلية والري الزراعي، هذه العيون كانت تتوزع بشكل استراتيجي، مما مكّن الأحياء المختلفة من الوصول إلى المياه بيسر. وكان وجود هذه العيون عنصراً رئيسياً في استقرار التجمعات السكانية القديمة، حيث استطاع السكان استغلال هذه الموارد بكفاءة عالية، مما جعلهم يتكيفون مع البيئة ويتجاوزون التحديات الجغرافية التي تفرضها طبيعة الأرض الوعرة والتضاريس الحادة، إضافةً إلى العيون المعروفة في القصبة، تشير بعض الدراسات الأثرية إلى أن موارد المياه الأخرى مثل الآبار لعبت دورًا مهمًا في حياة السكان خلال فترات الشح. فحسب **الزكية رادجاي (2015)**، فإن موقع القصبة على تضاريس وعرة جعل من المنشآت المائية مثل الآبار ضرورة ملحة لتأمين المياه[1].

[1] الزكية رادجاي، «مدينة الجزائر (القصبة) وأثر الموقع في تأسيسها»، دراسات في آثار الوطن العربي، المجلد 18، العدد 1، 2015, ص 437-453.

كما يرى **رفيق خلاف (2017)** أن بعض الترميمات التي طالت القصبة تشمل إعادة تأهيل عناصر قديمة متصلة بأنظمة التزويد بالماء ضمن البنية العمرانية[1]. وعلى الرغم من ندرة الدراسات التي تشرح تفصيلاً هندسة الآبار التقليدية أو استخدام أنابيب فخارية، فإن البنية المعمارية المعقدة للقصبة كما وصفها الباحثون (منازل متعددة الطوابق، أزقة ضيقة) تسلط الضوء على وجود إدارة مائية محلية قديمة تترافق مع تنظيم المجتمع[2]. وقد ساهم نظام توزيع المياه المعتمد على العيون والآبار في تعزيز التلاحم الاجتماعي، حيث كانت توجد قوانين وعادات محلية تضبط استخدام المياه وتوزيعها بين السكان، مما أسهم في خلق مجتمع منظم يتعاون في إدارة موارده الطبيعية بشكل يعكس وعياً بيئياً عاليا، وعليه كانت الموارد المائية أكثر من مجرد عنصر مادي، بل كانت تعبيراً عن الثقافة المجتمعية التي تنظر إلى المياه كعنصر مشترك يجب الحفاظ عليه واحترامه.

وبفضل توافر هذه الموارد المائية، تطورت القصبة اقتصادياً، حيث استفاد السكان من الزارعة في المناطق المحيطة، إضافة إلى إنشاء صناعات يدوية تقليدية تعتمد على المياه، مثل صناعة الفخار التي تعتمد على الطين المستخرج من الأرض والممزوج بالماء، كما أسهم وجود الموارد المائية في تعزيز التجارة، حيث كانت القصبة مركزاً تجارياً حيوياً يربط الداخل بالساحل، مما مكنها من النمو والازدهار على مر العصور. يمكن القول أن العيون المائية والآبار التاريخية لعبت دوراً جوهرياً في تكيف سكان القصبة مع بيئتهم، حيث شكّلت أساساً للتنمية الحضرية والاجتماعية في هذه المنطقة التاريخية. لقد كانت هذه الموارد المائية جزءاً من هوية القصبة، وعاملاً رئيسياً ساهم في بناء مجتمع متماسك ومتكيف مع متطلبات البيئة، مما أضفى على القصبة طابعاً فريداً يمزج بين الطبيعة والثقافة، ويجعلها رمزاً للتراث الجزائري الحيّ.

[1] خلاف رفيق، «قصبة الجزائر، حوصلة حول محاولات الحفظ والترميم»، دراسات تراثية، المجلد 11، العدد 1، 2017, ص 28-39.

[2] حسن إبراهيم وآخرون، الوصف الأثري والمعماري لقصبة الجزائر التاريخية، مجلة الدراسات الأفريقية، المجلد 43، العدد 1، 2021, ص 52-94.

خامسا: الممارسات اليومية المرتبطة بالحفاظ على الموارد البيئية: استعراض ممارسات أهل القصبة في احترام البيئة واستدامة الموارد المتاحة

عبر تاريخها الطويل، طوّر سكان قصبة الجزائر ممارسات يومية متجذرة في الثقافة المحلية، تهدف إلى الحفاظ على البيئة وضمان استدامة الموارد المتاحة. جاءت هذه الممارسات نتيجةً لعلاقة عميقة بين السكان وبيئتهم الطبيعية، التي تميزت بموارد محدودة تتطلب حرصاً ودراية في التعامل معها. هذا الوعي البيئي كان انعكاساً لتحديات الطبيعة التي أحاطت بالقصبة، مما دفع أهلها إلى ابتكار تقاليد وأساليب حياة تدعم استدامة الموارد.

من أهم الممارسات المرتبطة بالحفاظ على البيئة لدى سكان القصبة هي أساليب إدارة المياه. كانت العيون والآبار، كما ذكرنا سابقاً، المصادر الأساسية للمياه، وقد طور السكان عادات دقيقة لتقنية استخدامها وتوزيعها بين الأحياء والمنازل، فعلى سبيل المثال، كانوا يستخدمون المياه بعناية وحذر، حيث تعاد تدوير المياه بعد استخدامها في أغراض التنظيف لري الحدائق المنزلية أو الزارعة البسيطة، ما يعكس وعياً عالياً بأهمية الحفاظ على المياه كمورد حيوي. كما أن بعض العادات كانت تنظم بواسطة عرف المجتمع، مما يحافظ على هذا المورد ويمنع الإسراف. هذه الثقافة المائية العميقة تتجلى في ذاكرة الأجيال التي عاشتها. تروي لنا **الحاجة فاطمة**، وهي سيدة في عقدها الثامن وُلدت وترعرعت في قلب القصبة، تفاصيل هذه الحياة قائلة: " الماء كان عزيز علينا كتر من الذهب، كنت صغيرة ونروح نعمر الجرة من العين تاع الحومة، ونعرف بلي كل قطرة محسوبة. كان عيب كبير واحد يخلي الماء يسيل هكذاك برك. الماء اللي نغسلوا بيه القش ما يروحش في الواد الحار، هذاك نسقوا بيه شجرة الياسمين والحبق اللي في وسط الدار. واللي يبقى من ماء الوضوء يرشوا بيه قدام الباب باش يبرد الجو. جداتي كانت تقولنا 'التبذير خوه الشيطان والبركة تروح مع الماء المسرف'، تعلمنا القناعة من صغرنا، وعرفنا قيمة النعمة قبل ما تروح"[1].

تحوّل هذه الشهادة ممارسة "إعادة تدوير المياه" من مجرد سلوك بيئي إلى **اقتصاد أخلاقي**، حيث يرتبط الحفاظ على المورد بقيم دينية واجتماعية عميقة مثل "البركة" وتجنب "العيب"، مما يضمن استمرارية الممارسة عبر الضبط الاجتماعي وليس فقط عبر الحاجة المادية.

1

الوعي بالحفاظ على نظافة الأحياء والأزقة كان جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية في القصبة. كانت النساء تحديداً يقمن بتنظيف الأزقة المشتركة أمام المنازل بشكل دوري، حيث يُعتبر الحفاظ على نظافة الأماكن العامة دليلاً على احترام المجتمع وبيئته. كما كانت تجمع النفايات المنزلية في أماكن محددة وتستخدم بقايا الأطعمة كعلف للحيوانات أو كمخصب طبيعي للتربة.

تستحضر **الحاجة فاطمة** نفسها هذه الصورة الاجتماعية الحية بوضوح تام، قائلة: " كنا نوضوا الصباح بكري، قبل ما ينوضوا الرجال، وكل وحدة تخرج قدام بابها بالبالي والنشافة وشوية جافيل، وتسيق حتى توصل لجارتها. الزنيقة كانت تولي تشعل وتريح بالنظافة. ماكناش نستناو البلدية، كانت كل وحدة فينا تعتبر الزنيقة جزء من دارها، ونظافتها هي وجه العايلة، أما الزبل، حاشاكم، ماكاين حتى حاجة تترمى. قشور الخضرة للدجاج والأرانب اللي نربوهم فوق السطح، والخبز اليابس ما يترمش، يتلم ويتصدق. كانت الدنيا منظمة وكل شي في بلاصتو، النظافة كانت من الإيمان ومن احترام بعضنا لبعض".

توضح هذه الشهادة كيف تم طمس الحدود بين الفضاء الخاص (الدار) والفضاء العام (الزنيقة)، ليصبح الحي بأكمله امتدادًا للبيت. إن فعل التنظيف الجماعي لم يكن مجرد مهمة، بل كان طقسًا يوميًا يعيد إنتاج الروابط الاجتماعية ويؤكد على قيم المسؤولية المشتركة، في نظام بيئي متكامل قائم على مبدأ " لا شيء يُهدَر. "

إضافةً إلى ذلك، اعتمد سكان القصبة على مواد محلية وتقنيات تقليدية في بناء منازلهم، مما يقلل من التأثير البيئي للبناء الحديث. فالأبنية كانت تشيّد من مواد متوفرة محلياً، مثل الحجارة والطين، مما جعلها تتكيف مع مناخ المنطقة وتقلل من الحاجة إلى التدفئة أو التبريد. هذا البناء البيئي لم يكن فقط خياراً اقتصادياً، بل كان تعبيراً عن احترام الطبيعة وتجنب استنزاف موارد خارجية أو استخدام مواد قد تؤثر سلباً على البيئة.

إلى جانب الممارسات اليومية، كانت قصبة الجزائر تعرف بمجتمعها المتماسك الذي يبادر بتنظيم أشكال من الفعل الجماعي التطوعي لصيانة الممتلكات والموارد المشتركة، فيما يشبه نظام" **التويزة** " الحضري. فلم تكن الصيانة مسؤولية السلطة وحدها، بل كانت جزءًا من الوعي الجماعي بأهمية الحفاظ على الفضاء المشترك، هذه الروح التعاونية ليست مجرد رواية مثالية عن الماضي، بل

هي تجربة حقيقية عاشها السكان. يتذكر **عمي رشيد**، وهو بنّاء متقاعد أمضى شبابه في القصبة، هذه المبادرات بوضوح وفخر:

"ماكانش عندنا 'هادي تاع الدولة وهادي تاعنا'، كل شي كان تاعنا كامل. نتفكر مليح كي كانت عين الماء تاع الحومة تبدا تضعاف ولا تتوسخ، كان كبير الحومة ينادي للرجال، ويقول 'يا جماعة، العين راهي أمانة في رقبتنا، لازم نوقفو عليها'. كل واحد يجيب واش يقدر، اللي يجيب البالة، واللي يجيب الإسمنت، واللي عندو الصنعة في يدو يخدم. نهار كامل وحنا نحفرو ونقيو ونعاودو نبنيو، ونساوين يطيبولنا الطعام. في آخر النهار، كي يرجع الماء يجري صافي، كانت الفرحة ما تساعناش. كنا نحسوا بلي خدمنا حاجة لينا ولولادنا. حتى كي كانت دار تاع شيخ كبير ولا أرملة يطيح منها حيط، كنا نتلموا ونعاودو نبنيوهلها. كانت النية والبركة، وكنا نعرفوا بلي إذا ما وقفناش على حومتنا، ماكانش اللي يوقف عليها".

تكشف هذه الشهادة عن آليات" **الإدارة الذاتية للمواد**، "التي كان المجتمع يمارسها. فالفعل الجماعي لم يكن مجرد عمل تقني (تنظيف أو ترميم)، بل كان **طقسًا اجتماعيًا** يعزز الروابط، ويجدد الإحساس بالانتماء، ويرسخ المسؤولية المشتركة تجاه "الأمانة" التي يمثلها المكان. إنها تعبير عن رأسمال اجتماعي حي كان قادرًا على تعبئة أفراده للحفاظ على استدامة بيئتهم المعيشية بشكل مستقل وفعال.

كان سكان قصبة الجزائر يدركون جيداً أهمية الحفاظ على بيئتهم والاستفادة المثلى من مواردهم المحدودة. هذه الممارسات اليومية كانت جزءاً من هويتهم الثقافية، وشكّلت مثالاً على انسجام الإنسان مع بيئته وحرصه على استدامتها، مما يعد دليلاً على وعي بيئي عميق يمكن اعتباره نموذجاً للمجتمعات الحديثة في كيفية الحفاظ على الموارد الطبيعية واحترام البيئة.

سادسا: التحديات البيئية المعاصرة وتأثيرها على قصبة الجزائر: تأثير التوسع الحضري والتغيرات البيئية الحديثة

كما شملت الجهود إعادة تأهيل الموارد المائية، مثل العيون القديمة والآبار، التي كانت تشكل عنصرا حيويًا في الحياة اليومية لسكان القصبة. تتمثل هذه الجهود في تنظيف العيون وترميم قنوات المياه التقليدية، مع مراعاة توظيف تقنيات حديثة لضمان استدامتها في ظل تحديات العصر. وقد أكدت

الدراسات المحلية أهمية استعادة هذه الموارد ضمن خطط التنمية التي تأخذ في الاعتبار حماية الموارد البيئية والحد من التلوث المائي.

بالإضافة إلى ذلك، تمثل التوعية المجتمعية محوراً أساسيًا في الجهود المبذولة، حيث تنظم حملات وورش عمل لتعريف سكان القصبة بأهمية الحفاظ على البيئة والتراث المحلي. تهدف هذه الأنشطة إلى إشراك المجتمع المحلي وجعله جزءًا فاعلًا في عملية الحماية، مما يعزز الشعور بالمسؤولية تجاه هذا الإرث الحضاري. ويشير **عبد العزيز فاضلي** في كتابه التراث العمراني في الجزائر إلى أن إشراك السكان يعد عاملاً حاسمًا في نجاح استراتيجيات الحفاظ على التراث.

علاوة على ذلك، يعكس التعاون بين المؤسسات المحلية والدولية التزامًا وطنيًا بحماية القصبة، حيث تمت الاستعانة بخبرات عالمية لتطوير خطط تتعامل مع التحديات البيئية، بما في ذلك تأثير التوسع العمراني والتغيرات المناخية. هذه المبادرات تمثل نهجًا شاملاً يهدف إلى حماية الخصوصية الإيكولوجية للقصبة وضمان بقائها رمزاً للتاريخ والتراث في الجزائر.

تعتبر القصبة العاصمة التاريخية للجزائر كبلد وهي النواة الأولى لقيامها كدولة باعتبارها الشاهد التاريخي على مختلف الحضارات التي تعاقبت عليها فهي رمز للتراث العمراني و المعماري و الثقافي الذي طالما بقى شاهدا على تنوع الفكر والتجسيد والبناء للعمارة التقليدية من طرف العثمانيين الذين أبدعوا و تميزوا في إعطاء روح المدينة التي بقيت تصارع الزمن من اجل بقاء و استمرار قيامها، وهي كانت ولازالت تلعب دورا هاما في تنظيم المجال الحضري للعاصمة فهي بمثابة المحرك الأساسي و النواة المركزية لتركز أغلبية البني التحتية كالميناء و مختلف محطات النقل سواء البرية أو البحرية وحتى خطوط النقل القديمة بالإضافة إلى أهم محطة للنقل عبر المترو وهي الآن قيد الأشغال كل هذا يجعل منها مدينة لها تأثير مجالي على حساب المترو بول ويرجع ما يسمى اليوم بالقصبة إلى عهد الفينيقيين الذين استغلوا هذا الموقع لقابليته للتجارة الدولية فأسسوا مدينة سموها جزيرة النورس وذلك إشارة إلى وجود عدد من الجزر أمام ساحلها مستعملين اسما تغير إلى ايكوسيوم[1] ICOSIUM

[1]ذبيح نوال قلاب، سياسة الحفاظ على المدينة التاريخية في إطار التنمية المستدامة: قصبة الجزائر العاصمة نموذجا، مجلة آفاق للعلوم، المجلد2، العدد 6، 2017، ص55

القصبة ليست مجرد تجمع عمراني، بل هي شاهد حي على تفاعل الحضارات التي مرت على الجزائر، بداية من الفينيقيين الذين اختاروا موقعها بسبب قربه من البحر وامكانياته التجارية، إلى الرومان الذين طوروا بنيتها التحتية. العثمانيون أضافوا طابعاً معمارياً مميزاً يظهر في تصميم البيوت ذات الأفنية الداخلية والشوارع الضيقة المتعرجة، التي تعكس تناغماً بين احتياجات السكان والبيئة الطبيعية. هذا المزج بين البعد التاريخي والبيئي جعل القصبة محوراً حضرياً متجدداً ومستمراً، رغم التحديات الزمنية والحديثة. تميزت القصبة أيضاً بكونها مركزاً للحياة الاقتصادية والاجتماعية في العاصمة الجزائرية. الأسواق التقليدية التي كانت تعج بالحرفيين والتجار مازالت تحكي قصص الماضي، بينما تحافظ المساجد والزوايا على الروح الثقافية والدينية.

الموقع الاستراتيجي قرب الميناء جعل منها نقطة محورية لتبادل السلع والأفكار عبر البحر المتوسط، مما أسهم في تعزيز هويتها كمدينة عالمية في طابعها المحلي. استمرت القصبة رغم التغيرات، لتكون رمزاً للمقاومة الثقافية والمعمارية أمام الاستعمار الفرنسي، الذي حاول طمس هويتها لكن لم ينجح في القضاء على إرثها.

اليوم تواجه قصبة الجزائر مجموعة من التحديات البيئية المعاصرة التي باتت تهدد طابعها الأثري وبيئتها الفريدة، والتي تعد رمزاً تاريخيًا وحضاريًا للجزائر. أثر التوسع الحضري المتسارع على القصبة بشكل مباشر، حيث أدت التحولات السكانية والهجرة الداخلية إلى الضغط على البنية التحتية وإلى تزايد الكثافة السكانية داخل المدينة. هذا التوسع الحضري لم يكن مدروسًا في كثير من الأحيان، مما أدى إلى تدهور بعض المباني القديمة ونقص في خدمات الصيانة الضرورية، الأمر الذي يهدد بجعلها عرضة للانهيار ويضعف من تماسكها الاجتماعي والبيئي.



المصدر: موقع العربي الجديد

يعد التلوث من أبرز التحديات التي تواجه القصبة، فقد تزايدت معدلات التلوث الجوي نتيجة لازدحام السيارات والمركبات في المناطق المحيطة بالمدينة، إضافةً إلى تراكم النفايات وغياب أساليب إعادة التدوير أو التخلص الآمن منها، مما ينعكس سلبًا على صحة السكان ونوعية الحياة. كما أدى نقص الخدمات البيئية إلى تراكم النفايات في الأزقة والشوارع الضيقة، مما يشوّه جمالها الطبيعي ويؤثر على استدامة بيئتها.



صورة توضح حجم القمامة في حي القصبة العتيق



صورة توضح اهتراء جدارن بعض مبان حي القصبة

إضافة إلى ذلك، تواجه القصبة آثار التغيرات المناخية التي تشمل ارتفاع درجات الحرارة وظواهر الطقس القاسية، كالفيضانات المفاجئة التي تعاني منها القصبة أحيانًا. تتسبب هذه الظواهر في تآكل المباني القديمة وتدهور المواد المستخدمة في بنائها، مما يعرضها للتلف السريع ويزيد من هشاشتها. إن ظاهرة الاحتباس الحراري وارتفاع مستوى سطح البحر قد يزيدان من الرطوبة في البيئة المحيطة بالقصبة، مما يؤدي إلى تآكل الجدران وتلف الزخارف المعمارية التي تميزها. في مواجهة هذه التحديات، يصبح الحفاظ على قصبة الجزائر مطلبًا ضروريًا ليس فقط للحفاظ على التراث المادي والمعماري للمدينة، بل أيضًا للحفاظ على موروثها الثقافي والاجتماعي. تحتاج القصبة إلى استراتيجيات مستدامة لإدارة الموارد البيئية والحد من التلوث وتطوير البنية التحتية بما يحترم طابعها الأثري، مع التركيز على توعية المجتمع المحلي بأهمية الحفاظ على هذه المنطقة التاريخية.

سابعا: الجهود والمبادرات لحماية الخصوصية الإيكولوجية للقصبة: استعراض المبادرات المحلية والوطنية

شيدت قصبة الجزائر، باعتبارها رمزاً وطنيًا للتراث الإنساني والتاريخي، جهودًا متعددة لحماية خصوصيتها الإيكولوجية والمحافظة على طابعها التاريخي في مواجهة التغيرات البيئية السلبية. تضافرت جهود المجتمع المحلي، المؤسسات الوطنية، والمنظمات غير الحكومية لخلق مبادرات تسعى لصون التراث البيئي والتاريخي للقصبة، بهدف الحفاظ على هذا المعلم المميز للأجيال القادمة.

1. المبادرات المحلية

المبادرات المحلية التي تبناها سكان القصبة أنفسهم تعد من أبرز أوجه الجهود المبذولة للحفاظ على بيئتها الخاصة. يسهم السكان في دعم مشاريع بيئية مجتمعية مثل تنظيم حملات تنظيف دورية في الشوارع والأزقة، والعناية بالمساحات الخضراء المتبقية، وإطلاق مبادرات توعوية تهدف إلى تعزيز قيمة التراث الطبيعي لدى الأجيال الشابة. كما عمل بعض سكان القصبة على تأسيس ورش عمل ومبادرات ثقافية تهدف إلى إحياء الوعي البيئي وتشجيع ممارسات استدامة الموارد المحلية.



2. المبادرات الوطنية

على الصعيد الوطني، قامت الحكومة الجزائرية بإطلاق عدة برامج ترمي إلى حماية التراث البيئي والتاريخي للقصبة، سواء من خلال الدعم المالي أو التوجيهات الرسمية لحمايتها. يشمل هذا تنفيذ مشروع إعادة تأهيل البنية التحتية للمدينة مع مراعاة الحفاظ على طابعها المعماري والبيئي الفريد. وقد عملت وازرة الثقافة والفنون، بالتعاون مع وازرة البيئة، على تطوير خطط لإعادة تأهيل المباني المتدهورة وتعزيز البنية التحتية، مع ضمان تطبيق معايير صديقة للبيئة تسهم في الحفاظ على طبيعة القصبة البيئية.



صورة لعملية ترميم قصر بحي القصبة

"والجزائر على غرار غيرها من الدول وفي ضوء الاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية التراث الثقافي بادرت منذ استقلالها إلى إيجاد منظومة قانونية تطورت مع الوقت، حيث كان الأمر رقم 67– 281 المؤرخ في 20 ديسمبر 1967، المتعلق بالحفريات وحماية الأماكن والآثار التاريخية الطبيعية من أولى النصوص القانونية في هذا الشأن، لكن سرعان ما تبلورت الفكرة واتضحت الصورة أكثر ليصدر القانون رقم 98–04 المؤرخ في 20 صفر عام 1419 الموافق 15 يونيو سنة 1998 يتعلق بحماية التراث

الثقافي، وما انبثق عنه من نصوص تطبيقية، تعالج مختلف التفاصيل التي تخص حماية التراث وتسييره من جميع النواحي[1]"

3. المبادرات العالمية والتعاون الدولي

حظيت القصبة باعتراف عالمي كتراث إنساني عالمي من قِبَل منظمة اليونسكو، مما دفعها إلى الحصول على دعم دولي من مؤسسات ثقافية وبيئية. هذا الدعم يتضمن تمويل مشاريع صون التراث وإطلاق برامج تدريبية للسكان المحليين وللمختصين على حد سواء، لضمان فهم سليم للسبل الكفيلة بالحفاظ على القصبة، معتمدين على أفضل الممارسات البيئية العالمية. كما تقدم بعض الدول والمنظمات الدولية خبراتها في هذا المجال من خلال دورات تدريبية وورشات تهدف إلى نقل الخبرات في مجال ترميم المدن القديمة والحفاظ على البيئة.

في هذا الصدد، توضح لنا **الدكتورة ليلى**، وهي أستاذة جامعية وخبيرة في إدارة التراث الثقافي شاركت في إعداد العديد من التقارير الفنية المقدمة لليونسكو، أبعاد هذا التعاون الدولي قائلة:

"تصنيف اليونسكو كان نقطة تحول حاسمة، ليس فقط رمزيًا، بل لأنه وضع القصبة على الخريطة العالمية للحفاظ على التراث، وفتح الباب أمام دعم دولي لم نكن لنحصل عليه لولاه. لكن يجب أن نكون واضحين، الدعم لم يكن دائمًا شيكًا على بياض. الأهم من التمويل المباشر كان الدعم المعرفي والتقني. أتذكر ورشات عمل مع خبراء إيطاليين متخصصين في ترميم الجص القديم، ودورات مع مخططين ألمان حول إدارة المياه في الأنسجة الحضرية التاريخية. هذه البرامج كانت تهدف إلى نقل الخبرات وتكوين جيل جديد من الحرفيين والمهندسين الجزائريين القادرين على التعامل مع تراثهم وفق أفضل المعايير الدولية. التحدي الحقيقي كان ولا يزال في كيفية تكييف هذه الممارسات العالمية مع الخصوصية المحلية للقصبة، وفي ضمان استدامة هذه المشاريع وتوطين الخبرة بشكل كامل".

[1] مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، **التراث الثقافي بالجزائر : المنظومة القانونيّة**، عن المولع الالكتروني https://turath.crasc.dz/index.php

تكشف هذه الشهادة المتخصصة أن الدعم الدولي ليس مجرد مساعدة مالية، بل هو عملية معقدة من" **نقل المعرفة** "و"بناء القدرات"، وهي تبرز التوتر الإيجابي بين المعايير الدولية للحفاظ على التراث والضرورة الملحة لتكييفها مع السياق الاجتماعي والثقافي والبيئي المحلي.

تمثل الجهود المبذولة لحماية الخصوصية الإيكولوجية لقصبة الجزائر جزءًا لا يتجزأ من الحفاظ على هذا المعلم التراثي الفريد، الذي يربط بين الماضي العريق والحاضر المتجدد. تشمل هذه الجهود مبادرات واسعة النطاق تهدف إلى صون النسيج العمراني واعادة تأهيل الموارد الطبيعية التي ساهمت عبر القرون في تشكيل هوية القصبة. ومن بين أبرز هذه المبادرات مشروعات ترميم المباني التاريخية، التي تركز على الحفاظ على البنية التقليدية، بما في ذلك الأزقة الضيقة والأسطح المصممة لتحسين التهوية الطبيعية، إلى جانب إعادة تأهيل المساجد والحمامات التي تشكل جزءًا من الطابع المميز للقصبة. ووفقًا لما ورد في وثيقة "سياسة الحفاظ على المدينة التاريخية[1]"، فإن هذه العمليات تنفذ برؤية تجمع بين الأصالة واحترام المعايير الحديثة، لضمان التوازن بين الحفاظ على الطابع التاريخي وتنمية المنطقة بشكل مستدام.

كما تعتبر قصبة الجزائر مثالًا حيًا على أهمية الحفاظ على التراث الثقافي، وهو ما أكده القانون 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي. فوفقًا للمادة 41 من هذا القانون، تعرَّف القطاعات المحفوظة بأنها المجموعات العقارية الحضرية أو الريفية التي تتميز بتجانسها ووحدتها المعمارية والجمالية، وتحمل أهمية تاريخية أو معمارية أو فنية أو تقليدية تستدعي الحماية والترميم والتثمين[2].

ثامنا. جوانب أهمية الحفاظ على قصبة الجزائر:

1. القيمة التاريخية:

تمثل القصبة شاهدًا نابضًا على مسار تاريخي طويل مرّت به الجزائر، وهي جزء أصيل من الذاكرة الوطنية والمخيال الجمعي، بما تحتويه من آثار وسجلات عمرانية واجتماعية تعكس تعاقب

[1] نوال قلاب ذبيح، مرجع سابق، ص 58.

[2] الجريدة الرسمية، **القانون رقم 98-24 المؤرخ في 02 صفر عام 2429 الموافق 25 يونيو سنة 1998**، يتعلق بحماية التراث الثقافي، العدد 44.

الحضارات. وهذا يتوافق مع ما ينصّ عليه **الدستور الجزائري** في مادته **الثالثة والأربعين (43)** التي تنصّ صراحة على:

"تحمي الدولة التراث الثقافي الوطني المادي وغير المادي، وتعمل على الحفاظ عليه وتثمينه"[3].

2. القيمة المعمارية والجمالية:

تتميز القصبة بنمط معماري فريد يمزج بين البصمة العثمانية وخصوصيات العمران المحلي، ويبرز تراكماً جمالياً وثقافياً استثنائياً. وهذا الانفراد المعماري يجد صداه في **قانون التهيئة والتعمير**، الذي يؤكد في مادته **السابعة عشرة (17)** على ضرورة حماية المواقع والمعالم العمرانية ذات القيمة التراثية ضمن سياسة التهيئة[1].

3. البعد الاجتماعي والثقافي:

تُعدّ القصبة مركزًا للهوية الثقافية ومجالاً اجتماعياً حياً يحمل ذاكرة الجماعة وممارساتها اليومية، إذ تختزن في أزقتها عاداتٍ وتقاليد وأنماط عيش متوارثة. وهذا يتماشى مع تعريف **القانون 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي**، الذي تورد مادته **الثانية (02)** ما يلي:

"يُعدّ التراث الثقافي كلّ ما خلّفته الحضارات المتعاقبة من ممتلكات ثقافية مادية وغير مادية..."[2].

4. الحماية القانونية:

وفقًا لقوانين متعددة كقانون الولاية والبلدية، هناك التزام مؤسسي بحماية التراث الثقافي. فالمجالس البلدية والولائية مكلفة بالمحافظة على التراث وتطوير أعمال ترميمه وتثمينه.

---

[3] الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الدستور الجزائري 2020، المادة 76، الجريدة الرسمية، العدد 82، 30 ديسمبر 2020.

[1] الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، القانون رقم 90-29 المتعلق بالتهيئة والتعمير، المادة 17، الجريدة الرسمية، العدد 52، 19 ديسمبر 1990.

[2] الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، القانون رقم 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي، المادة 02، الجريدة الرسمية، العدد 44، 15 يوليو 1998.

وقد وضع المشرع الجزائري عقوبات رادعة وصارمة في قانون العقوبات لحماية الممتلكات الثقافية من الإتلاف أو التخريب.

باختصار، الحفاظ على قصبة الجزائر ليس مجرد عمل ترميمي، بل هو واجب وطني وحضاري يحافظ على الهوية والذاكرة الجماعية للشعب الجزائري.

إذا تتميز قصبة الجزائر بخصوصيتها الإيكولوجية التي تجعلها نموذجًا فريدًا يعكس التفاعل المتناغم بين الطبيعة والتراث الثقافي. هذا التفاعل يتجلى في تصميمها المعماري الذي تأثر بالموقع الجغرافي والمناخ المتوسط للمدينة، فقد أسهم المناخ الحار والجاف نسبيًا في تطوير معمار يعتمد على الفناء الداخلي والأسقف المرتفعة لتوفير الراحة الحرارية، هذا التكيف يعكس فهمًا عميقًا للبيئة الطبيعية وقدرة السكان على استغلالها بشكل مستدام.

الموارد المائية شكلت عنصراً محوريًا في حياة سكان القصبة ونموها عبر التاريخ؛ كانت العيون والآبار التاريخية مصدراً أساسيًا لتأمين المياه للاستخدام اليومي وللأنشطة الاقتصادية والحرف التقليدية، الجانب الحيوي من التراث يعبر عن العلاقة الوثيقة بين سكان القصبة وبيئتهم، ما يجعل هذه الموارد جزءًا لا يتجزأ من هويتها الثقافية.

على مستوى التنظيم العمراني، برزت الشوارع الضيقة والمنازل المتلاصقة كإحدى الخصوصيات البيئية التي تميز القصبة، حيث صُممت بشكل يحقق التكيف مع المناخ المحلي ويوفر توازنًا حراريًا يحمي السكان من الظروف المناخية القاسية، هذا التخطيط العمراني يعكس نهجًا أصيلًا في تحقيق الاستدامة البيئية على مر العصور.

إضافة إلى ذلك، أثرت البيئة الطبيعية في تشكيل الأنشطة الاقتصادية والحياة الاجتماعية لسكان القصبة، فقد استندت الحرف التقليدية والأسواق الشعبية إلى الموارد المحلية، مما أوجد علاقة وثيقة بين البيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية، كما أن الممارسات اليومية للسكان، مثل إعادة استخدام الموارد والحفاظ على المساحات الخضراء، كانت بمثابة نموذج لتراث بيئي يعكس وعيًا عميقًا بأهمية الاستدامة.

خلاصة الفصل:

في العصر الحديث، تواجه قصبة الجزائر تحديات بيئية كبيرة نتيجة التوسع الحضري، التلوث، والاحتباس الحراري، هذه التغيرات تهدد الخصوصية الإيكولوجية للقصبة وتضعها أمام مخاطر حقيقية، ما يفرض ضرورة تعزيز الجهود لحماية هذا التراث الفريد.

وعليه، تبرز الجهود المحلية والوطنية والدولية التي تسعى إلى صون الخصوصية الإيكولوجية للقصبة، سواء من خلال مبادرات السكان أو البرامج الحكومية ومشاريع اليونسكو، هذه الجهود تؤكد أهمية الحفاظ على قصبة الجزائر كتراث بيئي وثقافي يعكس هوية البلاد ويشكل جزءًا من تاريخها الحي.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: التراث المادي لقصبة الجزائر: بين الحضور والاندثار

تمهيد:

تشكل قصبة الجزائر، تلك الحضارة الحية المتراكمة على مدى قرون، نموذجاً معمارياً فريداً يجسد تفاعل الإنسان مع بيئته وتراثه الثقافي. في هذا الفصل، سنغوص في أعماق البنية العمرانية لهذه المدينة التاريخية لنستكشف كيف شكّل التنظيم العمراني في القصبة ليس فقط مساحات للسكن وإنما كان وسيلة لبناء هوية جماعية تعكس التلاقي بين التاريخ والحداثة. ومن منظور أنثروبولوجي يظهر العمران هنا كمادة ثقافية تتشكل وتتغير بتفاعل السكان مع متطلبات البيئة وظروف العيش، مما يجعل من القصبة معبراً عن قيم التضامن والخصوصية والذكريات التاريخية التي تستمر في رسم ملامح الحياة اليومية.

بدأت رحلة العمران في القصبة منذ نشأتها التاريخية، حيث أسسها الفينيقيون كمركز تجاري استراتيجي، ثم أعاد الرومان تنظيمها بتخطيط حضري دقيق، ليمر بعدها بتأثيرات الزيريين والحفصيين والموريسكيين والعثمانيين الذين أدخلوا عناصر دفاعية وإدارية متطورة، هذه الطبقات التاريخية المترابطة لم تُضفِ على القصبة فحسب طابعاً معمارياً متنوعاً، بل أصبحت بمثابة سجل حيّ للتاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر، تعكس كل فترة زمنية بصمتها الخاصة في شكل الأبنية وتوزيع الفضاءات العامة والخاصة. من هنا، نستعرض في هذا الفصل التراث اللامادي لقصبة الجزائر وخصائص المعمارية والوظيفية، بدءاً من البنية التقليدية للمنازل التي تعتمد على الأفنية الداخلية والساحات المفتوحة، وصولاً إلى الشوارع والأزقة التي لا توفر فقط حركة المرور بل تخلق فضاءً للتواصل الاجتماعي يربط بين جيران متجاورين في بيئة مليئة بالتحديات المناخية، كما سنسلط الضوء على المباني العامة؛ من المساجد والزوايا التي تحافظ على الروح الدينية والثقافية، إلى القصور والقصور الحكومية التي ظلت رمزًا للقوة والإدارة عبر العصور.

إن هذا الجزء لا تقتصر على استعراض المكونات العمرانية فحسب، بل تتعمق في تحليل العلاقة بين الفضاء العمراني والبيئة المحيطة، وكيف ساهمت هذه العلاقة في تشكيل ملامح الهوية الوطنية، فالعمران في القصبة هو أكثر من مجرد تركيب حجري؛ إنه تعبير عن التفاعل الديناميكي بين الإنسان والمكان، وعن قدرة المجتمع على التكيف وإعادة تشكيل ذاته في مواجهة التغيرات الاقتصادية والسياسية والبيئية.

فمقاربة التراث المادي في قصبة الجزائر لا تندرج فقط ضمن سرد تاريخي للعمارة أو وصف جغرافي للعمران، بل هي قراءة أنثروبولوجية للفضاء بوصفه حاملاً للمعنى، ووعاءً لذاكرة جماعية متوارثة، تتقاطع فيها البنية المادية مع البنية الرمزية للمجتمع المحلي، فالقصبة بما تحتويه من عناصر معمارية كالأزقة الضيقة، والمساكن المتراصة، والأبواب الخشبية المنقوشة، والحمامات، والزوايا، ليست مجرد فضاء مادي يُرى، بل هي نتاج ثقافي متحول، يعبّر عن منظومة قيمية عاشت وتفاعلت عبر القرون. التراث المادي في قصبة الجزائر ليس جامدًا أو محايدًا؛ إنه خطاب بصري ووجودي يختزن طقوس العيش اليومي، ويعبّر عن الاستمرارية الزمنية لجماعةٍ بشرية تنسج هويتها في تفاعل دائم مع محيطها المادي. وعليه، فإن هذا الفصل يسعى إلى تحليل مكونات هذا التراث من منظور أنثروبولوجي يربط بين المادة والمعنى، بين العمران والإنسان، بين الفضاء وذاكرة الجماعة، في محاولة لفهم كيف يتحول الحجر إلى سرد، وكيف يصبح الجدار وثيقةً ثقافية صامتة تنطق بلسان ساكنيها.

أولا: العمران في قصبة الجزائر

قصبة الجزائر بدأت كمستوطنة صغيرة للصيادين والتجار في القرن الخامس عشر، على أنقاض مدينة رومانية قديمة تُعرف باسم "جول"، وبحلول القرن السادس عشر أصبحت القصبة المركز الرئيسي للسلطة والحكم في المنطقة تحت الحكم العثماني. خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، شهدت القصبة عصرًا ذهبيًا من التوسع والازدهار، تم بناء العديد من القلاع والحصون والمساجد والأسواق التقليدية، مما أدى إلى تشكيل النسيج الحضري المميز للقصبة، وكان هذا النمو مرتبطًا بازدهار التجارة والحِرَف اليدوية في المنطقة.

لعبت الحضارات المختلفة التي مرت بالمنطقة دورًا مهمًا في تشكيل طابع العمارة في قصبة الجزائر، فقد تأثرت بشكل كبير بالطراز المعماري الإسلامي والعربي، والذي ترك بصماته الواضحة في تصميم المنازل ذات الأفنية الداخلية والأسطح المسطحة، فقد برزت البصمات المعمارية الإسلامية في قصبة الجزائر، فالمنازل ذات الأفنية الداخلية والأسطح المسطحة هي سمة أساسية في العمارة الإسلامية، حيث تعكس القيم الثقافية للخصوصية والانطواء على الذات، على سبيل المثال كان تصميم المنازل بأفنية داخلية يسمح بالفصل بين الفضاءات الخاصة والعامة وينسجم مع التقاليد الإسلامية، هذه الأفنية الداخلية كانت تشكل النواة المركزية للمنزل، حيث كانت تفصل بين المناطق الخاصة والعامة، من الناحية الثقافية كان هذا التصميم ينسجم بشكل كبير مع القيم الإسلامية للخصوصية والحفاظ على الحياة

الأسرية، خاصةً فيما يتعلق بالنساء، فالفناء الداخلي كان يشكل ملاذًا آمنًا للنشاطات النسائية والحياة الأسرية البعيدة عن أعين الغرباء، كما كان الفناء الداخلي يوفر إضاءة وتهوية طبيعية للمنزل، بالإضافة إلى توفير مساحات للتفاعل الاجتماعي والأنشطة اليومية للأسرة، وقد ساهم هذا التصميم في إرساء نمط حياة اجتماعية قوي داخل المجتمع المحلي. . .

أما الأسطح المسطحة التي تميز عمارة قصبة الجزائر هي أيضًا ميزة معمارية إسلامية بارزة، فهذه الأسطح كانت تشكل امتدادًا طبيعيًا للفضاءات المعيشية للمنازل، في الثقافة الإسلامية كان السطح المسطح يُستخدم لأغراض متنوعة، مثل التهوية والتبريد في فصل الصيف وكذلك للتفاعل الاجتماعي والاحتفالات العائلية، كما كان يُستخدم أحيانًا للصلاة أو للنوم في الليالي الحارة؛ حيث يستمتع أهالي القصبة بلحظات الهدوء والخصوصية، بعيدًا عن ضجيج الشوارع الضيقة أسفلهم، أما في المساء تتحول هذه الأسطح إلى مسرح حي للتفاعل الاجتماعي، فالنساء يجتمعن هناك للسمر والمحادثات الممتعة، بينما يشعل الرجال نيران الشواء ويتبادلون أحاديث الحياة اليومية، وفي المناسبات الاجتماعية والأعياد الدينية، تصبح الأسطح المسطحة ساحات مفتوحة للاحتفالات العائلية، حيث تنتشر البساط والوسائد ويتجمع الأصدقاء والجيران لتبادل الأفراح والأحاديث.

يشيع على هذه الأسطح جو من الراحة والطمأنينة والانتماء الجماعي، فهي ليست مجرد أسطح عادية، بل هي امتداد عضوي لحياة السكان وتفاعلاتهم الاجتماعية اليومية، إنها الساحات العلوية المفتوحة لهذه المدينة المغلقة والمنطوية على ذاتها، حيث يجد السكان مساحة للتنفس والانفتاح على محيطهم الاجتماعي.

علاوة على ذلك، ظهرت في قصبة الجزائر العديد من المباني ذات الطابع المعماري الإسلامي المميز، كالمساجد والمدارس الدينية (الزوايا)، والتي تتميز بعناصر كالقباب والأقواس والزخارف الهندسية.

بالإضافة إلى التأثير الإسلامي، شهدت القصبة تأثيرات من الحضارة العربية، والتي ترك بصماتها على عناصر مثل الأروقة والحدائق الداخلية والنوافذ المشبكة، وعلى الرغم من التغييرات التي طرأت في العمارة خلال فترة الاستعمار الفرنسي، إلا أن قصبة الجزائر ما زالت تحتفظ بالكثير من السمات المعمارية الإسلامية والعربية التي تعكس هويتها الثقافية الأصيلة.

كما شهدت القصبة تأثيرات من الحكم العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث ظهرت العديد من المباني ذات الطابع العثماني المميز، مثل القلاع والحصون والمساجد، وبعد الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر، طرأت بعض التغييرات على التصميم المعماري للقصبة تحت التأثير الأوروبي، إلا أنها ما زالت تحتفظ بالكثير من سماتها التقليدية.

1. أهمية العمران كعنصر أساسي يعكس الهوية التاريخية والثقافية

يُعد العمران أحد أهم مكونات الحضارات الإنسانية، فهو لا يمثل مجرد تجمعات سكانية أو بنايات مصممة، بل يعكس روح الزمن الذي نشأ فيه وثقافة المجتمع الذي بناه. عبر التاريخ، ارتبط العمران بالهوية الثقافية للمجتمعات، حيث جسّد قيمها ومعتقداتها، وأصبح مرآة تعكس أسلوب حياتها وتطورها عبر العصور.

في مختلف الحضارات، كانت العمارة والتخطيط العمراني وسيلة لتعريف الذات، ليس فقط للمجتمعات المحلية، ولكن أيضاً للعالم الخارجي. فقد عبر المصريون القدماء، على سبيل المثال، عن عظمة حضارتهم من خلال بناء الأهرامات التي لم تكن مجرد مقابر، بل رمزاً للأبدية والقوة. وبالمثل، تركت الحضارة الإسلامية بصمتها العمرانية المميزة من خلال المساجد والقلاع، التي عكست التزامها بالروحانية والجمال.

تتميز الخصوصية العمرانية بقدرتها على نقل التاريخ الحي. عندما ننظر إلى مدن مثل روما، فاس، أو قصبة الجزائر، نرى أن العمران فيها لا يعبر فقط عن حقبة زمنية معينة، بل يروي قصص التفاعل بين الإنسان وبيئته. الشوارع الضيقة، الأحجار المستخدمة في البناء، وحتى النقوش على الجدران، هي شواهد حية على مراحل تاريخية مضت لكنها ما زالت تؤثر على الهوية الحاضرة.

في السياق الجزائري، يُعد العمران التقليدي للقصبة نموذجاً بارزاً يعكس هوية البلد التاريخية، فقد صممت بيوتها بأسلوب يتناسب مع المناخ المحلي ويوفر الخصوصية الاجتماعية، مما يجسد التفاعل بين الثقافة والبيئة، هذا التوازن بين العناصر البيئية والاجتماعية يعدّ درساً يمكن استخلاصه لفهم أهمية التراث العمراني في تحديد الهوية الوطنية.

العمران لا يقتصر دوره فقط على الماضي، بل يلعب دوراً محورياً في تشكيل الهوية الثقافية الحاضرة. المدن الحديثة التي تسعى للحفاظ على طابعها التاريخي مثل غرناطة في إسبانيا والمدينة

القديمة في تونس، هي أمثلة حية على كيفية الحفاظ على الإرث الثقافي عبر الزمن. إذ يشكل هذا المزج بين الماضي والحاضر قوة في التعبير عن الشخصية الثقافية للمجتمعات.

إضافة إلى ذلك، يشكل العمران أحد أدوات الحوار الثقافي بين الشعوب، فبفضل المعمار الفريد الذي تحمله بعض المدن، يمكن أن تتبادل الثقافات الأفكار والقيم، مما يعزز الفهم المتبادل. قصبة الجزائر، على سبيل المثال، ليست فقط رمزاً جزائرياً، بل إرثاً إنسانياً مدرجاً في قائمة التراث العالمي، ما يجعلها جزءاً من ذاكرة الإنسانية الجماعية، ومع ذلك تواجه الهوية العمرانية العديد من التحديات، أبرزها زحف الحداثة والعولمة، ففي حين أن التطور الاقتصادي ضروري، إلا أن التخلي عن الخصوصية المعمارية لصالح الأنماط العالمية يُفقد المجتمعات جزءاً من هويتها. من هنا، تظهر الحاجة إلى موازنة بين التطوير الحديث والحفاظ على التراث.

الجهود المبذولة للحفاظ على العمران التقليدي ليست فقط محاولات لحماية المباني، بل هي جهود لحماية روح المجتمع نفسه، فالعمران يمثل وسيلة اتصال بين الأجيال، حيث تنقل من خلاله قيم الماضي وتجارب الحياة، وبالتالي فإن الحفاظ على هذه الذاكرة الملموسة يعد مسؤولية جماعية. يمكن القول إن العمران يعبر عن ثقافة وهوية المجتمعات بطريقة لا يمكن أن تنقلها الكلمات وحدها، إنه ترجمة ملموسة لقيم المجتمعات وتاريخها وتطلعاتها، ومن خلال فهمنا لدوره الأساسي، يمكننا الحفاظ على تراثنا الثقافي وتطويره بطريقة تعزز هويتنا الوطنية وتثريها.

2. التنظيم العمراني للقصبة وعلاقته ببيئتها وثقافتها

يأخذ التنظيم العمراني لقصبة الجزائر طابعًا عضويًا نابضًا، كأن المدينة تنمو من داخلها مثل كائن حيّ يستجيب لتضاريسه وثقافته معًا. فالعمران هنا ليس مجرد هندسة، بل هو **لغة اجتماعية** تُكتب بالحجر وتُقرأ عبر الأزقة، تُبرز كيف استطاع الإنسان أن يحوّل الانحدارات الحادة للهضبة إلى شبكة معمارية مترابطة، تتكامل فيها البيوت المتلاصقة مع الممرات المتعرجة والفضاءات الداخلية التي تضمن الخصوصية والانفتاح في آن واحد[1].

---

[1] فوزي بودقة، وجه مدينة الجزائر وجوانب من مسارها العمراني، إنسانيات / Insaniyat، العدد 44–45، 2009، ص 43–60.

هذا التشكل العمراني لم ينشأ اعتباطًا؛ بل كان انعكاسًا مباشرًا لقيم الجماعة: التضامن، التستر، القداسة المكانية، وإيقاع الحياة اليومية، فالفناء الداخلي ليس عنصرًا معماريًا فحسب، بل **فضاء اجتماعي** تتحرك فيه الحياة الأسرية، وتتشكل فيه ذاكرة البيت والعائلة. أما الأزقة الضيقة فكانت بمثابة امتداد للبيت، تُستخدم للتواصل اليومي، وتفعيل الروابط الاجتماعية، وتبادل المعارف والطقوس.

وتشير دراسة **ملاس حسيبة ومنكول فاطمة (2023)** إلى أنّ البنية العمرانية للقصبة ليست فقط استجابة وظيفية للبيئة، بل هي أيضًا تجسيد لنظام قيمي وديني واجتماعي عميق، حيث تتحول العمارة إلى حامل للمعنى، ووسيط ثقافي ينقل روح المجتمع عبر الزمن. فتنظيم الفضاءات المغلقة وشبه المفتوحة يعكس دقّة التوازن بين الفضاء الخاص والفضاء الجماعي، وهو ما يجعل القصبة مثالاً فريدًا للمدينة العربية الإسلامية التي يتقاطع فيها المقدّس واليومي، الفردي والجماعي، والعماري والاجتماعي[2].

هكذا تتجلى القصبة كنسيج حيّ ينهض على مبدأ الانسجام بين الإنسان وبيئته، بين ما هو مادي وما هو رمزي، لتغدو نموذجًا حضريًا يحمل في تكوينه خلاصة ذاكرة مدينةٍ شكّلتها القرون، وأعادت تشكيلها الثقافة المحلية عبر أجيال متعاقبة.

3. العلاقة مع البيئة الطبيعية

كان الموقع الجغرافي للقصبة عاملاً حاسماً في تصميمها العمراني؛ بُنيت المدينة على تل يطل على البحر المتوسط، مما أتاح حماية طبيعية من الغزاة وسهولة التواصل مع العالم الخارجي عبر الموانئ. استفاد المعماريون من التضاريس المرتفعة لتصميم أزقة ضيقة متعرجة تساهم في تقليل تأثير الرياح الحارة والحفاظ على برودة المباني خلال الصيف، كما استُخدمت مواد بناء محلية مثل الحجر والطين، مما يجعل المباني عازلة للحرارة ومنسجمة مع البيئة المحيطة، فالتنظيم العمراني للقصبة يُظهر بوضوح التأثير الثقافي الإسلامي، حيث تمتاز المنازل بتصاميم توفر الخصوصية من خلال الفناء الداخلي والنوافذ الصغيرة المطلة على الشوارع، هذه الخصوصية تُجسّد القيم الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري، الذي يُولي أهمية كبيرة للعائلة والحياة الخاصة، كما أن انتشار المساجد والزوايا في المدينة يعكس الهوية الدينية للسكان، مما يجعل العمارة الدينية جزءاً لا يتجزأ من التنظيم العمراني.

---

[2] ملاس، حسيبة؛ منكول، فاطمة، مرجع سابق

الأزقة الضيقة والمتشابكة ليست فقط تصميماً عملياً، بل هي جزء من الهوية الثقافية للقصبة، فقد ساعد هذا التنظيم على تعزيز العلاقات الاجتماعية بين السكان، حيث أن قرب البيوت من بعضها يشجع على التفاعل اليومي، بالإضافة إلى ذلك كان للأسواق التقليدية دور رئيسي في الاقتصاد المحلي وفي نقل التراث الثقافي من جيل إلى جيل، كانت الأسواق تُنظم بحسب الحِرف، مثل: سوق السمانين، سوق السمارين، سوق السفارين، سوق التكير، سوق الخراطين

كما تُظهر القصبة نظاماً بيئياً حضرياً مستداماً، حيث كانت مصادر المياه تُدار بعناية من خلال العيون والآبار التي وُزّعت بشكل استراتيجي لخدمة السكان، كما أن تصميم الشوارع والمباني يساعد على تقليل استهلاك الطاقة من خلال توفير التهوية الطبيعية والإضاءة، ورغم هذا التاريخ الغني، تواجه القصبة اليوم تحديات بيئية وثقافية، منها التلوث الحضري والتوسع العمراني الذي يهدد الهوية التقليدية للمدينة، ومع ذلك فإن جهود الترميم والمحافظة على التراث تسعى إلى استعادة التوازن بين الحداثة وحماية الطابع الفريد للمدينة.

ثانيا: الحضارات التي أثّرت في عمران القصبة

القصبة، هذه التحفة العمرانية في قلب الجزائر العاصمة، ليست مجرد بناء حجري أو تجمع حضري عادي، بل هي طبقات من الزمن المتراكب، حيث تجتمع شواهد حضارات متعددة تركت بصماتها في تصميمها وتخطيطها. من الفينيقيين إلى الرومان ثم العثمانيين، تعكس القصبة امتزاجاً فريداً بين الأبعاد المكانية والتاريخية والثقافية التي صاغت هويتها الحالية.

1. الفينيقيون: جذور التجارة البحرية وبداية العمران

تُعَدّ الفترة الفينيقية أولى المراحل التي شهدت نشأة قصبة الجزائر (المعروفة حينها بـ "إيكوسيوم" *ICOSIUM* وكانت مدينة ساحلية صغيرة تأسست في القرن السادس قبل الميلاد. تم اختيار هذا الموقع من قِبَل الفينيقيين لاعتبارات جيواستراتيجية وتجارية، حيث مثّل منطقة انتقالية مثالية بين الطرق التجارية في البحر المتوسط، خاصة تلك الممتدة بين المدن الفينيقية الكبرى مثل **صور وصيدا** في شرق البحر المتوسط وقرطاج في غربه.

من منظور الأنثروبولوجيا البيئية، كان موقع "إيكوسيوم" اختياراً ذكياً ومقصوداً، إذ يتميز بواجهة بحرية محمية من الرياح بفضل وجود سلسلة من الجزر الصغيرة قبالة الساحل، والتي استخدمت كموانئ

طبيعية للسفن. كما ساعدت طبيعة الأرض المرتفعة نسبياً على توفير رؤية استراتيجية للساحل والمناطق المحيطة. هذا التناغم بين الطبيعة والموقع مكّن الفينيقيين من استغلال البيئة بشكل فعال لخدمة أهدافهم الاقتصادية والتجارية.

تميزت المستوطنات الفينيقية بتخطيط حضري بسيط ولكنه فعّال، يعكس هيمنة الطابع التجاري. استخدم الفينيقيون مواد بناء متوفرة محلياً، مثل الحجر الجيري والطين، حيث كانت الأبنية متواضعة نسبياً لكنها عملية ومناسبة للبيئة الساحلية. كانت الأسواق أو الساحات المركزية للحياة اليومية، حيث يتم تبادل البضائع المستوردة مثل المعادن، العاج، الأقمشة الصبغية، والزيوت العطرية، مقابل المنتجات المحلية مثل الأسماك، الزيوت، والحبوب.

كان النشاط الاقتصادي للفينيقيين في إيكوسيوم متجذراً في التجارة البحرية، حيث استوردوا بضائع من الشرق الأدنى وصدّروها إلى الداخل الإفريقي وأوروبا. تشير الدراسات الأثرية إلى وجود شبكة واسعة من الاتصالات التجارية بين إيكوسيوم ومدن فينيقية كبرى أخرى مثل قرطاج. كانت هذه التجارة تمثل عصب الحياة في إيكوسيوم، وشكّلت أساساً للتنظيم العمراني للمدينة، الذي صُمّم لدعم حركة البضائع والأشخاص.

لم يكن تأثير الفينيقيين على المنطقة مقتصراً على الجانب الاقتصادي، بل امتد إلى الجوانب الثقافية والدينية. أظهرت الاكتشافات الأثرية أن الفينيقيين جلبوا معهم طقوسهم الدينية ومعتقداتهم، بما في ذلك عبادة الآلهة مثل بعل وعشتروت. وقد انعكست هذه المعتقدات في بناء المعابد والمذابح في محيط المدينة. كما لعبت الرمزية الدينية دوراً مهماً في التخطيط العمراني، حيث ارتبطت العديد من المباني بقداسة البحر والخصوبة.

مع أن العمارة الفينيقية الأصلية في إيكوسيوم قد اندثرت نتيجة للتغيرات التاريخية وتعاقب الحضارات، إلا أن بصماتهم لا تزال واضحة في الطبقات التاريخية التي شكّلت النسيج العمراني للقصبة فيما بعد. المفاهيم التي أرساها الفينيقيون، مثل استغلال الموارد الطبيعية بذكاء والتخطيط العمراني الموجه للتجارة، ظلت تؤثر على الأجيال اللاحقة، من الرومان إلى العثمانيين.

2. الرومان: الهندسة الدقيقة والتكامل الحضري

مع دخول الرومان إلى شمال إفريقيا، أصبحت "إيكوزيوم" جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، وهو ما أحدث تحولاً جذرياً في التخطيط العمراني للمدينة. تميزت هذه المرحلة بدمج فلسفة الرومان الحضرية التي تعتمد على الدقة الهندسية والتكامل الوظيفي مع البيئة المحيطة، وهو ما جعل المدينة نموذجاً يعكس نظاماً اجتماعياً واقتصادياً متكاملاً.

عمد الرومان إلى تخطيط المدينة وفق النمط النموذجي الذي اعتمدوه في مستعمراتهم، حيث أنشأوا شبكة من الطرق المستقيمة المتعامدة التي تقسم المدينة إلى مربعات متوازية الشبكة الإحداثية أو *Grid System* وفقاً للباحثين، كان هذا النمط يساعد على تسهيل الحركة داخل المدينة وتحسين الاتصال بين الأحياء المختلفة، وهو ما جعل "إيكوسيوم" مركزاً مهماً للتجارة والنقل.

كما شهدت المدينة في العهد الروماني إنشاء مجموعة من المرافق العامة، مثل الحمامات الرومانية التي لم تكن مجرد أماكن للنظافة، بل أيضاً مراكز اجتماعية وثقافية تجمع بين السكان، بالإضافة إلى ذلك تم بناء قنوات مائية وأحواض لتوزيع المياه، ما يعكس إدراك الرومان لأهمية البنية التحتية في تحسين نوعية الحياة الحضرية.

تُعتبر شبكات الصرف الصحي الرومانية واحدة من أهم الإضافات التي أدخلها الرومان إلى "إيكوزيوم". أشار المؤرخ الفرنسي ويل ديورانت إلى أن الرومان صمموا أنظمة معقدة من القنوات والمجاري التي تسمح بتصريف المياه العادمة ومنع تراكمها[58]. وهو ما ساهم في الحفاظ على البيئة الصحية في المدينة. كما أضافوا شبكة قنوات لجلب المياه من المناطق المحيطة إلى داخل المدينة، مما عزز من استدامة المنطقة.

من أبرز المعالم التي أُنشئت في الحقبة الرومانية كانت المعابد التي تعكس المعتقدات الدينية الرومانية مثل عبادة الآلهة جوبتر وجونو ومينيرفا. كانت هذه المعابد تتميز بتصميمها الدقيق واستخدام

---

[58] Will Durant and Ariel Durant, **The Story of Civilization**, Simon&Schuster, United States, 1944, P237.

أعمدة ضخمة وزخارف معمارية فنية، إضافة إلى ذلك أنشأ الرومان مسارح مفتوحة (أمفيثياتر) تُستخدم للأداءات المسرحية والمصارعات، مما أضاف بُعداً ترفيهياً واجتماعياً لعمران المدينة.

من منظور الأنثروبولوجيا الثقافية، يمكن القول إن الرومان دمجوا بين المتطلبات البيئية للمنطقة وتطورات العمران. حافظوا على المواقع الطبيعية المهمة كالجزر المحيطة وحولوها إلى نقاط دفاعية وتجارية، كما استغلوا التضاريس المرتفعة لتوفير رؤية استراتيجية للمدينة وضواحيها. أصبحت "إيكوسيوم" في العهد الروماني مركزاً للتبادل الثقافي والاقتصادي بين شمال إفريقيا وروما. هذا الانفتاح ساهم في إدخال عناصر ثقافية جديدة، مثل اللغة اللاتينية، التي أصبحت لغة الإدارة والتعليم، وهو ما ترك تأثيراً طويل الأمد على هوية المنطقة.

3. الطابع الزيري: المهاد الأول لنشوء العمران الإسلامي في مدينة الجزائر

رغم أن قصبة الجزائر اشتهرت تاريخيًا بملامحها العثمانية، إلا أن جذورها العمرانية الأولى تعود إلى الفترة الزيرية، التي تمثل حلقة مهمة في التأسيس الإسلامي المبكر للمدينة. الزيريون وهم فرع من صنهاجة الأمازيغ، أسسوا في القرن العاشر الميلادي مدينةً على أنقاض إيكوسيوم الرومانية، كانت تُعرف حينها باسم "الجزاير بني مزغنة"، وتعود تسميتها إلى مجموعة الجزر الصخرية التي كانت تقابل الساحل.

في هذه الحقبة، بدأت تتبلور المعالم الأولى للمدينة الإسلامية، شبكة من الطرق المتشابكة، مسجد جامع مركزي، ومجال عمراني ذو طبيعة عضوية ينبني على التدرج الطبقي والتكافل الاجتماعي، وقد مثّلت هذه النواة العمرانية أساسًا لما ستصبح عليه القصبة لاحقًا، خاصة من حيث التقسيم الداخلي للأحياء، وموقع المسجد، ونمط توزع البيوت وفق منطق القرابة والانتماء القبلي.

وبالنظر إلى تأثير الزيريين، فإن كثيرًا من عناصر الهوية المحلية في المدينة – كأسماء بعض الأحياء، وتقاليد التعايش الديني، وبداية التحول من نمط الساحل العسكري إلى المدينة ذات الوظيفة الدينية والتجارية – ترجع في أصولها إلى هذه الفترة، وقد شكلت هذه المرحلة أساسًا تراكميًا استندت إليه الفترات الموّالية، خاصة الحفصية والعثمانية.

من المنظور الأنثروبولوجي، يُعد الطابع الزيري بمثابة "مرحلة التأسيس الرمزي" لعلاقة الإنسان بالفضاء المديني في الجزائر، فبينما قدّم الرومان البنية التحتية الصلبة، فإن الزيريين أعادوا تشكيل

المكان وفق منظور إسلامي/أمازيغي ينبني على الانسجام بين العمران والمعتقد والقبيلة، وما تبقى من تلك الحقبة قد لا يكون مادّيًا بشكل جلي، لكنه حاضر في البنية الرمزية للمدينة، وفي طريقة فهم السكان لتاريخهم المتجذر في الأرض، وقد اختار الزيريون موقع "الجزاير بني مزغنة" لما يتيحه من إمكانيات دفاعية وتجارية، لكنهم تجاوزوا الطابع العسكري الساحلي الذي كان يطبع المدن الساحلية في المرحلة الرومانية والبيزنطية، نحو تصور حضري جديد يُعيد إدماج البعد الديني، والوظيفة التجارية، والهوية القبلية ضمن مخطط عمراني عضوي، وهذا ما مهّد لظهور معالم المدينة الإسلامية الأولى: المسجد الجامع، السوق، الحمامات، البيوت المجاورة ذات الأفنية المغلقة، والمجال المفتوح المخصص للأنشطة الاجتماعية، وهي كلها معالم سابقة على القصبة العثمانية، ومؤسسة لهيكلها الرمزي.

1.3. أسماء الأحياء كبنية ذاكرية

من أبرز دلائل الأثر الزيري في المدينة ما لا يزال محفوظًا في أسماء الأحياء والمواقع التي تشي بالتركيب السكاني القبلي واللغوي لتلك المرحلة؛ فـ"بني مزغنة" نفسها تشير إلى إحدى قبائل صنهاجة، التي كانت تشكّل النواة السكانية المؤسسة، وتنتشر في المنطقة أسماء ذات جذور أمازيغية أو عربية إسلامية تعكس توازنًا ثقافيًا بين الأمازيغية المعربة والدين الإسلامي الصاعد آنذاك، ما يعبّر عن اندماج الهويّات المحلية في فضاء ديني وحضري موحّد.

2.3. التعايش الديني في مدينة ناشئة

شهدت الحقبة الزيرية، بفعل التسامح النسبي الذي كانت تتبناه السلطة الفاطمية بدايةً، وجود جماعات دينية غير مسلمة (مثل اليهود وبعض النصارى)، ضمن نسيج المدينة، وهذا ما أسس لنمط من التعايش المجتمعي المتفاوت لكنه مستقر نسبيًا، عزّز من تكوّن "حيز حضري تعددي"، وهو ما سيعيد الظهور لاحقًا في القصبة في صورتها العثمانية، حيث ستتكرر نماذج الحارات المتجاورة لمكونات سكانية متعايشة.

3.3. المدينة من ميناء عسكري إلى مركز حضري ديني/تجاري

من الناحية الرمزية، تمكّنت السلطة الزيرية من نقل المدينة من مجرد نقطة ساحلية استراتيجية إلى مركز حضري يحمل هوية وظيفية جديدة، إذ ظهرت الوظائف الحضرية الثلاث الأساسية:

- **الدينية:** مع إنشاء المساجد والمدارس القرآنية الأولى.
- **الاقتصادية:** عبر تنظيم الأسواق والموانئ.
- **الاجتماعية:** من خلال استقرار العائلات وتوزيع الحِرف على أساس عرفي.

ومن هذا المنطلق، لعبت المدينة في المرحلة الزيرية دورًا مزدوجًا: فهي امتدادٌ للتصور الإسلامي للمدينة (المدينة النبوية/المدرسة المالكية)، لكنها في الآن نفسه امتداد للروح الأمازيغية التي تفكر في المكان من زاوية الانتماء الجماعي والقرابة والمجال، وهي بذلك تمثل لحظة تأسيس ما يُعرف بـ"الذاكرة المدينية الأولى "للجزائر، حيث بدأ الإنسان في تكوين علاقته الرمزية بالمكان، وفي بناء هوية حضرية تتجاوز القبيلة لتشكل الانتماء إلى "المدينة". كما أسست هذه الفترة لمنظومة من القيم المرتبطة بالكرم، الجيرة، الطهارة، والعلم، التي ستتجذر لاحقًا في الحياة القصباوية، من خلال الحمام، المسجد، المدرسة، والزقاق.

ما يُميز التجربة الزيرية هو أنها لم تُطمس من قِبل القوى اللاحقة (الحفصيين، ثم العثمانيين)، بل تم البناء عليها، فالحفصيون سيُعززون البنية الإدارية والتجارية، بينما سيستثمر العثمانيون الفضاء القائم ويعيدون تشكيله ضمن تصور إمبراطوري، لكن النسيج العمراني للقصبة – بشبكته العضوية، وميادينه، وتنظيم حاراته – لا يمكن فهمه دون العودة إلى اللحظة الزيرية الأولى.

4. المرحلة الحفصية في تاريخ القصبة: دينامية حضرية منسية

رغم أن التأريخ الشعبي والعمراني لمدينة الجزائر يميل إلى إبراز الفترتين الزيرية والعثمانية، إلا أن الفترة الحفصية (حوالي 1229–1510م) مثّلت مرحلة وسيطة حرجة في تشكّل المدينة، تركت بصمات دقيقة على المستوى السياسي، الديني، والاجتماعي، وأسهمت في إعادة توجيه المدينة ضمن المجال المغاربي الإسلامي. من منظور أنثروبولوجي، تُعد هذه الحقبة فضاء انتقال رمزي حافظ على إرث الزيريين، وتهيّأ لاستقبال الموريسكيين والعثمانيين لاحقًا.

الحفصيون، المنحدرون من سلالة أمازيغية كانت تخضع للخلافة الموحدية ثم استقلّت بتونس، بسطوا نفوذهم على الشمال الإفريقي الأوسط، بما في ذلك مدينة الجزائر. ورغم أن العاصمة الفعلية كانت في تونس، إلا أن الجزائر شكّلت بالنسبة للحفصيين حاجزًا استراتيجيًا أمام التوغلات النصرانية عبر البحر، ومحورًا تجاريًا يربط الداخل الساحلي بالموانئ المتوسطية.

1.4. تحولات في التنظيم الحضري والمعماري

لم يبنِ الحفصيون مدينة جديدة في الجزائر، بل عملوا على إعادة تنظيم المدينة الزيرية السابقة، عبر تعزيز بنيتها الدينية والإدارية. أُعيد تأهيل المسجد الجامع (الذي يعود إلى الزيريين)، وتمت توسعة الأسواق، وتنظيم الفضاءات التجارية ضمن نظام "العسَس" و"المحتسب"، وهي مؤسسات حضرية كانت تضبط حركة السوق والفضاء العام.

من الناحية المعمارية، تم إدماج عناصر من الطراز المغاربي القيرواني في عمارة البيوت والمساجد، ويُعتقد أن بعض النقوش والزخارف الباقية في المساجد العتيقة تعود إلى هذا الطابع، كما شهدت المدينة **تطورًا عموديًا في السكن**)البيوت ذات الطابقين)، وهو ما هيّأ لاحقًا لنشوء "القصبة" في شكلها المتراكم.

2.4. الوظيفة الدينية والعلمية: الفضاء كحقل رمزي

من منظور أنثروبولوجيا الفضاء، تبرز أهمية المرحلة الحفصية في تشكيل العلاقة بين الفضاء المديني والمقدّس، فقد اهتم الحفصيون بنشر التعليم الديني وفق المذهب المالكي، وتشجيع التصوف المعتدل. ويُرجَّح أن بعض الزوايا التي ستظهر لاحقًا في القصبة العثمانية كانت في الأصل تكايا ومدارس دينية حفصية أو متأثرة بها، ما يعكس استمرارية النسق الديني المغاربي.

كما أصبح الفضاء العام ميدانًا لأداء طقوس جماعية – كالدروس الفقهية، والأسواق الموسمية التي شكلت نواة للعلاقات الاجتماعية، وأسست لما سيعرف لاحقًا بـ"القصبة الكبرى".

3.4. البُعد السياسي والرمزي للمدينة

رغم أن الجزائر لم تكن مركز الحكم الحفصي، إلا أن وجود الولاة الحفصيين، والمراكز الدينية، والتجار المحليين، جعل المدينة تدخل ضمن ما يُعرف بـ"الحواضر الثانوية ذات الدور الرمزي". هذه المدن لم تكن عواصم، لكنها كانت منتِجة للهوية الرمزية والتوازن المجالي في الدولة، عبر التحكم في الممرات، وتنظيم الشبكات التجارية والوقفية.

مع تدهور الدولة الحفصية في النصف الثاني من القرن 15، بدأت الجزائر تعاني من الفراغ السياسي وتزايد التهديدات الإسبانية، وقد مثّل هذا الانحسار فرصة لصعود التحالفات الشعبية المحلية التي ستلجأ

لاحقًا إلى البحّارة العثمانيين، مثل الأخوين بربروس، للمساعدة في صد الإسبان. ما يجعل من المرحلة الحفصية نقطة ارتكاز بين الهوية المحلية المستقلة، والتبعية الإدارية الخارجية، وهي معادلة ستتكرر في التاريخ الجزائري أكثر من مرة.

5. الموريسكيون: الاندماج القسري وصياغة الذاكرة الجماعية في قصبة الجزائر

عقب سقوط غرناطة سنة 1492، شهدت المدن المغاربية، وعلى رأسها الجزائر، موجات كثيفة من الهجرة القسرية للموريسكيين، وهم المسلمون الذين أُجبروا على التنصّر في إسبانيا قبل أن يُطردوا لاحقًا بسبب انتمائهم الديني والعرقي، وقد كانت القصبة أحد أهم الفضاءات المستقبِلة لهؤلاء اللاجئين، لما توفره من حماية سياسية ودينية في كنف الحكم العثماني، ولما تمثله من مركز حضري قابل للتوسع والتنوع.

من الناحية الأنثروبولوجية، لا يمكن اعتبار الموريسكيين مجرّد "وافدين"، بل فاعلين ثقافيين تركوا بصماتهم في نسيج المدينة، بل وأعادوا تشكيل جزء من فضائها الاجتماعي والمعماري.

1.5. العمارة: التوقيع الأندلسي في البيوت والزخرفة

كان للموريسكيين أثر بالغ في العمارة القصباوية، خاصة في مجال الزخرفة، وفن الحفر على الجبس والخشب، واستعمال الزليج الملوّن بأشكال هندسية معقدة. وقد ظهر هذا التأثير بوضوح في القصور والدارات، مثل "قصر عزيزة" و"دار الشجور"، وفي تفضيلهم للأفنية الداخلية المغلقة والحدائق الداخلية – وهو طراز معماري أندلسي صميم. كذلك، كانوا يستخدمون الأقواس متعددة الفتحات والمداخل المنحنية التي توفّر الخصوصية، وهي سِمات صارت جزءًا من "لغة العمران" في القصبة.

2.5. الحِرَف والاقتصاد: استحضار المهارة الأندلسية

جلب الموريسكيون معهم رأسمالاً مهاريًا واسعًا، خاصة في الصناعات الدقيقة كـ:

- صناعة الجلود (الدباغة).
- الحلويات الفاخرة (كالدزيريات والبقلاوة بطابع أندلسي).
- صناعة النسيج و"الفتول" المطرّز.
- الزراعة المكثفة في الجنائن المحيطة بالمدينة.

وقد اندمجت هذه الحرف في السوق المحلي للقصبة، مما ساعد على تحريك الاقتصاد الحضري، ورفد المدينة بعناصر من الذوق الأندلسي الرفيع، ما جعل القصبة تتجاوز بعدها العسكري–الإداري، لتصبح مدينة فنية وحِرفية أيضًا.

3.5. الثقافة والعادات: التقاء الطقوس

على مستوى الممارسات اليومية، أسهم الموريسكيون في تشكيل المخيال الجماعي للقصبة. فقد أعادوا إحياء طقوس مرتبطة بالمناسبات الدينية والاجتماعية، مثل:

- تزيين المنازل بالمرايا والمزهريات.
- فن الضيافة الفاخر.
- استعمال البوقالات ضمن المجالس النسوية.
- والعناية الكبرى بلباس العروس وتفاصيل جهازها.

كما أنهم أضافوا لمسة موسيقية وشعرية بارزة، حيث ارتبطت **المدائح والأهازيج العاصمية** بإيقاعات قادمة من الأندلس، مثل النوبات الأندلسية التي سيتبنّاها لاحقًا طرب المالوف والصنعة.

3.1. الاندماج والتعايش

رغم الطرد القسري الذي عاناه الموريسكيون، إلا أنهم وجدوا في الجزائر "وطنًا جديدًا" جعلهم يتماهَون تدريجيًا مع الساكنة المحلية، خصوصًا في القصبة. لم ينغلقوا على أنفسهم، بل اندفعوا نحو الانخراط الكامل في الحياة الاقتصادية والدينية والسياسية، وقد حافظوا في الوقت ذاته على ذاكرة جمعية مغموسة بالحنين للأندلس، تُعبّر عنها الأغاني والأمثال والحكايات، والتي بقيت تتردد في الأحياء القديمة حتى القرن العشرين.

6. العثمانيون: الروح الإسلامية والعمران العضوي

مع دخول العثمانيين إلى الجزائر في القرن السادس عشر، أصبحت القصبة مركزًا سياسيًا وإداريًا وثقافيًا يعكس الهوية الإسلامية بوضوح. جاء التأثير العثماني على عمران القصبة من خلال دمج المبادئ الإسلامية في التصميم الحضري مع ما يلبي الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية للسكان. هذا النمط العمراني العضوي كان انعكاسًا لتفاعل الدين، الثقافة، والبيئة المحلية.

اعتمد العثمانيون فلسفة "العمران العضوي" الذي ينمو تدريجيًا ويتفاعل مع احتياجات السكان. لم تُخطَّط القصبة كمدينة كاملة دفعة واحدة، بل بُنيت أحياؤها وأزقتها بشكل متشابك وديناميكي، ما يعكس الطابع الإسلامي الذي يعطي الأولوية للخصوصية والتكافل الاجتماعي. الأزقة الضيقة والمتعرجة ليست فقط عناصر جمالية، بل كانت وسيلة لحماية السكان من أشعة الشمس ولخلق مناخ محلي أكثر برودة. أيضا يُعتبر بناء المساجد والمدارس القرآنية من أبرز سمات الطابع العثماني في القصبة. شُيدت مساجد كبيرة، مثل مسجد كتشاوة، بتصاميم تمزج بين الطراز العثماني والزخارف المغاربية. تتميز هذه المساجد بمآذنها العالية، قبابها الضخمة، والزخارف الخشبية والحجرية المعقدة التي تعكس الروح الإسلامية والفنية العثمانية. إلى جانب المساجد، أُنشئت المدارس القرآنية والزوايا التي لعبت دورًا مركزيًا في الحياة الدينية والتعليمية للمجتمع. كانت هذه المؤسسات تُستخدم لتعليم القرآن الكريم والعلوم الشرعية، ما يعزز التماسك الثقافي والهوية الإسلامية للسكان.

تمثل العمارة السكنية في القصبة نموذجًا مثاليًا للدمج بين الوظيفة والجمال. كانت البيوت العثمانية تُبنى على شكل منازل مغلقة حول فناء مركزي يُعرف باسم "الدار"، مما يوفر الخصوصية التامة للعائلات ويعكس القيم الإسلامية. كانت هذه البيوت غالبًا ما تُبنى باستخدام مواد محلية مثل الطوب والخشب، مع أبواب مزخرفة وسقوف مائلة للحماية من الأمطار.

كما لعبت الأسواق دورًا أساسيًا في الحياة اليومية لسكان القصبة، إذ كانت منظمة حول أنشطة تجارية معينة، مثل سوق الحدادين وسوق العطارين. كانت الأسواق تُبنى بالقرب من المساجد لضمان سهولة الوصول إليها من قبل السكان. أما الخانات (النُزل)، فكانت تقدم أماكن إقامة للتجار والمسافرين، ما يعكس الطابع التجاري النشط للمدينة خلال العهد العثماني. من منظور الأنثروبولوجيا الثقافية، يمكن القول إن العثمانيين صمموا عمران القصبة بطريقة تعزز التماسك الاجتماعي والتواصل بين السكان. كانت الأزقة الضيقة تربط بين الأحياء، بينما توفر الساحات العامة أماكن للتجمعات الاجتماعية

والاحتفالات الدينية. هذا التفاعل بين الأفراد كان جزءًا من نمط الحياة العثماني، الذي يعزز العلاقات المجتمعية.

كان نظام الأوقاف العثماني أحد الأدوات الأساسية لتمويل المشروعات العمرانية والخدمات العامة في القصبة. من خلال الأوقاف، تم بناء المساجد والمدارس وصيانة البنية التحتية، ما ضمن استمرارية الحفاظ على المدينة كمركز حضري نشط. يشير الباحث "إيرفن شيرمان" في دراسته عن الأوقاف العثمانية إلى أن هذه المؤسسات لم تكن فقط دينية، بل كانت أيضًا أدوات اقتصادية واجتماعية تُحرك عجلة التطور العمراني، وأدرك العثمانيون أهمية التضاريس الطبيعية للقصبة واستغلوها لصالحهم. تقع القصبة على منحدر جبلي، مما وفر رؤية استراتيجية للمدينة والميناء. بالإضافة إلى ذلك، أُنشئت ممرات مائية تعتمد على الجاذبية لتوزيع المياه داخل الأحياء، ما يعكس الفهم العثماني المتقدم للبيئة والتخطيط. هذا وقد ساهم التأثير العثماني في إغناء طابع القصبة، حيث كانت المدينة نموذجًا لاندماج الثقافة العثمانية مع التقاليد المحلية، هذا الانسجام الثقافي يعكس ما يُعرف في الأنثروبولوجيا بـ"التهجين الثقافي" (*Cultural Hybridization*). فعلى سبيل المثال، بينما أدخل العثمانيون تصميمات معمارية جديدة، احتفظ السكان المحليون ببعض العناصر التقليدية مثل الزخارف المغاربية.

ثالثا: التلاقح الحضاري في القصبة: طبقات من الهوية وتجذّر محلي عميق

تُجسّد مدينة القصبة في الجزائر العاصمة أكثر من مجرد حي قديم أو تراث معماري؛ إنها مشهد حضري مركب، يُعبّر عن تراكم تاريخي وثقافي طويل، تتقاطع فيه حضارات البحر الأبيض المتوسط مع الروح المحلية الإسلامية–الأمازيغية. لطالما كانت القصبة حاضنةً لتفاعلات حضارية متعددة، تماهت فيها الهندسة الزيرية والحفصية، والبصمة الموريسكية، والروح العثمانية، مما أنتج نسيجًا عمرانيًا فريدًا لا يمكن اختزاله في طبقة واحدة أو مرحلة بعينها.

ترجع الجذور الأولى للقصبة إلى الحقبة الفينيقية، حين كانت تُعرف بـ"إيكوسيوم"، وقد اختير موقعها الاستراتيجي لجغرافيته المتميزة المطلة على البحر والجزر الطبيعية. أسس الفينيقيون فيها نواة تجارية بحرية، تظهر آثارها في التشكيل العفوي للأسواق والأزقة الضيقة التي ما تزال شاهدة على طابع حضري عضوي ارتبط بالنشاط التجاري والميناني.

ثم جاء العهد الروماني، الذي ترك أثرًا ملموسًا في التنظيم الهندسي الصارم، من خلال إدخال الطرق المستقيمة، الساحات العامة، المعابد والحمامات، إلى جانب شبكات مائية متطورة. غير أن هذا التخطيط ظل موجهًا بوظائف إدارية وعسكرية، ولم يُنتج بعدُ المدينة الإسلامية التي ستتشكّل لاحقًا.

التحول الجوهري في هوية المدينة حدث مع الزيريين، وبالتحديد مع بولوغين بن زيري، الذي أسّس المدينة الإسلامية الجديدة في القرن العاشر الميلادي على أنقاض المدينة الرومانية، فحوّلها من مجرد نقطة ساحلية إلى نواة حضرية ذات بعد ديني وتجاري. كانت هذه المدينة الزيرية، والتي حملت اسم "الجزاير بني مزغنة"، مشبعة بالهوية الإسلامية الأمازيغية، إذ ظهرت فيها **أول** معالم العمران الإسلامي المحلي، كالمساجد، الحمامات، الحارات، والأسواق المنتظمة حول النواة الدينية. ومن حيث التكوين العمراني، اعتمد الزيريون على مواد محلية (لحجر، الطين، الجبس، الخشب)، وبنوا على التدرج الاجتماعي والقبلي في تنظيم المجال، مما سيبقى ملمحًا أصيلًا في بنية القصبة حتى يومنا هذا.

مع بداية القرن 16، وبعد سقوط غرناطة، استقبلت القصبة موجات من الموريسكيين المطرودين من الأندلس، الذين أعادوا بعث المكان بحرفهم الدقيقة، وأنماطهم الزخرفية، وثقافتهم المدينية الراقية. أدخل الموريسكيون فنون الزليج الأندلسي، زخرفة الخشب، والعناية بالبساتين الداخلية، وتركوا بصمتهم في مئات البيوت والقصور التي تتسم بتقاطع الأروقة، الفناء الداخلي، والحمام الخاص. وقد تماهت هذه اللمسة الأندلسية مع النمط الزيري السابق، فكوّنت ما يمكن تسميته بـ"الهوية المحلية القصباوية"، التي تتجاوز الأصل العثماني بكثير.

ثم جاءت المرحلة العثمانية في القرن 16، حيث أُعيد بناء القصبة جزئيًا بعد الزلزال الكبير، لكن العثمانيين لم يبدؤوا من الصفر؛ بل أعادوا بناء ما هو قائم أساسًا من عمران زيري وموريسكي. أضافوا إلى القصبة طابعًا إداريًا جديدًا، من خلال إنشاء قصر الداي، قصور القادة العسكريين، التكايا، والزوايا. وركزوا على الهندسة العضوية التي تحمي من المناخ، وتحافظ على الخصوصية الاجتماعية، وهي قيم كانت حاضرة من قبل في التجربة الزيرية والموريسكية.

من منظور أنثروبولوجي، يُمثّل التراكب بين هذه الطبقات عملية تلاقح حضاري حقيقية، لا تلغي فيها حضارة ما قبلها، بل تُعيد تكييفها وتشكيلها. فالهندسة الزيرية منحت القصبة بعدها الإسلامي

المحلي، والهندسة الموريسكية أضافت لها رقيًّا زخرفيًا ومعماريًا، أما الطابع العثماني فقد منحها البعد الإداري والسياسي.

إن الأزقة المتعرجة، البيوت المتقابلة، الأسواق المتخصصة، والمجالس الدينية، كلها تمثل أنثروبولوجيا للفضاء المديني، حيث تتداخل الرموز المادية (الزليج، الأقواس، الفناء) مع الرموز الاجتماعية (الحي، الجيرة، الطقس)، لتكوّن هوية مكان معقّدة تتجاوز القراءة الخطية للتاريخ. وبذلك، لا تُعتبر القصبة فضاءً ذا طابع عثماني خالص، بل هي نسيج تراكمي تشكّل في عمقه من الزيرية، ونضج بفضل الموريسكيين، ثم أعاد العثمانيون تنظيمه وإدارته. إنها مدينة لا تُقرأ فقط من هندستها، بل من سيرورتها الاجتماعية التي سمحت بتعايش الثقافات وتكاملها دون محو أو إقصاء.

رابعا: الخصائص المعمارية للقصبة

تُعدّ الخصائص المعمارية لقصبة الجزائر انعكاساً لتفاعل معقد بين البيئة الطبيعية، الاحتياجات الاجتماعية، والقيم الثقافية. يشكل هذا النسيج العمراني لوحةً متداخلة تعكس تاريخ المدينة الممتد لقرون، حيث يتجلى فيها تأثير الحضارات المتعاقبة مثل الفينيقية والرومانية والعثمانية، مع حضور قوي للبصمة المحلية التي تجعل القصبة مثالاً فريداً لما يُعرف بـ "العمارة العضوية" في الأنثروبولوجيا الحضرية.

من المنظور الأنثروبولوجي، يبرز تصميم المنازل التقليدية كمركز أساسي للحياة اليومية، حيث يعكس بناؤها الداخلي والخارجي فهمًا عميقًا لمفهومي الخصوصية والانسجام مع البيئة. تُظهر هذه المنازل تكيفاً مع المناخ المتوسطي، إذ توفر الأفنية الداخلية والساحات مساحات للحركة والراحة الحرارية، بينما تمثل المواد المحلية مثل الطين والحجر والخشب رابطاً وثيقاً بين المجتمع وبيئته الطبيعية.

أما الشوارع والأزقة، فتُجسد فهماً وظيفياً يتجاوز البنية المادية إلى أدوار اجتماعية وبيئية عميقة. يُظهر التشابك العمراني للأزقة الضيقة قدرة على خلق الظل وتوفير التهوية الطبيعية، مما يساهم في خفض درجات الحرارة خلال الصيف. في الوقت ذاته، كانت هذه الأزقة مساحات للتواصل والتفاعل بين السكان، مما يعزز من الروابط الاجتماعية ويخلق شعوراً بالمجتمع المتماسك.

على صعيد آخر، تحمل المباني العامة في القصبة، مثل المساجد والزوايا والأسواق، أهمية تتجاوز أدوارها الوظيفية. من خلال التصميم الإسلامي الذي يراعي الجانب الروحي، عكست المساجد والزوايا البُعد الديني والاجتماعي في حياة المجتمع، حيث لم تكن هذه المباني مجرد أماكن للعبادة، بل

فضاءات للعلم والثقافة والتربية الروحية. الأسواق بدورها لم تكن مجرد نقاط للتجارة، بل مراكز للنشاط الاقتصادي والتنظيم العمراني الذي يعكس ديناميكية المجتمع وتنوعه.

بهذا، فإن الخصائص المعمارية للقصبة ليست مجرد عناصر بناء، بل تمثل سرداً بصرياً لهوية ثقافية متجذرة ومعقدة. كل زاوية، كل جدار، وكل ساحة هي شهادة على قدرة الإنسان على التأقلم والتطور، وهي دليل على استمرارية الحياة في نسيج حضري غني يعكس الروح الجزائرية بأبهى صورها.

1. التقسيم الطبقي

تعتبر قصبة الجزائر نموذجًا فريدًا للتخطيط الحضري الذي يعكس التقسيم الطبقي للمجتمع؛ تم تقسيم المدينة إلى مناطق سكنية وتجارية ودينية، كل منها يلعب دورًا محددًا في الحياة اليومية للسكان، هذا التقسيم ليس فقط نتيجة للظروف الجغرافية، بل هو أيضًا تعبير عن القيم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في المجتمع.

تتركز المناطق السكنية في الأجزاء العليا من القصبة، حيث تكون المباني مبنية على التلال المرتفعة. هذا الموقع يوفر للسكان إطلالات خلابة على البحر الأبيض المتوسط، كما يوفر درجة من العزلة والخصوصية. المنازل هنا غالبًا ما تكون كبيرة ومتعددة الطوابق، مع وجود فناء داخلي (صحن) يعكس التقاليد المعمارية الإسلامية. في هذه المناطق، يمكن ملاحظة كيف تم تصميم المنازل لتلبية احتياجات الأسرة الممتدة. الغرف متعددة الوظائف، وتستخدم للعيش والنوم والاستقبال. الأزقة الضيقة والمتعرجة توفر مسارات آمنة ومظللة للسكان، مما يجعل التنقل بين المنازل مريحًا حتى في الأيام الحارة.

في المقابل، تتركز المناطق التجارية في الأجزاء السفلية من القصبة، القريبة من الميناء، هذا الموقع الاستراتيجي سهل الوصول إلى البضائع القادمة من البحر، مما جعل هذه المنطقة مركزًا للنشاط الاقتصادي، فالأسواق التقليدية (السوق) تنتشر هنا، حيث يمكن العثور على مجموعة متنوعة من البضائع، من التوابل والمنسوجات إلى الأدوات المنزلية.

المناطق التجارية تتميز بوجود دكاكين صغيرة ومتاجر متلاصقة، غالبًا ما تكون مفتوحة على الشارع، هذا التصميم يشجع التفاعل بين البائعين والمشترين ويخلق جوًا حيويًا مليئًا بالنشاط، بالإضافة إلى ذلك كانت هذه المنطقة موطنًا للعديد من الحرفيين الذين يمارسون مهنهم التقليدية، مثل النجارة وصناعة الفخار.

تقع المناطق الدينية في مواقع مركزية داخل القصبة، مما يعكس أهميتها في حياة المجتمع. المساجد والمدارس الدينية (الزوايا) تنتشر في جميع أنحاء المدينة، ولكنها غالبًا ما تكون قريبة من المناطق السكنية لتسهيل وصول السكان إليها، هذه المباني تتميز بتصميمها المعماري الفريد، مع مآذن عالية وقباب مزخرفة.

المساجد لم تكن فقط أماكن للعبادة، بل كانت أيضًا مراكز للتعليم والاجتماعات المجتمعية؛ المدارس الدينية المجاورة للمساجد كانت تقدم تعليمًا في القرآن والعلوم الإسلامية، مما جعلها جزءًا أساسيًا من الحياة الثقافية والدينية في القصبة.

على الرغم من التقسيم الطبقي، كانت هناك تفاعلات مستمرة بين المناطق السكنية والتجارية والدينية، فالسكان ينتقلون بسهولة بين هذه المناطق، سواء للتسوق في الأسواق أو للصلاة في المساجد، أو للعودة إلى منازلهم في الأجزاء العليا، هذا التدفق المستمر للناس جعل القصبة مدينة حية ومترابطة، حيث كل منطقة تكمل الأخرى.

مع مرور الوقت، شهدت القصبة تغييرات في توزيع المناطق السكنية والتجارية والدينية، فالاكتظاظ السكاني والإهمال أديا إلى تدهور بعض المناطق، خاصة السكنية، ومع ذلك لا تزال القصبة تحتفظ بجزء كبير من تقسيمها الطبقي التقليدي، مما يجعلها نموذجًا فريدًا للتخطيط الحضري في العالم الإسلامي.

التقسيم الطبقي في قصبة الجزائر يعكس كيفية تنظيم المجتمع للمساحات المعمارية لتلبية احتياجاته اليومية، من خلال دراسة هذا التقسيم، يمكننا فهم كيفية تشكيل المكان للحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية، فالقصبة ليست فقط مدينة تاريخية، بل هي شاهد على براعة الإنسان في التكيف مع بيئته وحاجاته.

2. المنازل التقليدية في قصبة الجزائر

تُعتبر المنازل التقليدية في قصبة الجزائر حجر الزاوية في فهم البنية العمرانية والاجتماعية لهذه المدينة التاريخية. إنّ هذه المنازل ليست مجرد فضاءات مادية للسكن، بل هي منظومات ثقافية متكاملة تعكس أنماط العيش والهوية الجماعية للسكان عبر الأجيال. ومن منظور أنثروبولوجي، فإن هذه المنازل

تحمل دلالات عميقة على التفاعل بين الإنسان وبيئته، حيث تشكل نموذجاً حياً لما يُعرف بـ"العمارة العضوية"، التي تتناغم مع الاحتياجات الاجتماعية والبيئية في آنٍ واحد.

تتميز المنازل التقليدية في القصبة بتصميم هندسي متقن يراعي الخصوصية والراحة النفسية للسكان، حيث تظهر الطبقات الاجتماعية والمعتقدات الثقافية في توزيع المساحات. يتكون المنزل عادةً من طابقين أو أكثر، يتمحور حول فناء داخلي يُعد القلب النابض للحياة اليومية. هذا الفناء، أو "الصحن"، محاط بغرف السكن ذات الأسقف العالية والنوافذ الصغيرة، مما يضمن التهوية الطبيعية ويمنع تسرب الحرارة في الصيف أو البرودة في الشتاء. من الخارج، تتسم المنازل بالواجهات البسيطة التي لا تكشف عن تفاصيل الداخل، وهو ما يعكس القيم الثقافية التي تقدّر الخصوصية وتقلل من مظاهر التفاخر.

الأفنية الداخلية ليست مجرد فراغات معمارية، بل هي فضاءات اجتماعية وثقافية تُستخدم للتجمع العائلي وإقامة المناسبات الدينية والاجتماعية. من منظور أنثروبولوجي، تمثل هذه الأفنية تجسيداً لفكرة "البيت كعالم مصغر"، حيث تتفاعل الأدوار الاجتماعية بشكل يومي. كما أن توزيع الغرف حول الفناء يعكس الهيكل العائلي الممتد، حيث يتشارك أفراد الأسرة مساحة واحدة ولكن في الوقت ذاته يحافظون على استقلاليتهم.

يعكس اختيار المواد المستخدمة في بناء المنازل التقليدية مدى الارتباط بالبيئة الطبيعية، تم استخدام الحجر والطين والخشب المحليين بشكل واسع، حيث تعكس هذه المواد توافر الموارد الطبيعية في المنطقة ومهارات الحرفيين المحليين. من منظور علم البيئة الثقافي (Cultural Ecology)، يمكن اعتبار هذا الاختيار دليلاً على فهم السكان للمنظومة البيئية والتكيف معها، حيث تساهم هذه المواد في تحقيق العزل الحراري وتقليل الاعتماد على مصادر الطاقة الخارجية.

لا تقتصر وظيفة المنازل التقليدية على الإيواء فقط، بل تلعب دوراً محورياً في تعزيز التماسك الاجتماعي بين السكان، فهي تعكس القيم الجماعية مثل التعاون والمشاركة، حيث كانت أعمال البناء تتم غالباً بشكل جماعي من قبل أفراد المجتمع، كما أن الأنماط الزخرفية المستخدمة في الداخل، مثل النقوش على الأسقف والجدران، تُظهر التداخل بين الفن التقليدي والهوية الثقافية.

المنازل التقليدية في القصبة هي شاهد حي على استمرارية الهوية الثقافية عبر العصور، فرغم التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها المدينة، لا تزال هذه المنازل تحتفظ بجوهرها كفضاءات

معمارية وروحية تعكس أصالة المجتمع الجزائري، وإعادة تأهيل هذه المنازل وصيانتها تمثل جهداً لحفظ التراث المادي وغير المادي للقصبة، حيث يتداخل الماضي بالحاضر في كل زاوية. هذه المنازل التقليدية ليست فقط نماذج معمارية، بل نصوصاً ثقافية تعبر عن حياة سكانها، قيمهم، ومعتقداتهم. ومن خلال تحليل هذه المنازل من منظور أنثروبولوجي، يمكننا أن نفهم بشكل أعمق كيف تداخلت العمارة مع البيئة والثقافة لتشكيل هوية مكانية متفردة.

3. الشوارع الضيقة والمتعرجة

تتميز القصبة بشبكة من الشوارع الضيقة والمتعرجة التي تتفرع من الشارع الرئيسي. هذه الشوارع صممت بهذا الشكل لتوفير الظل والتهوية في المناخ الحار، ولتسهيل الدفاع عن المدينة في حالة الهجوم. عندما تدخل إلى شوارع قصبة الجزائر، تشعر وكأنك تعود بالزمن إلى قرون مضت. الشوارع الضيقة والمتعرجة تلف حولك مثل متاهة حية، كل خطوة تأخذك إلى عالم جديد مليء بالتاريخ والأسرار. الهواء هنا بارد نسبيًا، حتى في عز الظهيرة، بفضل الظل الذي توفره الجدران العالية والمتقاربة.

تبدأ رحلتك من المدخل الرئيسي للقصبة، حيث يلفت انتباهك الشارع الضيق الذي يتسلق التلة ببطء. الجدران الحجرية العالية تبدو وكأنها تحتضنك، مطلية بألوان باهتة من الزمن، تتراوح بين الأبيض المائل إلى الصفرة والبني الترابي. تحت قدميك، الأرضية المرصوفة بالحجارة غير المنتظمة تخلق إيقاعًا مميزًا مع كل خطوة تخطوها. عندما تتقدم أكثر تجد نفسك في زقاق ضيق للغاية، بالكاد يتسع لشخصين يسيران جنبًا إلى جنب. الجدران هنا تبدو أقرب، وكأنها تهمس لك بقصص الماضي، فوقك تظهر قطع صغيرة من السماء الزرقاء بين أسقف المنازل المتلاصقة، والتي تبدو وكأنها تلامس بعضها في بعض الأحيان.

في بعض الأماكن، تمر تحت "سقائف" – وهي أسقف خشبية أو حجرية تغطي الشارع، مما يوفر مزيدًا من الظل والبرودة. الضوء هنا خافت لكنه يكفي لترى التفاصيل الدقيقة في الجدران: النقوش البسيطة، آثار الأزمنة القديمة، والأبواب الخشبية الثقيلة المزينة بمسامير حديدية كبيرة.

أثناء سيرك، تسمع أصوات الحياة اليومية تتردد في الأزقة. صوت امرأة تهمس من نافذة علوية، ضحكات أطفال يلعبون في زاوية، ونداء بائع متجول يعلن عن بضاعته. رائحة الخبز الطازج تملأ

الهواء، قادمة من فرن تقليدي مختبئ في أحد المنعطفات. في مكان آخر، تلتقط رائحة التوابل القوية من دكان صغير يبيع الأعشاب والبهارات.

كل منعطف في الشارع يحمل مفاجأة. في لحظة ما، تجد نفسك في ميدان صغير (ساحة) حيث يجتمع عدد من السكان للحديث أو الاستراحة. في مكان آخر، تمر بجوار مسجد صغير، تسمع منه صوت الأذان يتردد في الأجواء. الأبواب الخشبية العتيقة تثير فضولك، فبعضها مفتوح قليلاً، مما يمنحك لمحة عن فناء داخلي مليء بالنباتات والأزهار.

"تعتبر الأبواب في قصبة الجزائر عنصرًا معماريًا هامًا يعكس ثراء تاريخها وتنوع ثقافاتها. فهي ليست مجرد مداخل للمنازل، بل هي تحف فنية تعبر عن هوية السكان ومكانتهم الاجتماعية. تتنوع الأبواب في القصبة من حيث المواد المستخدمة، والتصميم، والزخارف، مما يعكس تأثير الحضارات المختلفة التي مرت بها المدينة. فتجد الأبواب التقليدية مصممة بشكل يعكس الحاجة إلى المتانة والخصوصية، بينما تحمل الأبواب الأخرى لمسات فنية تعبر عن الذوق الرفيع لأصحابها.

تُصنع الأبواب في القصبة بشكل أساسي من الخشب الصلب، الذي يتميز بمتانته وقدرته على تحمل الظروف المناخية. يُعد خشب الأرز وخشب البلوط من أكثر الأنواع استخدامًا، نظرًا لجودتهما العالية ومظهرهما الجذاب. كما يُستخدم الحديد المطاوع في صناعة الإطارات أو الزخارف، مما يضفي على الأبواب لمسة جمالية وقوة إضافية. وغالبًا ما تُزين الأبواب بمسامير حديدية بارزة، تُضفي عليها طابعًا تقليديًا مميزًا. تتميز الأبواب التقليدية في القصبة بتصميمها البسيط والعملي، حيث تتكون عادة من ضلفتين كبيرتين تفتحان إلى الداخل. وفي كثير من الأحيان، تتضمن الأبواب فتحة صغيرة، تُعرف بالـ "خوخة"، تستخدم للمراقبة والتواصل مع الخارج دون الحاجة إلى فتح الباب بالكامل، تعكس هذه الفتحة حرص السكان على الخصوصية والأمان، وتعبر عن رغبتهم في الحفاظ على حرمة منازلهم.

تُزين الأبواب في القصبة بزخارف متنوعة تعكس الذوق الفني الرفيع لسكانها، تشمل هذه الزخارف نقوشًا هندسية دقيقة، ورسومًا نباتية وزهرية، وكتابات عربية بخطوط جميلة، تحمل هذه الزخارف دلالات اجتماعية وثقافية عميقة، حيث تعبر عن الانتماء الديني، والاعتزاز بالتراث، والرغبة في إضفاء لمسة جمالية على المنازل، فبعض الأبواب تحمل آيات قرآنية أو أدعية دينية، بينما تحمل أبواب أخرى رموزًا تقليدية تعبر عن الهوية المحلية.

تعكس الأبواب في القصبة مكانة صاحب المنزل وثروته، فالأبواب الكبيرة المزخرفة بزخارف فاخرة تدل على أن صاحب المنزل ميسور الحال ويتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة، كما تعكس الأبواب حرص السكان على الخصوصية والأمان، حيث تحمي المنازل من الغرباء وتحافظ على حرمة الحياة الخاصة، لذلك تُعد الأبواب في القصبة جزءًا لا يتجزأ من التراث المعماري للمدينة، وشاهدًا على تاريخها العريق وثقافتها الغنية. " كلما تسلقت أعلى، أصبحت الشوارع أكثر انحدارًا، لكن الجمال يزداد، المنازل هنا تبدو وكأنها معلقة على التلة، مبنية ببراعة لتتكيف مع التضاريس، من بعض النقاط، يمكنك أن تلقي نظرة خاطفة على البحر الأبيض المتوسط في الأفق، لامعًا تحت أشعة الشمس.

عندما تصل إلى أعلى التلة، تشعر بإحساس بالإنجاز، هنا الهواء أكثر نقاءً، والمشهد أكثر اتساعًا، يمكنك أن ترى القصبة بأكملها ممتدة تحتك، مثل لوحة فنية حية، الشوارع التي سلكتها تبدو الآن كخيوط متشابكة في نسيج معقد، كل منها يحمل قصصًا وحكايات من ماضي غني.

4. الأزقة المغلقة (السقائف)

تعتبر الأزقة المغلقة، أو ما يُعرف محليًا بـ"السقائف"، واحدة من أبرز السمات المعمارية التي تميز قصبة الجزائر، هذه الممرات المسقوفة ليست مجرد عناصر جمالية تضيف إلى طابع المدينة التاريخي، بل هي نتاج تفاعل ذكي بين البيئة المحيطة والاحتياجات الاجتماعية والثقافية للسكان. من خلال دراسة هذه السقائف، يمكننا فهم كيفية تكيف المجتمع مع ظروفه المعيشية، وكيفية تشكيل المساحات المعمارية للحياة اليومية. الشوارع والأزقة في قصبة الجزائر جزءاً لا يتجزأ من هويتها المعمارية والثقافية، حيث تمثل هذه الممرات المتشابكة والزوايا الضيقة نموذجاً فريداً في التنظيم العمراني يعكس تفاعل السكان مع البيئة الطبيعية والاجتماعية. الشوارع والأزقة في القصبة من منظور أنثروبولوجي يعكس كيف تطورت هذه الفضاءات لتلبية الاحتياجات اليومية للسكان مع الحفاظ على الطابع الثقافي والتاريخي للمدينة.

تتميز شوارع القصبة بتشابكها وتعقيدها الذي يخلق شبكة حضرية غير منتظمة لكنها منظمة ضمنياً. يُعتقد أن هذا التصميم كان له غايات متعددة؛ من بينها الحماية من الغزاة والمساهمة في سهولة الدفاع عن المدينة. تُظهر الأنثروبولوجيا الثقافية أن هذا النوع من التخطيط العمراني يعكس تأثيرات الحضارات المتعاقبة التي مرت بالمدينة، بدءاً من الفينيقيين إلى العثمانيين، إضافة إلى ذلك تعكس

الأزقة الضيقة طبيعة المجتمعات الإسلامية التقليدية التي تركز على حماية الخصوصية وتجنب المساحات المفتوحة.

1.4. الوظيفة البيئية: التكيف مع المناخ

في مناخ البحر الأبيض المتوسط الحار والجاف، تبرز السقائف كحل معماري ذكي للتكيف مع الظروف الجوية. بتغطية الشوارع الضيقة بسقوف خشبية أو حجرية، توفر السقائف ظلًا كثيفًا يخفف من حرارة الشمس خلال النهار، مما يجعل الأزقة أكثر برودة ومريحة للمشاة. هذا التصميم ليس فقط عمليًا، بل هو أيضًا استجابة طبيعية لظروف البيئة المحيطة. في فصل الشتاء، تعمل السقائف كحاجز ضد الأمطار، مما يسمح للسكان بالتنقل دون التعرض للعوامل الجوية. هذه الوظيفة المزدوجة تجعل السقائف عنصرًا لا غنى عنه في الحياة اليومية لسكان القصبة.

2.4. الوظيفة الاجتماعية: مساحات للتفاعل

السقائف ليست مجرد ممرات مغطاة؛ بل هي مساحات عامة شبه خاصة تشجع التفاعل الاجتماعي بين السكان. بفضل طبيعتها شبه المغلقة، توفر السقائف بيئة حميمة حيث يمكن للجيران التوقف للحديث أو تبادل الأخبار. في العديد من الأحياء، تستخدم السقائف كامتداد للمنازل، حيث يمكن رؤية النساء وهن يطبخن أو ينظفن عند مداخل المنازل، أو الأطفال وهم يلعبون في الظل، هذه الأنشطة تعكس كيفية تكيف السكان مع المساحات المحدودة، وكيفية تحويل الممرات إلى أماكن حية ومليئة بالنشاط.

3.4. الأمان والخصوصية: حماية المجتمع

في المجتمع التقليدي، كانت الخصوصية وحماية الأسرة من الأولويات القصوى، هنا تبرز السقائف كحل معماري يوفر شعورًا بالأمان، خاصة للنساء والأطفال. المساحات المغلقة تقلل من مراقبة الغرباء، مما يجعل السكان يشعرون بالراحة والاطمئنان. هذا الجانب من السقائف يعكس القيم الاجتماعية العميقة التي كانت سائدة في المجتمع، حيث كانت حماية الأسرة والمحافظة على الخصوصية من الأمور الأساسية. من الناحية الثقافية، تعتبر السقائف جزءًا لا يتجزأ من الهوية المعمارية لقصبة الجزائر؛ تصميمها يعكس التقاليد الإسلامية في العمارة، حيث يتم التركيز على إنشاء مساحات مريحة ووظيفية تتكيف مع المناخ والثقافة المحلية، بالنسبة للسكان المحليين، السقائف ليست مجرد ممرات، بل هي

أماكن تحمل ذكريات الطفولة والتفاعلات الاجتماعية، فالعديد من القصص والحكايات الشعبية مرتبطة بهذه الأزقة المغلقة، مما يجعلها جزءًا من الذاكرة الجماعية للمجتمع.

5.4. التحديات المعاصرة: بين الماضي والحاضر

على الرغم من أهميتها التاريخية والثقافية، تواجه السقائف اليوم العديد من التحديات. بسبب الإهمال وعدم الصيانة، تعاني العديد من السقائف من التدهور الهيكلي، مما يشكل خطرًا على سلامة السكان ويؤثر على وظيفتها. بالإضافة إلى ذلك، مع تغير أنماط الحياة وزيادة استخدام السيارات، أصبحت السقائف أقل أهمية في الحياة اليومية. ومع ذلك، لا تزال تلعب دورًا في الأحياء التقليدية حيث يتم الحفاظ على التقاليد القديمة. السقائف في قصبة الجزائر هي أكثر من مجرد عناصر معمارية؛ فهي تمثل نظامًا متكاملًا من التكيف البيئي والاجتماعي. من خلال دراسة هذه الأزقة المغلقة، يمكننا فهم كيفية تشكيل المساحات المعمارية للحياة اليومية والهوية الثقافية للمجتمع. السقائف ليست فقط مكانًا للتنقل، بل هي مساحات للتفاعل الاجتماعي، وحماية الخصوصية، والحفاظ على الذاكرة الجماعية. في عالم يتغير بسرعة، تظل السقائف شاهدًا على براعة الإنسان في التكيف مع بيئته وحاجاته.

4. المنازل التقليدية

تشكل المنازل التقليدية في قصبة الجزائر نموذجاً معقداً للتفاعل بين البنية المادية والنسق الاجتماعي، حيث تتجاوز وظيفتها السكنية لتصبح نصاً ثقافياً قابلاً للقراءة الأنثروبولوجية. هذه الوحدات السكنية ليست مجرد تجمعات حجرية، بل تمثل نظاماً إيكولوجياً ثقافياً يترجم العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع، بين المقدس والعامي، وبين الخاص والعام. من خلال منهجية التحليل الأنثروبولوجي، يمكن تفكيك هذه العمارة كمنتج ثقافي يعكس؛ **البنى الاجتماعية** (التسلسل الهرمي، الجندر، الطبقي، **الاقتصاد الرمزي** للمجتمع (التبادلات غير المادية)، **استراتيجيات التكيف** مع البيئة الحضرية. .

كل بيت هنا هو يحمل في تفاصيله روح الثقافة الإسلامية وعبق البحر الأبيض المتوسط. من خلال هذه العمارة، نكتشف كيف استطاع الإنسان أن يصمم مسكنًا يتناغم مع الطبيعة، ويوفر الراحة والأمان، ويحافظ على الخصوصية في مجتمع مترابط، وما يميز هذه المنازل هو التفاعل الذكي مع البيئة المحيطة؛ الفناء الداخلي، الذي يعتبر قلب البيت، ليس مجرد مساحة مفتوحة، بل هو مكان للاجتماع والاسترخاء، حيث تلتقي العائلة وتستقبل الضيوف. . النوافذ والشبكات ليست مجرد فتحات

للتهوية، بل هي عناصر تصميمية ذكية تسمح بدخول الهواء النقي والضوء مع الحفاظ على الخصوصية. هنا سنغوص في تفاصيل هذه العمارة الفريدة، لنكتشف كيف تحولت المواد البسيطة مثل الطين والخشب إلى تحف معمارية تعبر عن هوية ثقافية غنية. سنستعرض التصميمات المبتكرة التي جعلت من هذه المنازل نموذجًا للاستدامة قبل أن تصبح الكلمة رائجة.

قصبة الجزائر ليست مجرد مكان، بل هي ذاكرة حية، تحمل في جدرانها قصص الأجداد وأحلام الأحفاد. من خلال دراسة عمارتها المنزلية، نتعلم كيف يمكن للتصميم أن يكون انعكاسًا للقيم الإنسانية، وكيف يمكن للماضي أن يلهم المستقبل.

5. الفناء الداخلي (الصحن):

عندما تدخل إلى المنزل التقليدي في قصبة الجزائر، تجد نفسك في ممر ضيق يؤدي إلى الفناء الداخلي، أو ما يُعرف بالصحن. هذا الممر غالبًا ما يكون مظلمًا بعض الشيء، مما يخلق إحساسًا بالانتقال من الفضاء الخارجي إلى عالم أكثر خصوصية. مع كل خطوة تقترب من الفناء، تشعر بتيار هواء بارد يلفتك، وكأنه يستقبلك في هذا المكان الهادئ.

وعندما تصل إلى الصحن تشعر فجأة بالاتساع والانفتاح؛ الفناء المربع أو المستطيل يحيط بك من جميع الجوانب، مع جدران عالية تمنحك إحساسًا بالأمان والخصوصية، والأرضية المرصوفة بالحجارة أو المغطاة بالبلاط التقليدي (الزليج) تضيف لمسة من الجمال والأناقة، وفي وسط الفناء قد تجد نافورة صغيرة أو بركة ماء، تبعث على الهدوء والراحة مع صوت خرير الماء الهادئ.

حول الفناء، توجد أروقة (أعمدة وقواس) تدعم السقف الذي يغطي الممرات المحيطة بالصحن. هذه الأروقة توفر مساحة مظللة للسكان للتنقل بين الغرف، وهي غالبًا ما تكون مزينة بالنقوش الجصية والأقواس المنقوشة. الأعمدة الخشبية أو الحجرية تضيف إلى الجو العام إحساسًا بالمتانة والجمال.

الغرف المحيطة بالصحن تفتح مباشرة على الفناء، مما يسمح بدخول الضوء الطبيعي والهواء النقي. كل غرفة لها وظيفة محددة، سواء كانت غرفة نوم، غرفة معيشة، أو مطبخ. الأبواب والنوافذ الخشبية المزينة بزخارف إسلامية تضيف لمسة فنية إلى التصميم العام.

الصحن هو المكان الذي تدور فيه معظم الأنشطة اليومية للأسرة. منذ ساعات الصباح الأولى، يبدأ الفناء بالتحول إلى مساحة حيوية مليئة بالنشاط. النساء غالبًا ما يبدأن يومهن هنا، حيث يقمن بإعداد الطعام في المطابخ الصغيرة المجاورة للفناء. رائحة الخبز الطازج والقهوة العربية تملأ الهواء، مما يخلق جوًا دافئًا ومريحًا.

للنساء دور رئيسي في إدارة الحياة اليومية في الصحن، هنا يمكن رؤيتهن وهن يطبخن في المطابخ المفتوحة على الفناء، أو ينظفن الملابس في أحواض صغيرة مخصصة لذلك. الصحن يوفر لهن مساحة للعمل مع الحفاظ على التواصل مع بقية أفراد الأسرة. في بعض الأحيان، تجتمع النساء في الفناء لتبادل الأحاديث أو لتعليم الأطفال بعض المهارات المنزلية.

الصحن هو أيضًا مكان اللعب المفضل للأطفال، فالفناء الواسع يوفر لهم مساحة آمنة للركض واللعب، بعيدًا عن مخاطر الشوارع الخارجية. يمكن رؤية الأطفال وهم يلعبون بالألعاب التقليدية، أو يجرون حول النافورة في وسط الفناء. الصحن ليس فقط مكانًا للترفيه، بل هو أيضًا مكان للتعلم، حيث يمكن للأطفال مراقبة الكبار وتعلم المهارات الحياتية.

بعد يوم عمل طويل، يعود الرجال إلى المنزل للاستراحة في الصحن؛ هنا يمكنهم الجلوس على الكراسي أو المقاعد المخصصة في الفناء والاستمتاع بجو هادئ ومريح. ، حيث يوفر لهم الصحن مساحة للراحة والتأمل، بعيدًا عن ضغوط العمل. في بعض الأحيان، يجتمع الرجال في الفناء لتبادل الأحاديث أو لقراءة الصحف.

هناك أيضا يمكن للجميع الجلوس معًا، تناول الطعام، أو التحدث؛ الفناء يوفر مساحة للتواصل والترابط، حيث يمكن لأفراد الأسرة مشاركة أخبارهم وقصصهم اليومية، وفي المناسبات الخاصة مثل الأعياد أو الزيارات العائلية، يتحول الصحن إلى مكان للاحتفال، حيث يتم تجهيز المأكولات وتزيين الفناء، فهو ليس فقط مكانًا وظيفيًا، بل هو أيضًا تعبير عن الجمال والفن، الجدران غالبًا ما تكون مزينة بالزليج الفسيفساء الجزائرية والنقوش الجصية، مما يضفي جمالًا فنيًا على الفضاء، والنوافير أو البرك الصغيرة في وسط الصحن تضيف لمسة جمالية وتهدئة، مع انعكاس الضوء على الماء يخلق جوًا ساحرًا، كما أنه يوفر تهوية طبيعية للمنزل، حيث يسمح بتدفق الهواء بين الغرف المحيطة به، هذا التصميم يساعد على تبريد المنزل خلال فصل الصيف، مما يجعله أكثر راحة في المناخ الحار. الفناء

المفتوح يسمح أيضًا بدخول الضوء الطبيعي إلى جميع الغرف المحيطة به، مما يقلل من الحاجة إلى الإضاءة الاصطناعية خلال النهار.

على الرغم من كونه فضاءً مفتوحًا، يوفر الصحن درجة من الخصوصية للأسرة، حيث أنه محاط بجدران عالية تمنع النظر من الخارج. هذا الأمر كان مهمًا في المجتمع التقليدي، حيث كانت الخصوصية وحماية الأسرة من الأولويات، إنه أكثر من مجرد عنصر معماري؛ فهو يمثل نظامًا متكاملًا من التكيف البيئي والاجتماعي.

6. المواد والتقنيات المستخدمة في البناء: إبداع بمواد بسيطة

عندما نتحدث عن العمارة المنزلية في قصبة الجزائر، فإننا نتحدث عن فن تحويل المواد البسيطة إلى تحف معمارية تعبر عن عبقرية الإنسان وقدرته على التكيف مع البيئة المحيطة، هذه المنازل التي تبدو للوهلة الأولى متواضعة، تخفي في تفاصيلها أسرارًا عمرانية مذهلة، حيث تم استخدام مواد محلية وتقنيات تقليدية لبناء مساكن توفر الراحة والجمال مع الحفاظ على الاستدامة.

المباني والقصور في قصبة الجزائر، بما في ذلك المساجد والزوايا والقصور التاريخية، صُنعت باستخدام مواد بناء تقليدية وأساليب معمارية تعكس الحرفية المحلية والتأثيرات الثقافية المتنوعة التي مرت بها المنطقة عبر القرون؛ كانت الحجارة، وخاصة الحجر الجيري المحلي، المادة الأساسية في بناء هذه المباني، حيث تم تقطيعها ونحتها يدويًا لإنشاء جدران سميكة وأقواس وأعمدة متينة. بالإضافة إلى الحجر، استُخدم الطين والجير في صناعة الملاط الذي يربط بين الحجارة، مما يعطي الهياكل قوة ومقاومة للعوامل الجوية.

الخشب أيضًا لعب دورًا مهمًا في بناء هذه المباني، حيث استُخدم في صناعة الأسقف والأبواب والنوافذ. كان الخشب يُنقش بزخارف إسلامية جميلة تعكس الفنون التقليدية، مما أضفى جمالًا ورونقًا على المباني، كما استُخدم الجبس في الزخارف الداخلية، خاصة في النقوش الإسلامية المعقدة التي تزين الجدران والأسقف، هذه النقوش كانت تُنفذ يدويًا لإنشاء أشكال هندسية ونباتية تعكس الفن الإسلامي، بالإضافة إلى ذلك استُخدم البلاط المزجج، أو الزليج، في تزيين الأرضيات والجدران، حيث كان يُصنع يدويًا ويُقطع إلى أشكال هندسية صغيرة تُرصّع معًا لإنشاء لوحات فنية ملونة.

من الناحية المعمارية، تتميز المباني في القصبة بتصميمها الإسلامي، الذي يعتمد على الفناء الداخلي (الفسقية) والأقواس المنقوشة والأروقة، هذه التصاميم توفر تهوية طبيعية وتظليلًا من أشعة الشمس، مما يجعلها مناسبة للمناخ المتوسطي. بالإضافة إلى ذلك، تأثرت العمارة في القصبة بالفنون الأندلسية، خاصة في الزخارف والنقوش التي تجمع بين الأشكال الهندسية والخط العربي، خلال الفترة العثمانية، أضيفت عناصر معمارية جديدة، مثل المآذن العالية والقباب الكبيرة، مما أعطى المباني طابعًا فخمًا وجذابًا.

الحرفية والفنون لعبت دورًا كبيرًا في جمال هذه المباني، حيث تميزت بالنقوش الإسلامية المعقدة والخط العربي الجميل. الآيات القرآنية والأدعية كانت تُكتب بخطوط جميلة مثل الخط الكوفي أو الثلث، مما أضفى طابعًا روحانيًا على المكان، بالإضافة إلى ذلك استُخدمت الفسيفساء في تزيين الأرضيات والجدران، خاصة في المساجد والقصور، مما أعطى المباني لمسة فنية مميزة.

على الرغم من التحديات التي واجهت بناء هذه المباني، مثل التضاريس الصعبة والموارد المحلية المحدودة، إلا أن البنائين استطاعوا إنشاء هياكل متينة وجميلة تعكس مهارتهم وإبداعهم. هذه المباني والقصور ليست مجرد هياكل معمارية، بل هي شواهد على تاريخ وحضارة الجزائر، تعكس مهارة الحرفيين والتفاعل بين الثقافات المختلفة التي مرت بها المنطقة.

7. الأرضيات: جمال الخشب وقوة البرميل

عندما تطأ قدمك أرضية منزل في القصبة، فإنك تسير على تاريخ من الإبداع الهندسي. تم استخدام جذوع خشبية لدعم الأرضيات، حيث تم اختيار الأخشاب المحلية القوية والمتينة، هذه الجذوع التي كانت تُرتب بعناية فائقة، لم تكن مجرد دعامات، بل كانت أيضًا عنصرًا جماليًا يعكس ذوقًا رفيعًا. ولكن كيف تم بناء القواعد التي تحمل هذه الأرضيات؟ هنا يأتي دور تقنية "قفز البرميل"، وهي طريقة بناء تقليدية تعتمد على تشكيل أقواس من الطوب أو الحجر لدعم الهيكل. هذه التقنية، التي كانت تُستخدم في بناء الجسور والقنوات، تم تطبيقها ببراعة في المنازل لتوفير قوة تحمل عالية مع الحفاظ على الجمال المعماري.

8. الأسقف: بساطة الأرض وعظمة الجير

أسقف منازل القصبة ليست مجرد غطاء، بل هي عنصر معماري يعكس فلسفة البساطة والوظيفية، تم بناء هذه الأسقف باستخدام سماكة كبيرة من الأرض، تصل أحيانًا إلى 70 سم في الشرفة، هذه السماكة التي قد تبدو مبالغًا فيها للوهلة الأولى، كانت ضرورية لتوفير العزل الحراري وحماية المنزل من حرارة الشمس. ولكن الأرض وحدها لا تكفي، فقد تم طلاء الأسقف بطبقة مصنوعة من الأرض والجير، هذه الطبقة التي كانت تُطبق بعناية، لم تكن مجرد حماية من التسرب، بل كانت أيضًا عنصرًا جماليًا يعكس نظافة المنزل واهتمام ساكنيه.

عندما ننظر إلى منازل القصبة، فإننا لا نرى مجرد جدران وأسقف، بل نرى إبداعًا إنسانيًا تحول فيه الطين والخشب إلى تحف معمارية، هذه المنازل التي تم بناؤها بمواد بسيطة وتقنيات تقليدية، تُعد شاهدًا على قدرة الإنسان على التكيف مع البيئة وخلق مساكن توفر الراحة والجمال.

9. قصور قصبة الجزائر تمثل أكثر من مجرد مبانٍ تاريخية

قصور قصبة الجزائر تمثل أكثر من مجرد مبانٍ تاريخية؛ فهي تحمل في طياتها عوالم متداخلة من الذاكرة الجماعية والهوية الثقافية والتفاعلات الاجتماعية التي شكلت مجتمع الجزائر عبر القرون. هذه القصور، مثل قصر الداي وقصر الرياس، ليست مجرد هياكل حجرية، بل هي شواهد على الهوية المركبة للجزائر. التصميم المعماري الإسلامي، مع ساحاته الداخلية والأقواس المنقوشة، يعكس التأثيرات العربية والأندلسية، بينما تظهر اللمحات العثمانية في التفاصيل الزخرفية واستخدام الألوان. كانت هذه القصور مراكز للسلطة السياسية، ولكنها أيضًا كانت فضاءات للتبادل الثقافي، حيث التقى الفنانون والعلماء والتجار من مختلف أنحاء البحر الأبيض المتوسط.

من منظور أنثروبولوجي، كانت قصور القصبة تمثل فضاءات اجتماعية متعددة الطبقات. في حين كانت الطبقات العليا من المجتمع، مثل الحكام والوزراء، تقيم في القصور الفخمة، كانت الطبقات العاملة تعيش في الأحياء المحيطة، مما خلق تفاعلات يومية بين مختلف الفئات الاجتماعية. هذه التفاعلات كانت تُدار من خلال قواعد اجتماعية ودينية صارمة، مما يعكس طبيعة المجتمع الجزائري في تلك الفترة. كانت القصور أيضًا أماكن للاحتفالات والمناسبات الدينية، حيث يجتمع الناس من مختلف الخلفيات للاحتفال بالأعياد والمناسبات، مما يعزز الروابط الاجتماعية والثقافية.

تحمل قصور القصبة أيضًا ذاكرة المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي. خلال القرن التاسع عشر، تحولت بعض هذه القصور إلى مراكز للتخطيط العسكري والمقاومة الشعبية. على سبيل المثال، قصر الداي كان شاهدًا على أحداث تاريخية كبرى، مثل الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830. هذه الأحداث جعلت من القصور رموزًا للصمود والهوية الوطنية، كانت القصور أيضًا أماكن للتجمعات السرية ولتخطيط المقاومة، مما يعكس دورها كفضاءات للصراع والتحرر.

في الثقافة الشعبية الجزائرية، تُعتبر القصور أماكن مقدسة إلى حد ما، حيث يُنظر إليها على أنها تحمل "بركة" أو قوة روحية. هذا الاعتقاد يعكس التزاوج بين الإسلام والصوفية في المجتمع الجزائري، حيث تُعتبر الأماكن التاريخية نقاط اتصال بين الماضي والحاضر، وبين العالم المادي والروحي. كانت القصور أيضًا أماكن للزيارات الدينية وللاحتفالات الصوفية، حيث يجتمع الناس للصلاة وللاحتفال بالأولياء والصالحين.

اليوم، تُعد قصور القصبة جزءًا من التراث العالمي، ولكنها تواجه تحديات الحفاظ على هويتها في ظل التحضر الحديث. الجهود المبذولة لترميم هذه القصور تعكس محاولة لإحياء الذاكرة الجماعية، ولكنها أيضًا تثير أسئلة حول كيفية توازن التراث مع متطلبات الحياة المعاصرة. القصور تبقى شواهد على قدرة الإنسان على تحويل الحجر إلى رمز، والمكان إلى ذاكرة. من خلال دراسة هذه القصور، نكتشف كيف أن الفضاء المعماري يمكن أن يكون مرآة تعكس ثقافة شعب، وصراعاته، وتطلعاته. هذه القصور ليست مجرد حجارة وصخور، بل هي كيانات حية تحمل في طياتها تاريخًا من التفاعلات الإنسانية.

10. المباني الدينية

تشكل المباني الدينية في قصبة الجزائر نظاماً دلالياً معقداً يترجم العلاقة الجدلية بين المقدس والمدنس. هذه الفضاءات ليست مجرد أماكن عبادة، بل تمثل حقولاً للقوة الرمزية حيث تتجلى آليات الهيمنة الثقافية. المآذن الشامخة تعمل كعلامات بصرية تفرض النظام القيمي الإسلامي على المشهد الحضري، بينما تعكس القباب المنفوخة التراتبية الروحية. توزيع هذه المباني في النسيج العمراني يكشف عن خريطة للسلطة الدينية المترابطة مع الشبكات الاقتصادية والاجتماعية، مما يجعلها نقاط ارتكاز في تشكيل الهوية الجماعية.

تمثل الزوايا في القصبة نموذجاً لأنثروبولوجيا التصوف الحضري، حيث تتحول الطقوس الدينية إلى رأسمال اجتماعي قوي. هذه الفضاءات تعمل كحاضنات للتماسك المجتمعي عبر إنتاجها لشبكات التضامن والتبادل الاقتصادي. حلقات الذكر والأوراد اليومية تخلق إيقاعاً زمنياً بديلاً عن الزمن الرسمي، بينما تمثل المكتبات الملحقة بها مستودعات للمعرفة البديلة. نظام الإطعام والإيواء في الزوايا يكرس اقتصاداً أخلاقياً قائماً على التكافل، مما يجعلها مؤسسات كلانية تدمج الديني بالاجتماعي بالاقتصادي في بوتقة واحدة.

يتجاوز المسجد في القصبة كونه مجرد مكان للصلاة، ليكون فضاءً متعدد الأبعاد يمارس فيه المجتمع طقوسه اليومية. حلقات العلم تحوله إلى جامعة شعبية تنتج المعرفة الشرعية وتوزعها، بينما تصبح أروقته ساحات للنقاش السياسي والاجتماعي. نظام الأوقاف المرتبط به يخلق اقتصاداً موازياً قائماً على التبرعات والهبات، مما يجعله مركزاً لإعادة توزيع الثروة. تصميمه المعماري نفسه يكرس التراتبية الجندرية والاجتماعية، حيث تفصل المساحات بين الرجال والنساء، وبين العامة والنخبة، هذه التداخلات تجعله مختبراً لأنثروبولوجيا السلطة في أبهى صورها.

1.10. البعد الروحي والمعماري للمساجد

تعد المساجد في القصبة من أبرز الشواهد المعمارية التي تعكس التفاعل بين التأثيرات الأندلسية والعثمانية، حيث تُمثّل فضاءات روحية واجتماعية لعبت دورًا أساسيًا في تشكيل النسيج الثقافي والديني للمدينة. وقد تطورت هذه المساجد وفقًا لظروفها التاريخية والجغرافية، فكانت بمثابة مراكز دينية، ومؤسسات علمية، وأحيانًا ساحات للتشاور واتخاذ القرارات المصيرية، مما يجعلها أكثر من مجرد مبانٍ، بل مؤسسات حية تحمل ذاكرة جماعية متجذرة.

2.10. تطور العمارة الدينية في القصبة بين التأثيرات الأندلسية والعثمانية

يعود تخطيط المساجد في القصبة إلى مراحل تاريخية مختلفة، لكن التأثيرين الأندلسي والعثماني يظلان الأكثر وضوحًا في هندستها المعمارية، فقد كان للطراز الأندلسي أثر كبير على البنية المعمارية للمساجد من حيث اعتماد الأفنية الداخلية، والأروقة المغطاة، والزخارف الهندسية التي تعكس براعة الحرفيين المسلمين في المزج بين الفن والجمال الوظيفي. أما التأثير العثماني، فجاء ليضيف بُعدًا آخر، خاصة من خلال تشييد المساجد ذات القباب المركزية الضخمة، والمآذن الأسطوانية ذات الطراز التركي،

إلى جانب استخدام الفسيفساء الخزفية والخط العربي في تزيين المحاريب والجدران. المساجد العثمانية في القصبة، مثل مسجد كتشاوة ومسجد علي بتشين، تتميز بتصميمها الذي يعكس فلسفة العمارة العثمانية التي تسعى إلى تحقيق التوازن بين الفضاءات الداخلية والخارجية، حيث نجد القباب الكبيرة تتناغم مع المآذن الرفيعة، بينما يحيط المسجد غالبًا بفناء مفتوح يتيح الإضاءة الطبيعية والتهوية الجيدة. أما المساجد التي تعود إلى التأثير الأندلسي، مثل مسجد سيدي رمضان، فتميل إلى البساطة في الشكل مع اعتماد أنظمة قوسية في تصميم الأبواب والنوافذ، واستخدام زخارف جصية دقيقة تعكس الحس الفني الذي اشتهر به الحرفيون الأندلسيون.

3.10. تحليل تخطيط المساجد: المآذن، القباب، المحاريب، والزخارف الهندسية

يتسم تخطيط المساجد في القصبة بدقة هندسية تعكس فلسفة العمارة الإسلامية في خلق فضاءات روحانية وجمالية متكاملة. المآذن، التي تُعَدّ من أبرز العناصر البصرية، تتخذ في الغالب شكلاً مربعًا أو أسطوانيًا، وهي ليست فقط عنصرًا معمارياً بل تحمل دلالات روحية، حيث يُرفع منها الأذان في اتجاهات متعددة، ما يجعلها نقطة مركزية في النسيج العمراني للمدينة. أما القباب، فهي ليست مجرد عنصر زخرفي، بل تضفي على المساجد هالة من الجلال والقدسية، حيث تخلق تباينًا بين الضوء والظل داخل قاعات الصلاة، ما يعزز الشعور بالخشوع. وتختلف تصاميم القباب بين البسيطة التي ترتكز على أقواس، والمركبة التي تُزيَّن بأنماط هندسية معقدة تعكس إبداع الحرفيين المحليين.

المحراب، وهو النقطة المحورية داخل المسجد، يتجلى في شكل تجويف نصف دائري في جدار القبلة، مزين غالبًا بنقوش قرآنية وزخارف هندسية تعكس دقة الحفر والنقش الإسلامي. بعض المحاريب في مساجد القصبة تمتاز باستخدام بلاط الزليج الملوّن الذي يشكل لوحات فنية غنية بالتفاصيل الهندسية والنباتية. أما الزخارف الهندسية، فتُعَدّ من أبرز سمات العمارة الدينية في القصبة، حيث تبرز في النقوش الجصية والخشبية، وأحيانًا في الأبواب والنوافذ ذات المشربيات المصنوعة من الخشب المنحوت بدقة، ما يمنح المساجد طابعًا فنيًا فريدًا يجمع بين الوظيفة الجمالية والخصوصية الروحية. هذه الزخارف ليست مجرد عناصر ديكورية، بل تعكس فلسفة التوحيد الإسلامي عبر تكرار الأنماط الهندسية المتداخلة التي لا بداية لها ولا نهاية، في إشارة إلى اللانهاية الإلهية.

4.10. الدور الديني للمساجد في نشر العلوم الإسلامية وتكوين النخب الدينية

لم تقتصر وظيفة المساجد في القصبة على كونها أماكن للصلاة والعبادة، بل لعبت دورًا حيويًا في نشر العلوم الإسلامية وتكوين النخب الدينية التي أسهمت في الحفاظ على هوية المجتمع. فقد كانت المساجد، إلى جانب الزوايا، بمثابة مدارس علمية يتم فيها تدريس القرآن الكريم، والفقه، والحديث، واللغة العربية، فضلاً عن بعض العلوم التطبيقية التي كانت تُدرَّس وفق منهجية إسلامية متكاملة.

خلال الفترة العثمانية، كانت بعض المساجد الكبرى في القصبة بمثابة جامعات مصغرة، حيث كان العلماء يتوافدون إليها لإلقاء الدروس على الطلبة الذين يقصدونها من مختلف أنحاء الجزائر. وقد ساهم ذلك في خلق نخب دينية وعلمية تولت مناصب القضاء والفتوى، وساعدت في نشر الوعي الديني والثقافي في المجتمع، كما ارتبطت المساجد في القصبة بالحياة اليومية للسكان، حيث كانت مركزًا للتشاور في القضايا المجتمعية، وساحة لحل النزاعات وفق الشريعة الإسلامية، ما جعل منها فضاءً مركزيًا يجمع بين الدين والسياسة والثقافة في آنٍ واحد، إلى جانب ذلك، لم تكن وظيفة المسجد مقتصرة على الرجال فحسب، بل كان لبعضها أدوار خاصة بالنساء، حيث خُصصت أروقة داخل بعض المساجد الكبرى لإقامة حلقات تحفيظ القرآن وتعليم الفقه للنساء، ما يعكس الدور الشامل لهذه المؤسسات في التعليم والتربية. يمكن القول إن المساجد في القصبة لم تكن مجرد مبانٍ دينية، بل كانت مؤسسات متكاملة حافظت على التوازن بين البعد الروحي والبعد التعليمي والاجتماعي، ما جعلها جزءًا أساسيًا من هوية المدينة. وتظل هذه المساجد، رغم التحديات الزمنية والبيئية، شاهدة على عصور من التفاعل الحضاري، حيث تنطق جدرانها بروح التاريخ، وتروي قبابها ومآذنها قصة مدينة صاغت هويتها في رحاب الإيمان والمعرفة.

5.10. الزوايا: مدارس التصوف ومراكز التربية الروحية

تمثل الزوايا في القصبة إحدى الركائز الأساسية للهوية الدينية والثقافية في الجزائر، إذ لم تكن مجرد فضاءات للعبادة، بل كانت مراكز روحية وتعليمية لعبت دورًا جوهريًا في تشكيل البنية الاجتماعية والفكرية للمجتمع الجزائري. فمنذ ظهورها، احتضنت الزوايا طرقًا صوفية متعددة، وشكّلت فضاءً جامعًا للذكر، والتأمل، والتربية الروحية، مما أضفى عليها طابعًا مميزًا جعلها نقطة التقاء بين الدين والتاريخ والثقافة. ففي عمق الأزقة المتشابكة داخل القصبة، حيث تنبض الجدران بتاريخ عريق، كانت الزوايا

تمثل ملاذًا روحيًا للباحثين عن الصفاء النفسي والسير في طريق الله. فقد جمعت هذه الزوايا بين التصوف والتربية والتعليم، حيث كان شيوخها يمارسون دورًا مزدوجًا، يجمع بين الإرشاد الروحي والتعليم الديني، مقدمين نموذجًا متكاملًا يجمع بين الزهد في الدنيا والتفكر في معاني الحياة.

التعليم في الزوايا كان قائمًا على تلقين القرآن الكريم، وتفسيره، وتعليم علوم الفقه، والحديث، والسيرة النبوية، إلى جانب أصول التصوف التي تقوم على التهذيب الأخلاقي، والذكر، والتعبد الخالص. وكان الطلاب يتوافدون إليها من مختلف أنحاء الجزائر، لينهلوا من معين العلم على أيدي شيوخ التصوف الذين يرون أن التربية الروحية لا تنفصل عن المعرفة الدينية. وقد شكّلت هذه المدارس الدينية أرضية أساسية لصناعة رجال العلم والفتوى، الذين كانوا يسهمون في الحفاظ على المرجعية الدينية للبلاد في وجه التغيرات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها الجزائر عبر العصور.

6.10. التأثير الاجتماعي للزوايا في الحفاظ على تماسك المجتمع وفض النزاعات

لم تكن الزوايا مجرد محاضن علمية أو أماكن للعبادة، بل كانت مراكز اجتماعية وسياسية ذات نفوذ واسع في المجتمع الجزائري. فقد لعبت أدوارًا محورية في الحفاظ على وحدة النسيج الاجتماعي، خاصة خلال الفترات التي شهدت اضطرابات سياسية أو صراعات داخلية.

- الوساطة وفض النزاعات: كانت الزوايا بمثابة محاكم شعبية غير رسمية، حيث كان شيوخها يتدخلون لفض النزاعات بين العائلات والقبائل، معتمدين على الحكم الشرعي والمصالحة الودية. وكان الناس ينظرون إلى شيوخ الزوايا بوصفهم رموزًا للعدل والحكمة، مما جعل قراراتهم تحظى بقبول واسع.
- التكافل الاجتماعي: لعبت الزوايا دورًا في دعم الفقراء والمحتاجين، حيث كانت توفر الطعام والمأوى للزائرين والطلبة، كما كانت تُقام فيها موائد لإطعام الفقراء خلال المناسبات الدينية، مما يعكس روح التضامن التي كانت تنشرها بين أفراد المجتمع.
- مقاومة الاستعمار وحفظ الهوية: أثناء الاحتلال الفرنسي، تحولت العديد من الزوايا إلى مراكز لمقاومة التغريب، حيث قامت بحماية اللغة العربية ونشر الوعي الوطني والديني. كما أسهمت في حفظ الهوية الجزائرية عبر تلقين الأجيال المتعاقبة قيم الإسلام والتراث الثقافي، مما جعلها حصنًا منيعًا ضد محاولات طمس الهوية الوطنية.

7.10. أهم الزوايا في القصبة ودورها في ترسيخ الثقافة الإسلامية

تضم القصبة عددًا من الزوايا التي لعبت أدوارًا محورية في نشر التصوف وتعزيز القيم الإسلامية، ومن أبرزها:

- زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي: تُعتبر من أهم الزوايا في الجزائر، وقد ارتبطت باسم العالم الجليل عبد الرحمن الثعالبي، الذي كان من أبرز العلماء والصوفيين في العصر العثماني. احتضنت هذه الزاوية العديد من طلبة العلم، وتحولت إلى مركز إشعاع علمي وروحي كان له تأثير واسع في مختلف مناطق البلاد.
- زاوية سيدي أمحمد بن عبد الرحمن: أسست هذه الزاوية على يد الشيخ أمحمد بن عبد الرحمن، أحد كبار مشايخ الطريقة الرحمانية، وقد كانت مدرسة صوفية عريقة خرّجت أجيالًا من العلماء، وأسهمت في نشر تعاليم التصوف المبنية على الاعتدال والتسامح.
- زاوية سيدي الحاج محمد بن عيسى: عُرفت هذه الزاوية بتعليمها القرآن الكريم وتكوين طلبة العلم الشرعي، كما كانت مركزًا لنشر الفكر الصوفي القائم على مبادئ الحب الإلهي، والزهد، والتسامح.

لم تكن الزوايا في القصبة مجرد مبانٍ دينية، بل كانت فضاءات حية صنعت جزءًا كبيرًا من تاريخ الجزائر الديني والثقافي. لقد شكلت هذه الزوايا مدرسة روحية وإنسانية تعكس القيم العميقة للإسلام في أبهى تجلياته، حيث امتزج العلم بالتصوف، والتربية بالأخلاق، مما جعلها ركنًا أساسيًا في بناء الهوية الدينية للمجتمع الجزائري، وإلى اليوم تظل هذه الزوايا شاهدة على عصور من العطاء الروحي والفكري، تنبض بأسرار التاريخ وتحمل في جدرانها ذكرى أجيال من العلماء والصالحي.

8.10. المساجد والزوايا في مواجهة التحديات التاريخية

لطالما مثّلت المساجد والزوايا في الجزائر مراكز حيوية لنشر الدين وتعزيز الهوية الثقافية والوطنية، إلا أنها كانت أيضًا عرضة لمختلف التحديات التاريخية التي سعت إلى طمس معالمها وتقويض دورها الروحي والاجتماعي. ورغم ذلك، أبدت هذه المؤسسات الدينية مقاومة صلبة عبر

العصور، سواء من خلال الاحتفاظ بدورها التربوي والديني أو عبر الحفاظ على معمارها الفريد، الذي يعد انعكاسًا للهوية الجزائرية في أبهى صورها.

11. المباني العامة والحكومية

خلال الفترة العثمانية، كانت المباني العامة والحكومية في الجزائر تُعتبر مرآةً حيّة للتنظيم الاجتماعي والسياسي الذي فرضته سلطة الدولة العثمانية، ومن أبرز هذه المباني القصور الفخمة التي بنتها السلطات، مثل قصر الداي. يُعدّ قصر الداي رمزًا للقوة والسيادة، إذ شُيّد بأسلوب معماري يجمع بين البساطة والروعة، ليبرز نفوذ الدولة العثمانية في قلب الجزائر.

يتميز القصر بفناء داخلي واسع يُشكل محور البناء، حيث تُنسّق القاعات الكبيرة والممرات بتناغم متكامل يعكس دقة التخطيط العمراني الروماني المُعدَّل وفقًا للذوق العثماني، هذا الفناء لا يُستخدم فقط كمساحة اجتماعية، بل كان يمثل أيضًا مركزًا لاستقبال الضيوف الرسميين والوفود الأجنبية، مما جعله نقطة محورية للتواصل الدبلوماسي والسياسي.

تزين قاعات القصر الداخلية نقوش وزخارف إسلامية فنية، تعتمد على الزليج والنقوش الجصية المعقدة، تعكس عمق التراث الإسلامي، تُظهر هذه الزخارف إتقان الحرفيين الذين عملوا على تحويل الجدران إلى لوحات فنية تنطق بالأناقة والروحانية، كما أن استخدام المواد المحلية مثل الحجر الجيري والطين في بناء القصر لم يكن مجرد اختيار عملي، بل كان تعبيرًا عن ارتباط المجتمع بالبيئة المحلية واستغلالها بما يخدم استدامة المبنى وقوته أمام تقلبات الزمن.

من الناحية الوظيفية، كان قصر الداي يمثل مقرًا للحكم وإدارة الدولة في الجزائر، فقد كان يُستخدم لاستقبال العاهل، ومجلس الوزراء، والاجتماعات الرسمية التي كانت تتخذ من هذا القصر منصةً لإصدار القرارات السياسية الهامة. هذا الاستخدام المكثف جعله يتسم بنمط حياة رسمي ومهيب، يعكس رؤية السلطة العثمانية في تنظيم الحياة العامة وتعزيز الوحدة الوطنية، إضافة إلى ذلك فإن القصور الحكومية مثل قصر الداي كانت تُعتبر مراكز ثقافية وحضارية، إذ كانت تحتوي على مكتبات وصالات عرض تضم المخطوطات والتحف الفنية التي توثق تاريخ الدولة، هذا الجانب الثقافي لم يكن مجرد زينة معمارية، بل كان يمثل سجلًا تاريخيًا يستحضر ماضي الأمة ويعيد تأكيد الهوية الإسلامية والوطنية في الجزائر.

من منظور أنثروبولوجي، يعكس قصر الداي مدى التلاقي بين البعدين المادي والمعنوي في البناء الحضري، ففيه تتجلى القوة السياسية في الهيكل المعماري المتين والتنظيم الهندسي الدقيق، بينما يظهر الجانب الروحي في النقوش والزخارف التي تُعبّر عن المعتقدات والقيم الدينية، هذا التوازن بين المتطلبات الرسمية والروحانية يمثل نموذجًا فريدًا للعمران الإسلامي الذي تميز بقدرته على دمج الجمال الفني مع الوظائف الحكومية والإدارية.

تُعد القصور الحكومية في القصبة، وعلى رأسها قصر الداي، شواهد حية على تلك الحقبة التي حاولت من خلالها السلطة العثمانية ليس فقط فرض نفوذها السياسي، بل أيضًا بناء هوية حضارية متكاملة تُعزز من قيم التراحم والاتصال الثقافي والاجتماعي. والحفاظ على هذه المعالم وترميمها يمثل أهمية قصوى لضمان استمرارية الذاكرة التاريخية والتراثية، ولتكون مصدر إلهام للأجيال في فهم تاريخهم العريق وتراثهم الحضاري.

12. الحصون والأبراج: تم بناء أبراج وحصون للدفاع عن المدينة، مثل برج المراقبة في أعلى التلة.

في قلب القصبة وفي أعلى التلة التي تُطل على الجزائر العاصمة، برزت الحصون والأبراج كعناصر دفاعية حيوية تشكلت استجابةً للتحديات العسكرية التي واجهتها المدينة عبر القرون. لم تكن هذه الأبراج مجرد هياكل حجرية تقف شامخة، بل كانت تعبيراً عن العقلية الاستراتيجية للمدن الإسلامية، حيث اجتمعت فيها الحاجة إلى حماية السكان والحفاظ على الهوية الحضارية مع تبني تقنيات الدفاع التقليدية.

يُعتبر برج المراقبة الواقع على قمة التلة من أبرز الشواهد على هذا النهج العمراني الدفاعي؛ فقد بُني هذا البرج بمزيجٍ من الدقة الهندسية والتصميم العملي، ليتيح رؤية بانورامية تُخطر القادة بقدوم أي خطر من بعيد. يعكس البرج، من منظور أنثروبولوجي، مفهوم "الفضاء الدفاعي" الذي ربط بين المكان والهوية، حيث كان بمثابة عيون ترقب حدود المدينة، وتُعيد التأكيد على قدرة المجتمع على مواجهة التهديدات الخارجية. وقد ساهم استخدام الحجارة المحلية، وخاصة الحجر الجيري، في بناء هذه الأبراج، ما أضفى عليها صلابة ومتانة جعلتها تصمد أمام تقلبات الزمن وعوامل الطبيعة، بينما تميزت نقوشها البسيطة بلمسة فنية تُعبّر عن الحس الجمالي للعمارة الإسلامية التقليدية.

ولم تكن الحصون والأبراج مجرد معالم عسكرية؛ إذ كانت تُستخدم أيضاً كمنصات للتواصل الاجتماعي والسياسي، ففي فترات الاضطراب اجتمعت فيها القوى الحاكمة لتبادل المعلومات واتخاذ القرارات الاستراتيجية، ما جعلها نواةً في البنية الحضرية للقصبة، هذا التلاقي بين الوظيفة الدفاعية والبعد الاجتماعي يُظهر كيف أن العمارة لم تكن مقتصرة على الجانب المادي فقط، بل كانت وسيلة لبناء هوية حضارية تُعبّر عن صمود المجتمع في مواجهة التحديات.

دراسة الحصون والأبراج في القصبة تُتيح لنا فهماً أعمق لتفاعل الإنسان مع بيئته العسكرية، وكيف ساهمت هذه الهياكل في الحفاظ على استقرار المدينة وتعزيز تراثها التاريخي. إنها ليست مجرد بقايا أثرية، بل هي شهادة على إرادة مجتمع بأكمله في حماية حضارته وتراثه ضد كل محاولات التهديد والغزو.

خامسا: الاحتلال الفرنسي ومحاولات طمس المعالم الدينية ومظاهر المقاومة المحلية

1. الاحتلال الفرنسي ومحاولات طمس المعالم الدينية

1. 1. استهداف الهوية الدينية عبر المساجد والزوايا

عندما احتل الفرنسيون الجزائر عام 1830، أدركوا أن المساجد والزوايا كانت أكثر من مجرد أماكن للعبادة، بل كانت مراكز للتعليم والدعوة والجهاد والمقاومة الثقافية. لذلك، عملوا على إضعاف دورها تدريجيًا، إما بتحويلها إلى منشآت عسكرية وإدارية، أو من خلال التضييق على أنشطتها التعليمية والدينية، بهدف قطع الجزائريين عن جذورهم الروحية وإدماجهم في الهوية الفرنسية.

2.1. تحويل المساجد إلى كنائس وثكنات عسكرية

أحد أبرز الأمثلة على ذلك كان مسجد كتشاوة في القصبة، الذي حولته سلطات الاحتلال إلى كاتدرائية بعد تدمير أجزاء واسعة منه وإزالة معالمه الإسلامية. لم يكن هذا الفعل مجرد تغيير وظيفي، بل كان يحمل رسالة استعمارية تهدف إلى إخضاع الجزائريين نفسيًا عبر طمس رموزهم الدينية والثقافية.

3.1. إغلاق الزوايا وتشديد الرقابة عليها

الزوايا، التي لطالما كانت مراكز لتدريس القرآن والفقه، واجهت هي الأخرى حملة قمعية من السلطات الاستعمارية. حاول الفرنسيون إضعاف نفوذها عبر إغلاق العديد منها، أو فرض رقابة مشددة على ما يتم تدريسه فيها، خشية أن تصبح بؤرًا للمقاومة الفكرية والتحريض ضد الاستعمار.

4.1. التضييق على العلماء ورجال الدين

لم تقتصر الحرب على الحجر، بل امتدت إلى البشر، حيث تعرّض العلماء وشيوخ الزوايا لملاحقات وسجون ونفي، بسبب دورهم في الحفاظ على الهوية الدينية للأمة. وكان الهدف الأساسي من هذه السياسات هو تفريغ المجتمع الجزائري من نخبه الدينية، ليصبح أكثر قابلية للخضوع للهيمنة الثقافية الفرنسية.

2. المقاومة الثقافية والدينية من خلال الحفاظ على المعمار والوظيفة الروحية للمساجد

ورغم هذه المحاولات، لم تستطع فرنسا طمس الهوية الإسلامية بالكامل، فقد واجه الجزائريون هذه السياسات بمقاومة عنيدة، سواء عبر النضال المسلح أو عبر الحفاظ على دور المساجد والزوايا كحصون روحية وثقافية.

1.2. إعادة إحياء الدور الديني والعلمي للمساجد والزوايا

عمل العلماء على مواصلة التعليم في السر، حيث تم نقل الدروس الدينية إلى أماكن أخرى أو تدريسها داخل المنازل والزوايا التي لم يغلقها الاستعمار، مما أسهم في استمرار نشر العلوم الإسلامية.

ظلّ القرآن الكريم محور التعليم، وتم التمسك به كرمز للمقاومة الثقافية، رغم كل محاولات فرنسة المجتمع الجزائري.

2. 2. الحفاظ على المعمار الإسلامي رغم التحديات

بفضل جهود السكان، لم تفقد العديد من المساجد طابعها المعماري الأصيل، رغم محاولات التخريب والتغيير.

بعد استقلال الجزائر عام 1962، بدأت مشاريع واسعة لترميم المساجد التي تضررت، في محاولة لإعادة الوجه الحضاري الإسلامي للبلاد.

3. 2. المساجد كمراكز للمقاومة خلال الثورة التحريرية (1954-1962)

لعبت المساجد والزوايا أدوارًا رئيسية في احتضان الثوار والمجاهدين، حيث كانت بعض الزوايا ملاذًا سريًا لهم.

استخدمت الخطب الدينية في المساجد لنشر الوعي الثوري وحثّ الناس على مقاومة الاحتلال، ما جعل السلطات الفرنسية تفرض رقابة مشددة على أئمة المساجد.

سادسا: جهود الترميم والمحافظة على هذه الصروح الدينية في العصر الحديث

بعد الاستقلال، وعت الدولة الجزائرية بأهمية إعادة الاعتبار للمساجد والزوايا، ليس فقط كمراكز دينية، بل كرموز تاريخية تعكس الهوية الوطنية. ولهذا، أطلقت مشاريع طموحة لترميم هذه المعالم والحفاظ عليها.

- تم ترميم مسجد كتشاوة بعد الاستقلال وإعادته إلى طابعه الإسلامي، ليصبح اليوم واحدًا من أهم معالم الجزائر.
- شهدت مساجد أخرى، مثل مسجد سيدي رمضان ومسجد الباشا، أعمال صيانة مستمرة للحفاظ على تفاصيلها المعمارية الأندلسية والعثمانية.
- تم ترميم جامع الجزائر الكبير، وإعادة تصميمه ليكون واحدًا من أكبر المساجد في العالم، في خطوة تهدف إلى إعادة التأكيد على هوية الجزائر الإسلامية.

1. إحياء دور الزوايا في المجتمع

- عادت الزوايا إلى سابق دورها كمراكز للتعليم الديني، مع تحديث مناهجها لمواكبة العصر.
- تدعمت الزوايا ببرامج حكومية تهدف إلى الحفاظ على المخطوطات القديمة والوثائق التي تحوي تراثًا علميًا هامًا.

2. الاهتمام بالمعمار الإسلامي في المخططات العمرانية الحديثة

- مع التطور العمراني السريع، حرصت الجزائر على الحفاظ على الطابع المعماري الإسلامي في العديد من المشاريع الحديثة، حيث يُستلهم تصميم المساجد الجديدة من الطرز الأندلسية والعثمانية.
- تشجيع الحرفيين التقليديين على مواصلة فنون الزخرفة الإسلامية، مثل الزليج والخط العربي، لضمان بقاء هذه الفنون حية في المشهد العمراني.

رغم التحديات الكبرى التي واجهتها المساجد والزوايا في الجزائر عبر التاريخ، سواء خلال الاستعمار الفرنسي أو في فترات الإهمال بعد الاستقلال، فإنها بقيت شامخة تؤدي دورها الروحي والثقافي والاجتماعي. واليوم، مع تزايد الوعي بأهميتها، تتواصل الجهود لترميمها والحفاظ على معمارها ووظيفتها الدينية، لتظل شاهدة على تاريخ الجزائر العريق، ورمزًا لصمود شعبها أمام كل محاولات الطمس والتغريب.

سابعا: العناصر الزخرفية كحصيلة ثقافية لمتتالية تأثيرات حضارية

تُشكّل العناصر الزخرفية في قصبة الجزائر نافذةً حيوية على التعبير الفني والثقافي الذي رافق تطور العمارة الإسلامية في المنطقة، فمن خلال استخدام الزليج الذي يُعرف أيضاً بالفسيفساء، تبرز الجدران والأرضيات كلوحات فنية نابضة بالألوان تتداخل فيها قطع السيراميك الملون في أنماط هندسية متقنة. يعكس الزليج هنا ليس فقط الحس الجمالي الذي اتسمت به الحضارة الإسلامية، بل أيضًا روح التجديد والتفاعل مع البيئة المحلية، حيث تُركّب هذه القطع بعناية فائقة لتُكوّن أنماطاً هندسية تعبر عن التناغم بين الرياضيات والفن.

كما يُضيف النقش الجصي بعدًا آخر من الروحانية والدقة الفنية إلى المباني، إذ يتم نحت الجص بأسلوب يُبرز الزخارف النباتية والهندسية المعقدة، هذه النقوش ليست مجرد زخارف سطحية، بل هي تعبير عن فلسفة التوحيد والاتصال بين الإنسان والكون، حيث يتكرر النمط الهندسي في زخارف الجص كرمز للتواصل المستمر بين الخالق والمخلوق. تبرز هذه الأعمال الفنية اليدوية براعة الحرفيين الذين حملوا على أيديهم إرثاً عريقاً من المعرفة التقليدية، ما يجعل كل قطعة جصية حكاية تنبض بتاريخ فني وثقافي.

وتكتمل الصورة المعمارية عبر الأقواس المنقوشة التي تتزين بها مداخل النوافذ والأبواب، إذ تشكل هذه الأقواس مداخلاً فنية لا غنى عنها في العمارة الإسلامية. تميل الأقواس إلى التأكيد على الانسيابية والتدفق في التصميم، حيث تُنقش عليها نقوش دقيقة تحمل طابعاً إسلامياً من الخط العربي والزخارف الهندسية المتداخلة، وتُعدّ هذه الأقواس بمثابة عناوين بصرية تبرز أهمية التصميم كجزء من الهوية الثقافية، مما يربط بين الجمال العملي والرمزية الروحية للمباني.

من منظور أنثروبولوجي، تُعبر هذه العناصر الزخرفية عن تفاعل الإنسان مع محيطه الثقافي والبيئي، حيث لم تكن مجرد إضافات تجميلية بل كانت وسيلة لتوثيق الهوية والقيم الدينية والاجتماعية، فقد حملت هذه الزخارف معاني عميقة ترسخ الذاكرة الجماعية للمجتمع، وتوثّق التراث الفني الذي انتقل من جيل إلى جيل عبر العصور، كما أنها تُظهر قدرة الحضارة الإسلامية على استثمار الموارد المحلية وتكييفها لتناسب معايير الجمال والوظيفة في آنٍ واحد.

إن دراسة هذه العناصر الزخرفية في قصبة الجزائر تُعد بمثابة استكشاف لعمق العلاقة بين الفن والهوية، حيث يظهر الزليج والنقوش الجصية والأقواس المنقوشة كرموز حية للتاريخ المتفاعل، الذي لا ينفصل عن التجارب الإنسانية والبيئية، بهذا يصبح التراث الزخرفي في القصبة مرآة تعكس قصص حضارة عريقة وحكايات شعبية غنية، وهو ما يستدعي الحفاظ عليه وتعميمه كجزء من الهوية الوطنية والثقافية للجزائر.

1. التأثيرات الثقافية

تشكل القصبة، بمبانيها العريقة وأزقتها المتعرجة، فسيفساء معمارية تعكس تعاقب الحضارات والتأثيرات الثقافية التي مرت بها الجزائر عبر القرون. ومن أبرز هذه التأثيرات التي تركت بصمتها العميقة على النسيج العمراني للقصبة التأثير الأندلسي والعثماني، حيث انصهرت هاتان المدرستان المعماريتان لتشكلا طابعًا معماريًا مميزًا، تتجلى فيه ملامح الأناقة والوظيفية والدفاعية في آنٍ واحد.

1.1. التأثير الأندلسي: عمارة الفناء والزخارف النباتية

بعد سقوط غرناطة عام 1492، وجد آلاف المسلمين واليهود في الجزائر ملاذًا آمنًا، حاملين معهم إرثًا معماريًا غنيًا ومتميزًا. وقد انعكست هذه الهجرة على النمط العمراني للقصبة، حيث استُخدمت العناصر الأندلسية على نطاق واسع، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من الهوية البصرية للمكان.

من أهم السمات الأندلسية التي تجسدت في عمارة القصبة:

- الفناء الداخلي (الصحن): أصبح الفناء قلب المبنى السكني، حيث يُستخدم كمساحة للتهوية الطبيعية وتلطيف المناخ الداخلي، كما يوفر خصوصية لأفراد العائلة بعيدًا عن الشوارع المزدحمة. غالبًا ما تحيط بهذا الفناء أروقة مقوسة، تفتح على غرف السكن، ويتوسطه نافورة ماء تعزز الإحساس بالهدوء والسكينة.
- الزخارف النباتية والهندسية: انعكست التأثيرات الأندلسية أيضًا في الزخرفة الداخلية والخارجية للمباني، حيث زُينت الجدران بالزليج متعدد الألوان، كما استُخدمت النقوش الجصية المنحوتة بدقة لإضفاء لمسة جمالية مبهرة. زخارف الأرابيسك المتشابكة، التي تجمع بين الأشكال الهندسية والنباتية، كانت سمة بارزة تعكس فلسفة الجمال والتناغم في العمارة الإسلامية.
- الأسقف الخشبية المزخرفة: استعانت العمارة الأندلسية بالأخشاب المنحوتة والمزخرفة لإنشاء أسقف جميلة ذات طابع هندسي معقد، حيث كانت تُستخدم الأخشاب المحلية لتغطية الأسقف وإضافة لمسات زخرفية متميزة.

2.1. التأثير العثماني: القصور الفخمة والأبراج الدفاعية

مع دخول الجزائر تحت الحكم العثماني في القرن السادس عشر، شهدت القصبة تحولات عمرانية كبيرة، إذ أدخل العثمانيون مفاهيم معمارية جديدة عززت الوظائف السكنية والدفاعية والإدارية للمدينة.

من أبرز ملامح التأثير العثماني في العمارة:

- القصور الفخمة: قام العثمانيون بتشييد قصور ضخمة ذات طابع شرقي فخم، مثل قصر الداي، حيث تميزت هذه القصور بمساحاتها الواسعة، وفنائها الداخلي الذي يُحاكي الطابع الأندلسي، إلا أن العثمانيين أضافوا إليه عناصر زخرفية أكثر تعقيدًا، مثل الأبواب الخشبية المزخرفة والمشربيات التي تضمن التهوية والخصوصية.
- الأبراج والحصون الدفاعية: نظرًا للأهمية الاستراتيجية للجزائر في المتوسط، بنى العثمانيون مجموعة من الأبراج والحصون للدفاع عن المدينة من الهجمات البحرية، مثل برج المراقبة في

أعلى التلة، والذي يُستخدم كمنصة لرصد تحركات السفن، إضافة إلى القلاع التي شُيدت لحماية المدينة من الغزو الأجنبي.

- التنظيم الحضري العسكري: كان للعهد العثماني تأثير كبير على تخطيط القصبة، حيث شُيدت الأحياء وفق نظام هرمي يتناسب مع الوضع الاجتماعي، فكانت مساكن النخبة العثمانية قريبة من مراكز الحكم، بينما توزعت الأسواق والمرافق العامة في مناطق يسهل الوصول إليها.

3. اندماج التأثيرات وتشكيل هوية القصبة

لطالما كانت المدن العريقة انعكاسًا حيًا للحضارات المتعاقبة التي مرت بها، فتتشكل ملامحها العمرانية كوثيقة صامتة تروي قصص التلاقح الثقافي والتفاعل الإنساني عبر الزمن. والقصبة، التي تعد جوهرة الجزائر المعمارية، ليست استثناءً لهذه القاعدة، بل تمثل نموذجًا فريدًا لمدينة استطاعت أن تحتضن التأثيرات الأندلسية والعثمانية دون أن تفقد هويتها المحلية، مما جعلها فضاءً معقدًا لكنه متجانس، ينبض بروح الأصالة والانفتاح في آنٍ واحد.

إن اندماج التأثيرات الأندلسية والعثمانية في القصبة لم يكن مجرد عملية معمارية سطحية، بل هو انعكاس لأنماط اجتماعية واقتصادية وسياسية أفرزتها ظروف الهجرة والحكم وتفاعل المجتمعات. فمع سقوط غرناطة عام 1492، تدفقت موجات من الأندلسيين المسلمين واليهود إلى مدن شمال إفريقيا، حاملين معهم نمط حياة متكاملًا يشمل أساليب البناء، وفنون الزخرفة، وتقنيات التنظيم الحضري. ولم تكن هذه التأثيرات أحادية الاتجاه، بل تفاعلت مع النسيج العمراني القائم، محدثة تحولات جوهرية في شكل المدينة ووظائفها، حيث أصبح الفناء الداخلي عنصرًا معماريًا أساسيًا في البيوت، وتزينت الجدران بالزليج المزخرف، فيما برزت الأروقة المقوسة والمشربيات كعناصر تعكس فلسفة الخصوصية والانفتاح في الوقت ذاته.

ومع دخول العثمانيين إلى الجزائر في القرن السادس عشر، حملوا معهم رؤيتهم الإدارية والعسكرية التي تجسدت في التخطيط الحضري الجديد للقصبة. فبينما طغى الطابع السكني والتجاري على النمط الأندلسي، جاء العثمانيون بنظرة مركزية جعلت من القصبة مقرًا للحكم، حيث شُيد قصر الداي كرمز للسلطة، وأُنشئت الأبراج الدفاعية والحصون لحماية المدينة من الغزو الأوروبي، وهو ما يعكس التحول من عمارة مدنية–تجارية إلى عمارة دفاعية–إدارية ذات طابع استراتيجي.

وبعيدًا عن الجانب المادي، يعكس اندماج التأثيرات في القصبة ديناميكيات اجتماعية معقدة، حيث شكّلت هذه المدينة بوتقة انصهرت فيها الهويات المختلفة ضمن نسيج حضري واحد. فالمساجد، التي تحمل بصمات أندلسية في زخرفتها وجمالية محاريبها، أدت أدوارًا اجتماعية وتعليمية تجاوزت البعد الديني، حيث تحولت إلى مراكز لنقل المعرفة والتأطير الروحي. أما الزوايا، فقد حملت الطابع الصوفي العثماني الذي يعكس رؤية روحية للمجتمع، حيث لم تكن مجرد أماكن للعبادة، بل فضاءات للتربية والإصلاح الاجتماعي، ساهمت في تعزيز التماسك بين سكان المدينة.

إن هذا التداخل الثقافي لا يمكن فهمه خارج سياق التحولات التاريخية التي مرت بها القصبة، فالمدينة لم تكن مجرد مستقبلٍ لهذه التأثيرات، بل كانت فاعلًا في إعادة إنتاجها وتكييفها وفق احتياجاتها المحلية. فعلى الرغم من الهيمنة العثمانية على المجال السياسي، إلا أن البعد الأندلسي ظل راسخًا في الثقافة اليومية، سواء من خلال العادات والتقاليد أو في طريقة تنظيم الفضاءات الداخلية للمنازل، التي حافظت على النمط الأندلسي القائم على الفصل بين المجال الخاص والعام.

واليوم، لا تزال هذه التأثيرات العمرانية شاهدة على عصور من التبادل الثقافي والابتكار المعماري، حيث يمكن للزائر أن يلمس امتزاج الطرازين في كل زاوية من القصبة، من تفاصيل الأبواب الخشبية المزخرفة إلى أقواس الممرات الضيقة التي تحمل عبق التاريخ. لكن هذه الهوية المندمجة تواجه تحديات في ظل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة، مما يطرح تساؤلات حول كيفية المحافظة على هذا التراث دون أن يتحول إلى مجرد مشهد متحفي يفقد وظيفته الحية.

خلاصة الفصل الثالث:

يكشف تحليل التراث المادي لقصبة الجزائر أن العمران لا يمكن اختزاله في بنيات حجرية أو أنماط معمارية متعاقبة، بل ينبغي قراءته بوصفه نظامًا دلاليًا كثيفًا، تتقاطع فيه الذاكرة الجماعية، وأنماط التنظيم الاجتماعي، وتمثلات السلطة، وأشكال المقاومة الرمزية. فالقصبة، في بنيتها العمرانية، ليست مجرد فضاء سكني تاريخي، وإنما هي تجسيد مادي لعقل جمعي أنتج شكلًا حضريًا متلائمًا مع بيئته، ومعبّرًا عن قيم الخصوصية، والتكافل، والتدرج الاجتماعي.

لقد أظهر تتبع التحولات العمرانية أن النسيج العضوي للقصبة لم يتشكل وفق منطق هندسي محض، بل ضمن سيرورة تاريخية تراكمية، تفاعلت فيها طبقات حضارية متعددة – أمازيغية، أندلسية، عثمانية – لتنتج هوية معمارية هجينة، غير منغلقة، لكنها في الوقت ذاته متجذرة محليًا. ومن هنا فإن "التلاقح الحضاري" لا يُفهم بوصفه ذوبانًا في الآخر، بل باعتباره آلية إنتاج للخصوصية عبر الامتزاج الانتقائي وإعادة التأويل، كما بيّن الفصل أن المعمار في القصبة لم يكن محايدًا، بل كان دومًا مجالًا للصراع الرمزي. فقد شكّل الاحتلال الفرنسي لحظة قطيعة حاولت إعادة هندسة المجال وفق منطق كولونيالي يستهدف تفكيك البنية الاجتماعية وإعادة ترتيبها. غير أن هذا التدخل لم يُلغِ البعد الرمزي للفضاء، إذ استمرت الجماعة في ممارسة أشكال من المقاومة اليومية، حافظت من خلالها على دلالات المكان، حتى وإن تبدّلت بعض ملامحه.

وفي المرحلة المعاصرة، تتجلى مفارقة واضحة: حضور مادي متآكل يقابله اعتراف رسمي بالحفظ والترميم. غير أن مقاربات الصون ظلت في كثير من الأحيان تقنية ومعمارية الطابع، تُعنى بالشكل أكثر من المعنى، وبالجدار أكثر من الإنسان. وهنا يتأكد أن الحفاظ على التراث المادي لا يتحقق بترميم البنية فحسب، بل بإعادة وصلها بسياقها الاجتماعي الحي، أما العناصر الزخرفية، فقد كشفت عن كونها خلاصة متراكمة لمتتاليات حضارية متداخلة، حيث تتحول الزخرفة إلى خطاب بصري يختزن أنظمة رمزية عميقة، ويعيد إنتاج الانتماء من خلال التفاصيل الدقيقة التي تمنح المكان روحه الخاصة. بناءً على ذلك، يمكن القول إن التراث المادي لقصبة الجزائر يمثل بنية مركبة تتأرجح بين الحضور والاندثار: حضور في الذاكرة والرمز والاستمرارية الاجتماعية، واندثار في الهشاشة العمرانية والضغوط المعاصرة. وهو ما يفرض مقاربة أنثروبولوجية تتجاوز القراءة الأثرية أو الجمالية، لتتعامل مع المعمار باعتباره فعلًا اجتماعيًا متجسدًا، ومرآة لتحولات الجماعة في علاقتها بالزمن والسلطة والمكان.

الفصل الرابع

الفصل الرابع: التراث اللامادي في قصبة الجزائر

تمهيد:

في قلب المدينة العتيقة، حيث تتشابك الأزقة الضيقة وتتردد الخطى على بلاطٍ صقيل صقله الزمن، ينبض تراث غير مرئي، لكنه حيّ، عميق، ومتجذّر في بنية الوعي الجمعي؛ إنه التراث اللامادي، ذلك الذي لا يُقاس بالحجر، بل يُستدل عليه في الذاكرة، واللسان، واليد، والإيقاع، وفي كل ما لا يُرى إلا من خلال التكرار الحيّ داخل الحياة اليومية. يُمثّل التراث اللامادي لقصبة الجزائر مستودعًا رمزيًا للمعاني، حيث تتجلى علاقات الجماعة مع ماضيها من خلال الممارسات، الطقوس، الحرف، واللغة، في حركة مستمرة من إعادة التوليد الثقافي.

من منظور أنثروبولوجي، لا يُمكن اختزال التراث في المعمار وحده، لأن ما يُعطي للحجر معناه، هو الإنسان الذي يسكنه، والعادات التي تُمارس داخله، والطقوس التي تُقام بين جدرانه. في القصبة، كل تفصيل يومي – من طقوس الأعراس، إلى دقات النحاس، إلى لفّ الحايك، إلى سرد الحكاية الشعبية – هو فعل ثقافي حيّ، يعيد إنتاج الانتماء ويكرّس استمرار الهوية في وجه النسيان أو الاستلاب.

التراث اللامادي هنا لا يعمل فقط بوصفه مكوّنًا للثقافة، بل كآلية لتثبيت العلاقات الاجتماعية، وتوزيع الأدوار، وترسيخ الرموز والمعاني. فالحرف التقليدية، على سبيل المثال، لا تُعدّ مجرد مهارات مادية، بل هي "لغات" تحمل في طياتها رؤى العالم، وأنماط التفاعل مع البيئة والآخر. أما الأزياء التقليدية، فليست مجرد لباس، بل تمثيلات رمزية للجندر، والانتماء الطبقي، والموقع الاجتماعي. وكذلك الأغاني الشعبية، والحكايات، والحلي، والطقوس الدينية أو الاجتماعية، كلّها تؤلف نسيجًا غير مرئيًا لكنه قوي، يُشكّل ما يمكن تسميته بـ"الروح الثقافية للقصبة.

إن هذا التراث اللامادي، برغم هشاشته الظاهرة، يتمتع بقوة استمرارية عجيبة، لأنه ينسج ذاته من خلال الشفاهة، والمحاكاة، والتكرار الطقوسي، أكثر من الوثائق والكتابة، ومع ذلك فإنه يُواجه اليوم مخاطر الاندثار في ظل التغيرات الاقتصادية، والتحولات العمرانية وانقطاع السلاسل التناقلية بين الأجيال.

وعليه فإن هذا الفصل يُقارب التراث اللامادي لقصبة الجزائر باعتباره ميدانًا أنثروبولوجيًا معقدًا، يستحق القراءة والتحليل لا بوصفه ماضيًا ميتًا، بل حاضرًا متحوّلًا، يتفاعل مع التحوّلات، ويعيد تشكيل ذاته من خلال الاحتكاك بالزمن، وبالآخر، وبالحداثة. سنخوض في هذا الفصل في عوالم الحرف، الأزياء، الرموز، الأغاني، الحكايات، الطقوس، والعادات، كاشفين عن آليات إنتاج المعنى في الحياة اليومية لسكان القصبة، وموقع اللامادي في معمار الهوية.

قد يبدو، للوهلة الأولى، أن تصنيف "الحمامات" و"الأسواق" ضمن مكونات التراث اللامادي ينطوي على مفارقة منهجية، بالنظر إلى أن كليهما يتجسدان في فضاءات عمرانية ملموسة، قائمة على البنية، والطوب، والتوزيع المكاني. غير أن المقاربة الأنثروبولوجية التي اعتمدتها هذه الأطروحة تبتعد عن الحصر البنيوي للأمكنة، لتقترب أكثر من فهمها كمجالات اجتماعية دالة، حافلة بالمعاني والرموز، وعامرة بالممارسات اليومية المتجذرة في الذاكرة الجماعية.

لقد تمّ النظر إلى الحمّام، لا باعتباره فقط فضاءً معمارياً عثمانيَّ الطابع، بل بوصفه مسرحًا لطقوس عبور اجتماعي، ولشبكات تفاعل نسائية ورجالية تنسج معاني الطهارة، والشرف، والجمال، والتجدد الجسدي والروحي. فالحمام في سياقه القصباوي ليس مجرد مبنى، بل هو ممارسة ثقافية حيّة، تتناقلها الأجيال عبر طقوس العرس، ومواضعات النفاس، ومراسم الحلاقة الأولى للصبيان، وما يصاحب ذلك من مواويل، وتعازيم، وأدعية، هذا البُعد الرمزي والاجتماعي هو ما جعل الحمام أقرب إلى الحقل اللامادي، دون أن نغفل بنيته المادية المرافقة.

أما الأسواق، فقد استُحضرت في هذا البحث بوصفها ذاكرةً جماعية تتحرك في المكان. السوق ليس فقط سلسلة محلات أو أزقة بيع، بل هو نَصّ اجتماعي مفتوح على أنماط التفاوض، وطرائق التبادل، وطقوس البيع والشراء، ولهجات الباعة، وحركات الزبائن، وتقاليد التعامل. فـ "السوق القصباوي" هو فضاء تُعاد فيه يوميًا كتابة العلاقة بين الاقتصاد والمعنى، بين السلعة والهوية، وهو ما يدفعنا إلى اعتباره امتدادًا حيًّا للثقافة الشعبية، أكثر من كونه مجرد بنية مادية. تصنيف هذه الفضاءات ضمن التراث اللامادي لا يعني إلغاء ماديتها، بل هو انحياز معرفيٌّ إلى البُعد المُعاش والرمزي فيها، وإبرازٌ لما تحمله من شبكات معنى وتفاعل اجتماعي، يهدده الاندثار أكثر مما تهدده عوامل التآكل الفيزيائي، ومن هذا المنظور يصبح كل من الحمّام والسوق فضاءً لمقاومة النسيان، لا بالمعمار فقط، بل بالطقوس اليومية التي تمنحهما حياةً ممتدة تتجاوز الجدران.

أولا: حمامات القصبة: عمارة الماء والتقاليد الاجتماعية

تُعدّ الحمامات التقليدية في قصبة الجزائر من أهم المعالم العمرانية التي تعكس الطابع الاجتماعي والثقافي للمدينة، فإلى جانب دورها الوظيفي في توفير النظافة والاسترخاء، كانت هذه الحمامات فضاءات اجتماعية تُنسج فيها العلاقات، وتتوطد الصلات بين مختلف فئات المجتمع، مما يجعلها مؤسسات ذات طابع أنثروبولوجي يتجاوز مفهومها المادي إلى أبعاد رمزية وثقافية عميقة.

تعود أصول الحمامات العامة في الجزائر إلى العهد الروماني، حيث كانت جزءًا من المرافق الحضرية في المدن القديمة، لكن مع دخول الإسلام وانتشار الثقافة العثمانية، تطورت هذه الحمامات لتأخذ طابعًا جديدًا يتناسب مع الأحكام الشرعية والعادات المحلية. في العهد العثماني، شهدت الحمامات ازدهارًا كبيرًا، حيث أصبح لكل حي تقريبًا حمام خاص به، مما يعكس الاهتمام الكبير بالنظافة والراحة، إضافةً إلى الأدوار الاجتماعية التي كانت تؤديها هذه المؤسسات. "في القصبة لا يمكن احصاء الحمامات القديمة، خاصة ان عددها انخفض بعد زلزال 1716م الذي غير وجه القصبة كثيرا، وكانت هذه الحمامات تصطف خارج المدينة من شارع لالير او زنيقة العرايس إلى شارع بروس"[1].

1. التصميم المعماري لحمامات القصبة: بين الجمالية الوظيفية والعبقرية البيئية

يتميز الحمام التقليدي في قصبة الجزائر بتصميم معماري دقيق ومتناسق يجمع بين الوظيفة العملية والجمالية المعمارية، إذ صُمّم بطريقة تستجيب للبيئة المناخية والاجتماعية، مما جعله فضاءً مريحًا ودافئًا يلبّي احتياجات سكان المدينة على مر العصور. ورغم التشابه الكبير بين الحمامات العثمانية في المنطقة المغاربية، إلا أن حمامات القصبة تمتلك طابعًا خاصًا يعكس روح المدينة وتقاليدها.

1.1. النمط المعماري العام للحمامات التقليدية

[1] فاروق كداش، رحلة إلى حمامات القصبة العتيقة، نقلا عن الموقع الالكتروني: https://www.echoroukonline.com/%D8%B1%D8%AD%D9%84%D8%A9-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%AD%D9%85%D8%A7%D9%85%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B5%D8%A8%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%AA%D9%8A%D9%82%D8%A9 ، يوم 13-04-2025 س : 14.05

يرتكز بناء الحمامات على تصميم مدروس يأخذ بعين الاعتبار الانسجام بين الحرارة والرطوبة، وبين الفضاءات الخاصة والعامة، حيث تُنظّم الغرف بطريقة تمنح الزائر تجربة متدرجة في الحرارة والرطوبة، تبدأ من المناطق الباردة وتنتهي في المناطق الساخنة. يعتمد هذا التصميم على الوظيفة الحرارية والتكييف الطبيعي دون الحاجة إلى وسائل حديثة للتدفئة أو التهوية.

2.1. الهيكل العام والتخطيط الداخلي

يتمحور الحمام حول تسلسل وظيفي يبدأ من المدخل نحو العمق، وفق ترتيب معماري يحافظ على الخصوصية والراحة الحرارية، ويتكون من عدة أقسام رئيسية:

1.2.1. المَدْخل (المسلخ أو البرّاني)

- يُعتبر منطقة استقبال، حيث يخلع الزوار ملابسهم قبل الدخول إلى الحمام الفعلي.
- يتميز بكونه أكثر برودة مقارنة ببقية الأجزاء، ومُغطّى غالبًا بسقف مقبب تتخلله فتحات صغيرة للإضاءة الطبيعية.
- يحتوي على مصطبات **(دكك)** لجلوس الزوار قبل الدخول أو بعد الخروج، وعادةً يكون مزينًا بزخارف فسيفسائية أو جصية.

2.2.1. الغرفة الباردة (الدخلة أو البرّاني الداخلي)

- تُعتبر منطقة انتقالية بين الجو الخارجي الدافئ وحرارة الحمام الداخلية.
- تُهيّئ الجسم تدريجيًا قبل دخول الغرف الأكثر سخونة.
- تُستخدم أحيانًا كمكان للاستراحة قبل المغادرة.

3.2.1. الغرفة الدافئة (الوسطاني)

- تتوسط الحمام وتشكّل مرحلة بين الغرفة الباردة والغرفة الساخنة.
- تتميز بدرجة حرارة معتدلة، وتُستخدم للاستراحة أو التجهيز للحمام الساخن.
- غالبًا ما تكون مزودة بمقاعد حجرية أو رخامية، وتستخدم للوضوء أو جلسات التدليك الخفيفة.

4.2.1. الغرفة الساخنة (بيت النار أو الجواني)

- تُعتبر القلب النابض للحمام، حيث تبلغ الحرارة أقصاها.
- تحتوي على أحواض حجرية أو خزفية مملوءة بالمياه الساخنة والباردة لمزجها حسب رغبة المستخدم.
- يتميز سقفها بقباب تتخللها فتحات تهوية صغيرة تضمن خروج البخار دون فقدان الحرارة.
- يُستخدم هذا القسم للاستحمام، التدليك، وحمامات البخار، وكان يُعتبر المكان الأكثر قدسية في الحمام.

5.2.1. غرفة النار والتسخين (السخان أو الجابية)

- تقع في الجزء السفلي أو الخلفي للحمام، حيث تُستخدم الأخشاب أو الفحم لتسخين المياه.
- يعتمد الحمام على نظام تسخين سفلي، حيث تُوزّع الحرارة عبر قنوات تحت الأرض تُسمّى **الهيبوكوست**، وهو نظام قديم مستوحى من الهندسة الرومانية.

3. العناصر المعمارية والتقنيات المستخدمة

1.3. الأسقف والقباب

- تتميز الحمامات بأسقف مقببة أو نصف كروية تساعد على الاحتفاظ بالحرارة داخل الحمام، مع تقليل تراكم الرطوبة.
- تحتوي القباب على فتحات صغيرة للسماح بدخول ضوء الشمس، مما يوفر إضاءة طبيعية ناعمة دون الإضرار بدرجة الحرارة.

3.2. الجدران والمواد المستخدمة

- تُبنى الجدران من الحجر الجيري أو الطوب الطيني المغطى بطبقة جصية لمنع تسرب الرطوبة.
- يُستخدم الجير والزليج في تزيين الجدران، مما يُضفي لمسة جمالية مع الحفاظ على المقاومة العالية للرطوبة.

3.3. الأرضيات والمصاطب

- تُصنع الأرضيات من الرخام أو بلاط الطين المزجج، مما يساعد على تخزين الحرارة وتوزيعها بشكل متساوٍ.
- بعض الحمامات تحتوي على مصاطب حجرية حيث يجلس الزبائن لتلقي جلسات التدليك أو الاسترخاء.

4.3. أنظمة المياه والتدفئة

- تعتمد الحمامات على نظام قنوات تحت الأرض يُسخّن المياه ويوزّعها عبر الأحواض.
- يتم تصريف المياه المستخدمة عبر مجارٍ حجرية تضمن عدم تراكم المياه الراكدة.

4.الجمالية المعمارية والتأثيرات الثقافية

رغم أن الحمامات وظيفية بطبيعتها، إلا أنها تحمل لمسات جمالية راقية تتجلى في العناصر الزخرفية مثل:

- الأقواس المزخرفة التي تفصل بين الغرف وتضفي انسيابية على التصميم.
- الزليج التقليدي بألوانه الزرقاء والخضراء، والذي يعكس الطابع الأندلسي العثماني.
- النقوش الجصية ذات الطابع الهندسي والنباتي، والتي تزين الجدران والأسقف.

1.4. العلاقة بين التصميم والوظيفة الاجتماعية

لم يكن التصميم المعماري للحمام مجرد استجابة للحاجات الجسدية، بل كان يعكس أبعادًا اجتماعية وثقافية هامة:

- فصل النساء عن الرجال عبر تخصيص ساعات مختلفة أو وجود حمامات خاصة لكل جنس.
- توفير مساحات للاستراحة والتواصل الاجتماعي، حيث تتحول الحمامات إلى مراكز تفاعل بين السكان.
- توفير مستويات حرارة مختلفة تناسب احتياجات الزوار، مما يعكس فهماً عميقًا للعادات الصحية والتقاليد المحلية.

4. مقارنة مع الحمامات العثمانية والمغاربية الأخرى

- تشترك حمامات القصبة مع الحمامات العثمانية في التصميم الداخلي، خاصةً من حيث استخدام القباب والأقواس.
- تختلف عن الحمامات المغربية التي غالبًا ما تكون أكثر زخرفة وتحتوي على ممرات مائية مفتوحة داخل الغرف.
- تتشابه مع الحمامات التونسية من حيث استخدام الطوب والجير، لكنها تختلف في ترتيب الغرف وأحجامها.

يظل التصميم المعماري لحمامات القصبة نموذجًا فريدًا يجمع بين البساطة والعبقرية الوظيفية، حيث يعكس مزيجًا من التأثيرات الرومانية، الإسلامية، والعثمانية. وقد أثبت هذا التصميم قدرته على التكيف مع المناخ المحلي وتلبية الاحتياجات الاجتماعية للسكان، مما يجعل الحمامات جزءًا لا يتجزأ من المشهد العمراني والتاريخي للقصبة. ومع التغيرات الحضرية الحديثة، يظل الحفاظ على هذه المعالم المعمارية أمرًا ضروريًا للحفاظ على هوية المدينة وتراثها الغني.

6. الحمامات التقليدية في قصبة الجزائر: دورها الاجتماعي والثقافي عبر التاريخ

لطالما كانت الحمامات العامة جزءًا لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي والثقافي للمدن الإسلامية، وحمامات قصبة الجزائر ليست استثناءً، بل تمثل نموذجًا متميزًا يعكس التقاليد، والعادات، وأنماط الحياة التي سادت عبر العصور. لم تكن الحمامات مجرد أماكن للاغتسال، بل كانت فضاءً اجتماعيًا متعدد الوظائف، يجمع بين الطهارة الجسدية، والتواصل الاجتماعي، والممارسات الثقافية والروحية. كانت الحمامات في القصبة ملتقىً للنقاشات، وطقوس الزواج، والمناسبات الدينية، وحتى للحفاظ على الصحة العامة، مما جعلها مؤسسات مجتمعية ذات أهمية بالغة.

"تعتبر الحمامات أحد المنشآت الأساسية في الحضارة الإسلامية، وقد ارتبط اسمها ووظيفتها بالطهارة بصفة خاصة، وبالنظافة بصفة عامة فال عزو في ذلك أن تصبح الحمامات من أهم العناصر العمومية في المدينة الإسلاميةّ"[1].

1. 6. الدور الاجتماعي للحمامات في قصبة الجزائر

1. 1. 6. الحمام كفضاء اجتماعي للتواصل والتفاعل

كانت الحمامات تمثل نقاط التقاء مركزية لسكان القصبة، حيث يجتمع الرجال والنساء كلٌ في أوقاته المحددة، ويتبادلون الأخبار والقصص ويتناقشون في شتى المواضيع. لم يكن الحمام مجرد مكان للاستحمام، بل كان بمثابة منتدى شعبي تتفاعل فيه مختلف شرائح المجتمع، حيث تجتمع النساء لتبادل أخبار العائلات، ويتجمع الرجال لمناقشة أمور الحياة اليومية.

- **للرجال:** كان الحمام مكانًا يجمع كبار السن والشباب، حيث تُناقش القضايا الاجتماعية، ويتم تبادل الآراء حول الأوضاع السياسية والتجارية. كما كان الحمام يهيئ الرجال قبل المناسبات الكبرى مثل الأعراس، أو بعد العودة من السفر، أو حتى قبل صلاة الجمعة.
- **للنساء:** كان الحمام فضاءً خاصًا جدًا للنساء، حيث يجدن فيه فرصة للخروج من المنازل، والتفاعل مع الصديقات والقريبات في جوٍ من الخصوصية التامة. كانت النساء يتبادلن وصفات الجمال، ويناقشن شؤون الأسرة، ويخططن للزيجات، ويتشاركن في الأغاني والأهازيج التي تزيد المكان حيوية.

2. 1. 6. الحمام كمؤسسة للزواج والتجهيزات العائلية

ارتبطت الحمامات ارتباطًا وثيقًا بطقوس الزواج في المجتمع الجزائري، خاصة في القصبة، حيث كانت العروس تخضع لمجموعة من الطقوس الاحتفالية داخل الحمام. كان من الضروري أن تزور العروس

[1] فاطيمة الزهرة جمعي، **حمامات مدينة القصبة في العهد العثماني**، مجلة دراسات تراثية، عدد:15، معهد الآثار جامعة الجزائر، الجزائر، 2021، ص129

الحمام مع قريباتها وصديقاتها قبل يوم الزفاف، فيما يعرف بـ "حمام العروس"، وهي مناسبة احتفالية تُغنى فيها الأغاني التقليدية، وتُقام فيها طقوس تحضيرية للزفاف.

- كانت العروس تجلس وسط الحمام محاطة بصديقاتها وأفراد عائلتها، حيث تُزين بالحناء والعطور، ويتم تحضيرها نفسيًا وجسديًا للحياة الزوجية.
- بعض العائلات كانت تُقيم حفلات في الحمام مصحوبة بالطبول والغناء، حيث يتم رش العروس بالماء المعطر، وتُقدم لها الحلويات التقليدية.

- كان يُعتقد أن هذه الطقوس تجلب البركة والسعادة للعروس، وتحميها من العين والحسد، لذا كانت تعتبر جزءًا أساسيًا من مراسم الزواج التقليدي.

3. 1. 6. الحمام كمكان للعناية الصحية والتداوي

إلى جانب وظيفته الاجتماعية، كان الحمام يلعب دورًا مهمًا في الحفاظ على الصحة العامة، إذ كان يُستخدم كوسيلة للتطهير من الأمراض والتداوي بفضل بخاره الساخن وتأثيره العلاجي.

- كان الأطباء التقليديون ينصحون المرضى باستخدام حمامات البخار لعلاج بعض الأمراض التنفسية مثل الربو والتهاب الشعب الهوائية.

- كان يُعتقد أن الماء الساخن والبخار يُساعدان في تنشيط الدورة الدموية وتخفيف آلام المفاصل والروماتيزم.

- النساء الحوامل كن يزرن الحمام بانتظام لتسهيل الولادة، إذ كان يُعتبر الحمام مكانًا مثاليًا للاسترخاء وإعداد الجسد للولادة.

- بعض الحمامات كانت تحتوي على زوايا مخصصة للحجامة، حيث كان الرجال والنساء يخضعون لجلسات الحجامة العلاجية لتنظيف الدم وتقوية المناعة.

2. 6. الدور الثقافي والتاريخي للحمامات في القصبة

1. 2. 6. الحمام كرمز للهوية الثقافية والممارسات التقليدية

لم يكن الحمام مجرد مرفق صحي، بل كان رمزًا للهوية الثقافية لسكان القصبة. كان تصميم الحمامات يعكس الروح المعمارية الإسلامية والأندلسية، وكان يشكّل جزءًا من التراث الحي الذي تناقلته الأجيال.

- كان الحمام يعتبر امتدادًا للبيت الجزائري، حيث يعكس قيم النظافة، الطهارة، والضيافة التي يعتز بها المجتمع الجزائري.
- ارتبط الحمام بممارسات روحانية، حيث كان الناس يعتقدون أن دخول الحمام يُساعد على التخلص من الطاقات السلبية والتطهر الجسدي والروحي.
- استُخدمت الحمامات في الاحتفالات الدينية مثل ليلة النصف من شعبان، حيث كانت النساء والفتيات يغتسلن استعدادًا للاحتفال.

2. 2. 6. الحمام كمصدر للقصص والأساطير الشعبية

نظرًا لأهميته في الحياة اليومية، كان الحمام مرتبطًا بالكثير من القصص والأساطير الشعبية التي تناقلها سكان القصبة عبر الأجيال.

- كان يُعتقد أن بعض الحمامات مسكونة بالجن، لذا كانت هناك طقوس معينة عند دخول الحمام، مثل قول "بسم الله"، وعدم الجلوس مباشرة في الزوايا المظلمة.
- بعض الأساطير الشعبية تتحدث عن نساء خارقات الجمال كنّ يظهرن في الحمام ليلاً، وكان يُقال إن الحمام يصبح مسكونًا بعد منتصف الليل.
- كان هناك اعتقاد بأن من يغتسل ليلة الجمعة في الحمام ويتوضأ به، فإنه سيُبارَك طيلة الأسبوع.

3. 2. 6. الحمام كمصدر للإلهام الفني والأدبي

كان الحمام حاضرًا في الأدب الجزائري، حيث ورد ذكره في العديد من الروايات والأشعار التي وصفت تفاصيل الحياة الاجتماعية داخله.

- في الشعر الشعبي، كانت هناك أغانٍ تُغنّى داخل الحمام، خاصة خلال حمام العروس، وتُستخدم فيها ألفاظ محمّلة بالمعاني التراثية والجمالية.

- في الأدب، ظهرت الحمامات كأماكن للحوار والسرد القصصي، حيث كان الرواة الشعبيون ينقلون الحكايات والأساطير داخلها، مما جعلها جزءًا من التراث السردي للمدينة.

7. أهمية حمامات قصبة الجزائر: فضاءات البخار ومرايا المجتمع، وكنوز التراث

تتجاوز حمامات قصبة الجزائر وظيفتها النفعية كمجرد فضاءات للنظافة الجسدية، لتتجلى كنسيج اجتماعي وثقافي متين، متشابك بعمق في تاريخ وهوية هذه المدينة العريقة. دراسة حمامات القصبة من منظور أنثروبولوجي تفتح لنا نافذة فريدة على فهم ديناميكيات المجتمع القصبوي، وقيمه، وعاداته، وتراثه المادي واللامادي، فالحمام في القصبة ليس مجرد مبنى أو مرفق عام، بل هو مؤسسة اجتماعية متكاملة، وفضاء ثقافي حيوي، وذاكرة مكانية تحتفظ بأسرار قرون من الحياة الحضرية. نستكشف هنا أهم حمامات قصبة الجزائر، العامة والخاصة، من خلال عدسة أنثروبولوجية دقيقة.

ومن الحمامات التي لا تزال قائمة:

1.7. حمام سيدنا (حمام الباشا) [1]

- **التاريخ والموقع:** بُني في القرن السادس عشر، ويقع في القصبة السفلى بشارع مشري.

- **الوظيفة الحالية:** تحوّل إلى مطعم يُعرف بـ"دار السلطان".

- **السمات المعمارية:** يتميز بتصميم عثماني فاخر، ويضم غرفًا متعددة مثل "بيت السخون" و"بيت الباردة"، بالإضافة إلى قبة مركزية وأحواض مائية.

[1] " ويكيبيديا، **حمام سيدنا**، "– تم الاطلاع عليه في 12 ماي 2025، الساعة 14:32، https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D9%85%D8%A7%D9%85_

2. 7. حمام بوشلاغم

- **التاريخ والموقع:** يُعد من أقدم الحمامات في الجزائر العاصمة، ويقع في القصبة السفلى بالقرب من مسجد كتشاوة.
- **الوظيفة الحالية:** لا تزال بعض أجزائه قائمة، ويُعتبر شاهدًا على تاريخ المدينة العتيقة[1].

3. 7. حمام الفويتة

- **التاريخ والموقع:** بُني عام 1727م على يد عبدي باشا، ويقع في القصبة.
- **الوظيفة الحالية:** تُشير بعض المصادر إلى أن هذا الحمام كان يُستخدم من قبل فئات معينة من المجتمع، ويُظهر الطقوس الاجتماعية المرتبطة بالحمامات في تلك الفترة.

7. الحمامات التي اندثرت أو تغيرت وظيفتها

1.8. حمام اليهود

- **التاريخ والموقع:** كان يقع في القصبة السفلى، ويُعد من الحمامات التي ارتادها المسلمون واليهود على حد سواء.
- **الوظيفة الحالية:** لم يعد قائمًا، ويُعتبر من الحمامات التي اندثرت مع مرور الزمن.

2. 8. حمام الجباجق:

- **التاريخ والموقع:** كان من الحمامات العتيقة في القصبة، ويُعرف باسمه الغريب.
- **الوظيفة الحالية:** لم يعد قائمًا، ويُعتبر من الحمامات التي اندثرت مع مرور الزمن[1].

---

[1] موقع الشروق اونلاين، **رحلة إلى حمامات القصبة العتيقة**، https://www.echoroukonline.com/%D8%B1%D8%AD%D9%84%D8%A9-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%AD%D9%85%D8%A7%D9%85%D8%A7%D8%AA-، تم الاسترجاع يوم: 25ماي، 2025 س: 14.25

[1] الشروق اونلاين، مرجع سابق

8. الحمام بين الماضي والحاضر

رغم تراجع دور الحمامات التقليدية في العصر الحديث، بسبب انتشار الحمامات الخاصة والتطور العمراني، إلا أن **بعض الحمامات التاريخية في قصبة الجزائر لا تزال قائمة**، وتحمل في جدرانها **ذاكرة أجيال** من التقاليد والعادات الاجتماعية.

- اليوم، هناك محاولات لإعادة إحياء الحمامات القديمة كمواقع **تراثية وسياحية**، حيث يقصدها الزوار لاكتشاف **تاريخها الهندسي والاجتماعي**.
- كما أن الحمامات العصرية تستوحي الكثير من تصاميمها من الحمامات التقليدية، سواء في **طريقة التسخين، أو الأحواض الرخامية، أو حتى في استخدام البخار** كوسيلة علاجية.

9. حمامات القصبة: معابد النقاء وأسرار البخار

تخيل نفسك تقف أمام مدخل حمام تقليدي في قصبة الجزائر، يكون المدخل متواضعاً، باب خشبي ثقيل مزين بنقوش بسيطة، لا يوحي بما ينتظرك في الداخل، لكن بمجرد أن تعبر العتبة، تنتقل إلى عالم آخر، عالم يختلف تمامًا عن صخب الأزقة وضجيج الحياة الخارجية.

تبدأ رحلتك في **بيت المسلخ (البراني)**، وهو الردهة الخارجية أو غرفة الاستقبال، هنا يتلاشى ضوء النهار تدريجيًا ليحل محله ضوء خافت ينبعث من فتحات صغيرة في السقف المقبب، أو من مصابيح نحاسية معلقة تتهادى بنورها الدافئ، تجد مقاعد خشبية بسيطة أو دكة مرتفعة مبنية من الحجر، حيث يجلس الزوار لتبديل ملابسهم وترك متعلقاتهم، ثم تستقبلك رائحة مميزة، مزيج من البخار الرطب، الصابون البلدي، الأعشاب العطرية، ولمسة خفيفة من زيت الأركان.

تتجاوز بيت المسلخ لتصل إلى **بيت البارد**، وهو الغرفة الباردة أو الفاترة، هنا تبدأ درجة الحرارة بالارتفاع تدريجيًا، وتتعود حواسك على الدفء القادم، قد تجد في بيت البارد حوضًا صغيرًا من الماء البارد للانتعاش بعد الحمام الساخن. الأرضية مغطاة بالرخام أو البلاط، وتشعرك ببرودة لطيفة تحت قدميك.

ثم تدخل إلى قلب الحمام، **بيت السخون (الوسطاني)**، الغرفة الدافئة أو المتوسطة الحرارة. هنا، ترتفع درجة الحرارة بشكل ملحوظ، وتبدأ مسامات جلدك بالتفتح، تجد في بيت السخون دكة حجرية واسعة

في الوسط، حيث يجلس الزوار للاسترخاء والتأقلم مع الحرارة. الجدران مغطاة بالبلاط الملون أو الجص المزخرف، وتعكس الضوء الخافت بشكل ساحر. صوت خرير الماء يملأ المكان، ممزوجًا بأصوات الهمسات الخافتة والضحكات المكتومة.

ثم تصل إلى **بيت الحمام (الحرارة)**، الغرفة الساخنة أو الحارة، وهي جوهر تجربة الحمام، هنا ترتفع درجة الحرارة إلى أقصى مستوياتها، ويغمرك البخار الكثيف من كل جانب. قد تجد في بيت الحمام حوضًا كبيرًا من الماء الساخن في الوسط، أو عدة أحواض صغيرة متوزعة في أرجاء الغرفة. . الدكة الحجرية الساخنة تدعوك للاسترخاء والاستسلام لحرارة البخار التي تلف جسدك، وتسمع صوت صب الماء من الدلاء النحاسية، وصوت تدليك الكيّاس (مدلك الحمام) وهو يفرك الأجساد بالقفاز الخشن (الكيس).

9. الطقوس الاستعدادية للحمام: من الداخل إلى الخارج

أما حينما نتحدث عن المرأة الجزائرية في القصبة وهي تتحضّر للذهاب إلى الحمّام، فإننا لا نصف فقط طقساً صحياً، بل نُلقي الضوء على ممارسة اجتماعية وثقافية عميقة الجذور، تُحاط بطقوس دقيقة تعبّر عن تقاليد المجتمع، عن رموزه، عن جمالياته، وعن تصوّره للجسد، للنقاء، وللأنوثة. ففي الذهاب إلى الحمّام، لم تكن المرأة تغتسل فقط، بل كانت تدخل في حالة من "التحوّل الرمزي"، حيث تتهيأ للانخراط في فضاء جماعي نسوي بامتياز، محكوم بأعراف دقيقة تبدأ من لحظة التحضير في البيت.

في صباح يوم الحمّام، يُصبح البيت النسوي في القصبة في حالة من الاستنفار الصغير، خاصة إن كانت المناسبة مرتبطة بزواج قريب أو ولادة أو عيد. تبدأ المرأة بجمع أدواتها واحدة تلو الأخرى، في طقس أشبه بطقس حجّ نسائي داخلي، تغلّفه الحميمية وتغلفه المعرفة المُتوارثة. أول ما تبدأ به هو إعداد "السطول" أو "السطل النحاس" الكبير، وتضع فيه كل ما تحتاجه: **الليفة، الغسول التقليدي (الصابون البلدي)، الطين المغربي، القرنفل، ماء الزهر، الحناء، الحُجر (لتنقية البشرة)، ومشط الخشب**، أما **الفوطة الكبيرة** فهي قطعة مركزية في هذا الطقس، تلفّ بها جسدها كاملاً، وتشدّها بإحكام، وهي ما يُعرف بـ"المئزر الحمّامي".

لكنها لا تخرج هكذا؛ تُغطي رأسها بـ"الخِمار" أو "المنديل"، وتلبس "قندورة خفيفة" أو "جلّابة" تقليدية، سهلة الخلع، وتحمل معها صحنًا معدنيًا كبيرًا (الطبسي) الذي تضع فيه "المستلزمات الصغيرة" مثل المشط، مقص الأظافر، الزيت، مرآة صغيرة، وعطر. الصغرى من بناتها تساعدها غالبًا، وهي الأخرى تتعلم من هذه الطقوس، كما تعلمتها أمها من جدّتها، في سلسلة أنثروبولوجية تنقل عبر الأجيال معنى النظافة والخصوصية واللقاء.

1.10. الفضاء العام إلى الخاص: طريق الحمام

وهي تسير في أزقة القصبة الملتوية، تَسير بخطى واثقة، تحمل "السطل" على رأسها أحيانًا، أو في يدها الأخرى، وقد تضع فوقه منديلًا مبللًا لتجنب تطاير الرائحة أو تسرب الماء، وهو تقليد يعكس حسّيات مرتبطة بالحياء واحترام الآخرين. وعيها بجسدها في الفضاء العام يظهر في كل حركة، حيث تظلّ حريصة على التغطية وعلى التواضع، لكنك تستشعر في خطواتها أيضًا نوعًا من الزهو، وكأنّها ذاهبة إلى طقس تطهّري يحرّرها من روتين البيت ويُدخلها في عالم أنثوي خاص، لا تشارك فيه الرجال.

2.10 في حضرة النساء: ولوج العالم الداخلي

ما إن تدخل إلى الحمام حتى تدخل عالمًا آخر، تخلع المئزر وتكشف عن "قميص الحمّام" أو "الدراعة القطنية"، وتبدأ في التحوّل التدريجي من امرأة خاصة إلى عضوة في مجتمع نسوي صغير، فيه العجائز والشابات والعروسات والمرضعات، تتبادل فيه الحكايات، النكات، الأسرار، وصفات الجمال، وطقوس الحُب والزواج. تقوم بسكب الماء الساخن على جسدها، وتدعكه بـ"الليفة" بقوة، تُطلق الزفرات، وتغسل تعب الأسبوع والهمّ والألم. يُصبح الحمّام هنا امتدادًا شعوريًا للجسد والذاكرة.

المرأة الجزائرية في القصبة لا تذهب إلى الحمّام للاستحمام فقط، بل لتجديد الذات، لتطهير الروح، لتكريس العلاقة مع النساء الأخريات، للانتماء إلى شبكة من المعارف التي لا توجد إلا داخل البخار والعرق والضحك والعطر والرغبة في الجمال. إنها لحظة "تحوّل اجتماعي" فيها ترتّب العلاقة بين الجسد والهوية، بين الذات والجماعة، بين الداخل والخارج.

وبهذا، يتحوّل الحمّام إلى مسرح أنثروبولوجي فريد، تُمارَس فيه الحياة في أبسط مظاهرها وأكثرها رمزية: من لباس يغطي ويكشف، إلى أدوات تُدلّ على المعرفة الشعبية بالجسد، إلى مشيٍ في الأزقة يربط بين الحميمي والعام، إلى دخول في دائرة نسوية تتجاوز الزمن. لحظة الحمّام ليست لحظة عادية،

إنها استحضار جماعي لذاكرة المدينة، وتأكيد حيّ على أن المرأة في القصبة لم تكن في الظل، بل كانت دائمًا في مركز الفضاء الثقافي والاجتماعي، حتى وهي تصبّ الماء على جسدها وتضحك مع جارتها خلف ستائر البخار.

الحمام في القصبة ليس مجرد مكان للاستحمام، بل هو تجربة روحية واجتماعية عميقة الجذور، إنه طقس من طقوس النقاء والتطهير، ليس فقط للجسد، بل للروح أيضًا؛ البخار يغسل الأوساخ والتعب ويفتح المسام ويجدد النشاط، والماء الساخن يريح العضلات المتعبة، ويخفف التوتر والقلق.

لكن الحمام هو أيضًا فضاء اجتماعي هام، خاصة للنساء؛ كان الحمام بالنسبة للنساء في القصبة ولا يزال في بعض الأحيان، مكانًا للقاء والتواصل الاجتماعي بعيدًا عن أعين الرجال. تأتي النساء إلى الحمام ليس فقط للاستحمام، بل للقاء الصديقات والجارات، وتبادل الأحاديث والقصص، والاحتفال بالمناسبات الخاصة مثل الأعراس والولادات، كان الحمام بمثابة المنتدى الاجتماعي للنساء، حيث يجدن فيه مساحة خاصة للتعبير عن أنفسهن وتبادل الخبرات.

بالنسبة للرجال أيضًا، كان الحمام فضاءً اجتماعيًا هامًا، وإن كان مختلفًا في طبيعته عن حمام النساء، كان الرجال يأتون إلى الحمام للاسترخاء والراحة بعد يوم عمل طويل، وللقاء الأصدقاء والزملاء، ولتبادل الأحاديث والنقاشات. ، وأيضًا مكانًا للمساج والتدليك، حيث يتخلص الرجال من آلام العضلات والتعب الجسدي.

في الحمام، تتلاشى الحواجز الاجتماعية، ويتساوى الجميع أمام قوة البخار ودفء الماء، فتجد الغني والفقير، الكبير والصغير، جنبًا إلى جنب، يشتركون في نفس التجربة، ويتبادلون الابتسامات والكلمات الطيبة. الحمام يخلق نوعًا من التآخي والتلاحم الاجتماعي، ويذكرنا بأننا جميعًا بشر، نشترك في نفس الحاجات والرغبات.

عندما تخرج من الحمام، تشعر وكأنك ولدت من جديد، جسدك نظيف ومنتعش، وروحك هادئة ومستريحة. تحمل معك رائحة الحمام المميزة، وذكرى تجربة فريدة، تجمع بين النقاء الجسدي والروحي، والاجتماعية والتواصل الإنساني. حمامات القصبة لم تكن مجرد مبانٍ تاريخية، بل معابد للنقاء، وفضاءات للذاكرة، وشهود على نمط حياة اجتماعية وثقافية عريقة.

لكن ما بين حضور هذه الحمّامات في الذاكرة المعمارية والأنثروبولوجية، وبين اندثارها التدريجي في الواقع المادي، تنفتح أمامنا فجوة عميقة تنذر بزوال أحد أهم مفاتيح فهم المدينة والمجتمع. فالكثير من تلك الحمّامات التي كانت تنبض بالحياة، مثل "حمام اليهود، حمام الجباجق"، أغلقت أبوابها أو تحوّلت إلى مبانٍ مهجورة تتآكلها الرطوبة والإهمال، وقلّة قليلة ما تزال تصارع الزمن، مثل "حمام سيدنا، حمام بوشلاغم" الذي ما زال شامخًا، رغم أنف العولمة والتحوّلات العمرانية الحديثة. هذا الانحسار لا يرتبط فقط بتغير أنماط الحياة واللجوء إلى الحمامات الحديثة في المنازل، بل يرتبط أيضًا بضعف السياسات الحضرية في حماية التراث غير المادي، وبفقدان المجتمع لجزء من ذاكرته الجمعية التي لا تُكتب في الكتب، بل تُروى عبر الدُّخان والبخار والضحكات التي تملأ جدران الحمّام.

إن اندثار الحمّامات هو اندثار جزئي للمدينة نفسها، فالقصبة كنسيجٍ حضريٍّ حيّ، لا تُختزل في قصورها ولا في مساجدها فقط، بل في تلك التفاصيل اليومية الصغيرة التي صنعت ذاكرة المكان، وكانت الحمّامات من أبرز تجلّياتها، لذلك فإن الحفاظ على ما تبقّى منها، وترميمها وإدماجها في مشاريع سياحية وتربوية وثقافية، ليس مجرد حفاظ على حجارة، بل هو حفاظ على هوية، على سردية نسوية مُهملة، وعلى طقس جماعي يُعيد للمدينة دفئها الإنساني وروحها المفقودة.

وهذه الحمّامات ليست مجرد ماضٍ يجب أن يُوثّق، بل تجربة معيشة يمكن أن تُستعاد، ولو جزئيًا، في خضم الحداثة، إنها جُزء من سؤالنا الأنثروبولوجي الكبير: كيف يمكن للمدينة أن تُحافظ على روحها، وسط عالم يبتلع التفاصيل، ويطمس الرموز، ويُسارع في نسيان نفسه؟

ثانيا: أسواق القصبة العتيقة: أنثروبولوجيا المكان وذاكرة التراث الحي

في قلب النسيج الحضري المتشابك للقصبة، هذا اللابيرنت المعماري الذي يتجاوز كونه مجرد مدينة ليصبح نصًا ثقافيًا حيًا، تتجلى الأسواق القديمة كبؤر نابضة بالحياة، وأماكن تتجاوز وظيفتها التجارية لتصبح مؤسسات ثقافية راسخة. القصبة ليست مجرد تجمع عشوائي للأبنية؛ إنها كائن حي يتنفس، طبقات من التاريخ متراكمة فوق بعضها البعض، حيث يختلط صدى الماضي بحاضر متجدد باستمرار، وفي هذا السياق تبرز الأسواق ليس كمجرد نقاط تبادل اقتصادي، بل كـ "أغورا" المدينة العتيقة، ساحات عامة تجسد روح المجتمع وتختزل جوهره. إنها فضاءات اجتماعية مُشكَّلة، وليست مجرد مواقع

جغرافية؛ فضاءات تم نسجها عبر قرون من التفاعلات الإنسانية، لتصبح مسارح للحياة اليومية، ومنصات للعلاقات الاجتماعية، ومخازن للذاكرة الثقافية.

تجاوزت هذه الأسواق مفهومها التجاري الضيق لتتحول إلى مؤسسات أنثروبولوجية بامتياز. إنها ليست مجرد أماكن لشراء وبيع السلع، بل هي مراكز لتشكيل الهوية الجماعية، وترسيخ القيم الثقافية، وتناقل المعارف والمهارات الحرفية عبر الأجيال. في دروب هذه الأسواق، لم يكن يتم تداول البضائع فحسب، بل كانت تتداول القصص، والأخبار، والأغاني، والحكايات الشعبية. كانت الأسواق فضاءات للطقوس الاجتماعية اليومية؛ من المساومات والنقاشات الحادة بين البائع والمشتري، إلى اللقاءات العابرة بين الجيران والأصدقاء، إلى العروض الشعبية والحكايات التي كانت تروى في المساء. لقد كانت الأسواق بمثابة نبض الحياة الاجتماعية والثقافية للقصبة، تعكس إيقاع الحياة اليومية وتجسد روح التضامن والتكافل بين السكان.

إن أسماء هذه الأسواق القديمة ليست مجرد تسميات عابرة، بل هي "أحافير لغوية" تكشف عن طبقات من التاريخ والمعنى. كل اسم يحمل في طياته شفرة ثقافية، ومفتاحًا لفهم جانب من جوانب الحياة في القصبة القديمة. "**سوق السمانين**"، "**سوق السمارين**"، "**سوق السفارين**"، وغيرها من الأسماء، ليست مجرد علامات دالة على أنواع البضائع المتداولة، بل هي شهادات حية على الحرف والصناعات التي ازدهرت في المدينة، وعلى التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الذي ميزها، إنها تعكس التخصصات الحرفية الدقيقة، والمهارات اليدوية المتوارثة، والشبكات التجارية التي كانت تربط القصبة بمحيطها وخارجه، ودراسة هذه الأسماء هي بمثابة نبش أثري في اللغة والثقافة، للكشف عن كنوز من المعرفة والذاكرة الجماعية.

الموقع الاستراتيجي لأغلبية هذه الأسواق بين **باب الواد وباب عزون** في القصبة السفلى ليس مجرد مصادفة جغرافية، هذه المنطقة كانت القلب النابض للقصبة، الشريان الرئيسي الذي يغذيها بالحياة والحركة؛ باب الواد وباب عزون، كبوابتين رئيسيتين للمدينة، كانتا تمثلان نقاط التقاء محورية، ومداخل حيوية للقصبة السفلى، مما جعلهما مركزًا طبيعيًا لتجمع الأسواق والأنشطة التجارية، هذا الموقع المركزي لم يمنح الأسواق أهمية اقتصادية فحسب، بل عزز أيضًا دورها الاجتماعي والثقافي، لتصبح ملتقى طرق للأفكار والناس والبضائع، ومحركًا رئيسيًا للحياة الحضرية في القصبة.

1. أسواق قصبة الجزائر القديمة: أصداء الماضي وهمسات الزمن

لم تكن الأسواق مجرد تجمعات مادية للبضائع والتبادلات التجارية، بل كانت فضاءات متعددة الأبعاد تجسد جوهر الحياة المادية والمعنوية للمدينة. ماديًا، كانت هذه الأسواق شرايين اقتصادية حيوية، تعرض فيها منتجات الحرفيين والصناع المحليين، من "سوق السمانين" الذي يزخر بأطايب الأطعمة، إلى "سوق السفارين" الذي تتلألأ فيه الأواني النحاسية، مرورًا بـ "سوق الخراطين" الذي يعرض إبداعات فن الخشب، كانت هذه الأسواق مراكز لتوزيع الثروة وتبادلها، حيث يلتقي المنتج بالمستهلك، وتتحرك عجلة الاقتصاد المحلي. لكن، على الجانب المعنوي، كانت الأسواق تتجاوز وظيفتها التجارية لتصبح مسارح اجتماعية وثقافية نابضة بالحياة. ففي أزقتها الضيقة وساحاتها المزدحمة، لم يكن يتم تبادل السلع فحسب، بل كانت تتداول القصص، والأخبار، والتقاليد الشفهية. كانت الأسواق فضاءات للتلاقي والتفاعل الاجتماعي، حيث تتشكل العلاقات الإنسانية وتترسخ الهوية الجماعية. إنها ذاكرة القصبة الحية، تحتفظ بأصداء الماضي، وتحكي قصص الحرف المندثرة، والعادات المتوارثة، وروح التكافل والتضامن التي ميزت مجتمع القصبة العتيقة، لتصبح بذلك جزءًا لا يتجزأ من تراث المدينة المادي والمعنوي على حد سواء.

تخيل نفسك تعود بالزمن إلى الوراء، إلى قصبة الجزائر في أوج ازدهارها، حيث كانت الأسواق هي قلب الحياة النابض. لا نتحدث هنا عن مراكز تجارية حديثة، بل عن رحبات ودكاكين متواضعة، تتناثر في أزقة القصبة الضيقة، لكنها كانت تعج بالحياة والنشاط، وكانت مركزًا للتجارة والتبادل الاجتماعي والثقافي.

في أسواق القصبة القديمة، لم تكن الألوان بنفس الزهو والقوة التي قد نتخيلها اليوم، لكنها كانت حية، نابضة بالحياة في سياقها وزمانها. ألوان التوابل التي كانت تُعرض في أكياس خيش أو أوعية فخارية بسيطة، لكن روائحها كانت تفوح بقوة، وتنبه الحواس، ألوان الأقمشة المنسوجة يدويًا، ربما بألوان طبيعية مستخرجة من النباتات، معروضة على حبال أو معلقة على جدران الدكاكين، تتطاير في النسيم الخفيف. ألوان الخضروات والفواكه الموسمية، مصفوفة بعناية على بسطات خشبية أو في سلال قش، تعكس خيرات الأرض وبساطة الحياة.

الروائح في الأسواق القديمة كانت مزيجًا أصيلاً، طبيعيًا، غير مصطنع. ورائحة التوابل العطرية، القوية والنفاذة، كانت تتداخل مع رائحة القهوة المحمصة على نار الحطب، ورائحة الخبز الطازج المخبوز في الأفران الطينية، ورائحة الجلود المدبوغة بطرق تقليدية، ورائحة الأعشاب الطبية التي كانت تُعرض لعلاج الأمراض، ورائحة الزيتون المخلل وزيت الزيتون المعصور على البارد. روائح طبيعية، أصيلة، تعكس طبيعة الحياة في القصبة القديمة.

الأصوات في الأسواق القديمة كانت مختلفة أيضًا. لم تكن هناك مكبرات صوت ولا ضجيج السيارات، بل كانت أصوات الباعة وهم ينادون على بضائعهم بصوت عالٍ، لكن ربما بنبرة أكثر هدوء وإيقاعًا. كانت أصوات المساومة والمفاصلة بين البائع والمشتري أكثر وضوحًا وأهمية، حوارًا وديًا وشيقًا. كانت أصوات الأطفال يلعبون ويلهون في الأزقة، همسات النساء وهن يتبادلن الأحاديث، أصوات الأدوات الحرفية كالنجارة والنحاسة والحدادة، أصوات الحيوانات التي كانت تستخدم في النقل والتجارة. سيمفونية أصوات طبيعية، بشرية، حيوانية، تعكس إيقاع الحياة اليومية في القصبة القديمة.

البضائع المعروضة في الأسواق القديمة كانت تعكس الاكتفاء الذاتي والاقتصاد المحلي، كانت هناك التوابل والأعشاب التي تجلب من مناطق بعيدة، لكن أغلب البضائع كانت من الإنتاج المحلي: الحرف اليدوية التي يصنعها حرفيو القصبة بمهارة وإتقان، المنتجات الزراعية التي تنتجها البساتين والمزارع المحيطة بالقصبة، المنتجات الغذائية الأساسية كالحبوب والزيتون والزيت والتمر، كانت الأسواق القديمة تعكس اقتصادًا تقليديًا، يعتمد على الإنتاج المحلي والتبادل التجاري المباشر.

فأسواق قصبة الجزائر القديمة لم تكن مجرد أماكن للتجارة، بل كانت ذاكرة المكان وروح الجماعة في زمن مضى، كانت ملتقى اجتماعي هام، حيث يلتقي سكان القصبة من مختلف الأحياء والطبقات، يتبادلون الأخبار ويقضون أوقاتًا معًا. كانت مركزًا ثقافيًا يعكس التراث الحرفي والتقاليد المحلية. كانت مساحة عامة يشعر فيها الجميع بالانتماء إلى مجتمع القصبة.

ثقافة المساومة في الأسواق القديمة كانت أكثر عمقًا وأهمية، لم تكن مجرد مساومة على السعر، بل كانت جزءًا من التفاعل الاجتماعي وبناء العلاقات الإنسانية، كانت المساومة فرصة للحديث والتعارف والتقارب بين البائع والمشتري، وكانت تعكس قيم الكرم والضيافة والتودد التي كانت سائدة في المجتمع القصبوي القديم.

علاقات البائع والمشتري في الأسواق القديمة كانت أكثر متانة واستمرارية، كان البائع يعرف زبائنه بالاسم، ويعاملهم بود واحترام، وكان المشتري يثق ببائعه المفضل، ويعود إليه لشراء حاجياته. كانت العلاقات التجارية مبنية على الثقة المتبادلة والاحترام المتبادل والتقدير المتبادل، وكانت تعكس قيم المجتمع التقليدي الذي يولي أهمية كبيرة للعلاقات الإنسانية. أسواق قصبة الجزائر القديمة لم تعد موجودة بنفس الشكل والروح، لكن أصداء الماضي لا تزال تتردد في أزقة القصبة، وهمسات الزمن لا تزال تحكي قصصًا عن تلك الأسواق الحيوية. عندما نتجول في القصبة اليوم، يمكننا أن نتخيل تلك الأسواق القديمة، ونستشعر روحها وذاكرتها، ونقدر أهميتها في تاريخ هذا المكان العريق.

2. أهم الأسواق في القصبة:

كانت قصبة الجزائر القديمة تضم عدة أسواق هامة، كل منها كان له تخصصه ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. إليك أهم هذه الأسواق:

1.2. رحبة الزيتون:

- **الأهمية:** تعتبر رحبة الزيتون من أشهر وأهم أسواق قصبة الجزائر القديمة، وربما الأهم على الإطلاق. كانت مركزًا حيويًا للتجارة والتبادل، ومكانًا ذا صيت واسع.
- **التخصص: كما يوحي اسمها، كانت رحبة الزيتون متخصصة بشكل رئيسي في تجارة الزيتون وزيت الزيتون. الجزائر كانت ولا تزال معروفة بجودة زيت الزيتون، وكانت هذه الرحبة نقطة مركزية لتجميعه وتوزيعه. بالإضافة إلى الزيتون وزيته، كانت الرحبة أيضًا سوقًا لمنتجات زراعية أخرى، خاصة الخضروات والفواكه الموسمية التي تأتي من البساتين المحيطة بالمدينة.**
- **الطابع:** كانت رحبة الزيتون مكانًا صاخبًا وحيويًا، يعج بالباعة والمشترين، والمنتجين القادمين من المناطق الريفية. كانت تتميز برائحة الزيتون النفاذة، وألوان الخضروات والفواكه الطازجة، وأصوات الباعة وهم ينادون على بضاعتهم.

2.2. رحبة الغنم:

- **الأهمية:** رحبة الغنم كانت سوقًا رئيسيًا لتجارة المواشي، وخاصة الأغنام. كانت تلعب دورًا حيويًا في توفير اللحوم والمنتجات الحيوانية لسكان القصبة.
- **التخصص:** كانت الرحبة متخصصة في بيع الأغنام والماعز، وأحيانًا أنواع أخرى من المواشي. كانت نقطة التقاء بين مربي المواشي من المناطق الريفية وتجار الجملة والتجزئة الذين يبيعون اللحوم في القصبة.
- **الطابع:** كانت رحبة الغنم سوقًا مختلفًا عن رحبة الزيتون. كانت تتميز بصخب الحيوانات، وروائح الروث والحيوانات، وأصوات المزايدات والمفاوضات بين التجار والمربين. كانت مكانًا يعكس الجانب الريفي والاقتصادي المرتبط بالثروة الحيوانية في المنطقة.

3.2. سوق الحدادين

- **الأهمية:** كان سوق الحدادين مركزًا هامًا للحرف والصناعات التقليدية، وتحديدًا صناعة الحدادة. كان يوفر الأدوات والأشياء المعدنية الضرورية للحياة اليومية والأنشطة الاقتصادية الأخرى.
- **التخصص:** كان السوق متخصصًا في منتجات الحدادة والمنتجات المعدنية. كان الحدادون يصنعون ويبيعون الأدوات الزراعية، وأدوات البناء، والأدوات المنزلية، والأسلحة (في فترات معينة)، وغيرها من المنتجات المعدنية الضرورية.
- **الطابع:** كان سوق الحدادين يتميز بصوت المطارق والحديد، ورائحة الفحم والدخان، وشرر النار المتطاير من ورش الحدادة. كان مكانًا يعكس المهارة الحرفية والإنتاج اليدوي، وكان له دور هام في توفير الأدوات والمعدات اللازمة للمجتمع القصبوي.

3.3. سوق النحاسين:

يُعد سوق النحاسين بـ "زنقة الصفارين" أحد أبرز المعالم الحية لهوية القصبة، حيث تعكس أصوات مطارقه المتوارثة منذ عهود مضت صمود الحرف التقليدية أمام التحديث. يمثل السوق ذاكرةً مادية وجمالية للجزائريين من خلال صناعة الأواني المزخرفة التي لا يزال يُنظر إليها كرمز للوجاهة

والأصالة الثقافية. يُشكل هذا الفضاء نموذجاً لـ "التراث الحي" الذي يربط بين التاريخ العريق والحياة اليومية، مما يجعله ركيزة أساسية في دراسة مقومات الهوية الوطنية.

4.2. **أسواق متخصصة أخرى:** بالإضافة إلى هذه الأسواق الرئيسية، كانت هناك أسواق أخرى متخصصة أو أصغر حجمًا، مثل:

- **سوق التوابل والعطارين:** لبيع التوابل والأعشاب العطرية والطبية.
- **سوق القماش:** لبيع الأقمشة والمنسوجات المختلفة.
- **سوق الصاغة:** لبيع المجوهرات الذهبية والفضية.
- **سوق الخضر والفواكه الصغير:** بالإضافة إلى رحبة الزيتون، كانت هناك أسواق أصغر للخضر والفواكه في أحياء مختلفة من القصبة.
- **أسواق الحرف والصناعات:** أغلب هذه الأسواق تحمل أسماء الحرف والصناعات التي كانت تمارس فيها أو المنتجات التي كانت تباع بها. هذا يعكس التخصص الحرفي والتجاري الذي كان يميز القصبة القديمة:
- **سوق السمانين:** يشير إلى بيع "السمين" وهو الزبدة المصفاة أو السمن البلدي. سوق للأطعمة والمنتجات الحيوانية.
- **سوق السمارين:** نسبة إلى "السمار" وهو صانع أو بائع السروج وأدوات الخيل. سوق للحرف الجلدية **والفروسية.**
- **سوق السفارين:** نسبة إلى "الصفارين" وهم صناع الأواني النحاسية والصفرية. سوق للحرف المعدنية والأدوات المنزلية.
- **سوق الخراطين:** نسبة إلى "الخراطين" وهم صناع التحف والأدوات الخشبية المخروطة. سوق للحرف الخشبية والزخرفة.
- **سوق الشماعين:** نسبة إلى "الشماعين" وهم صناع أو بائعي الشمع والشموع. سوق للإضاءة ومستلزمات الإنارة.

- **سوق البشماقجي:** نسبة إلى "البشماقجي" وهو صانع أو بائع "البشماق" وهو نوع من الأحذية الخفيفة. سوق للأحذية والمنتجات الجلدية.

- **سوق المقفولجية:** نسبة إلى "المقفولجية" وهم صناع أو بائعي الأقفال والمفاتيح. سوق للأدوات **المعدنية** والأقفال.

- **سوق اللوح:** قد **يشير** إلى بيع "الألواح" الخشبية أو الحجرية، ربما ألواح الكتابة أو البناء أو أغراض أخرى. سوق للمواد الأولية أو الأدوات.

4. أسواق ذات أسماء عامة أو وصفية:

- **سوق الجمعة:** سوق يقام يوم الجمعة، ربما سوق أسبوعي كبير أو سوق له طابع خاص يقام في هذا اليوم المبارك.
- **سوق الكبير:** يشير إلى أنه السوق الرئيسي أو الأكبر في المنطقة، ربما من حيث الحجم أو الأهمية التجارية.
- **سوق الجديد:** يشير إلى أنه سوق أحدث نسبياً من الأسواق الأخرى القديمة، ربما تأسس لاحقاً.
- **سوق الزيت:** سوق متخصص في بيع الزيت، غالبًا زيت الزيتون الذي يعتبر سلعة أساسية في المنطقة.

5. أسواق بأسماء أعلام أو شخصيات:

- **سوق المولى محمد:** سمي على اسم شخصية دينية أو بارزة اسمها المولى محمد، ربما ولي أو شخصية محترمة كان لها علاقة بالسوق أو المنطقة.
- **تكامل الأسواق:** كانت هذه الأسواق تتكامل مع بعضها البعض، وتشكل شبكة تجارية حيوية تخدم سكان القصبة والمناطق المحيطة. كانت الأسواق ليست مجرد أماكن للتبادل التجاري، بل كانت أيضًا **فضاءات اجتماعية وثقافية،** حيث يلتقي الناس، ويتبادلون الأخبار، وتقام بعض الاحتفالات والمناسبات.
- **تغير الأسواق مع الزمن:** مع مرور الزمن والتغيرات التي شهدتها قصبة الجزائر، تغيرت طبيعة هذه الأسواق. بعضها اندثر أو اختفى، وبعضها تحول أو تغير تخصصه. لكن **ذكرى هذه**

الأسواق القديمة لا تزال حية في ذاكرة القصبة، **وفي** التاريخ الشفهي والمكتوب، كجزء هام من تراثها الغني والمتنوع.

6. أسواق القصبة بين الماضي والحاضر: ذاكرة المكان وتحوّلات الوظيفة

تشكل الأسواق التقليدية في مدينة القصبة أحد المكونات الحيوية للنسيج العمراني والاجتماعي للمدينة، إذ لم تكن مجرد فضاءات للتبادل التجاري، بل كانت بنيات متكاملة تعكس النظام الاجتماعي المحلي وتوزيع الأدوار بين الحرفيين، والتجار، والسكان. كانت الأسواق تُقام في محاور محددة ترتبط بالأنشطة الاقتصادية اليومية، وتشكّل بذلك مركز الثقل في حياة المدينة، كما تشهد على علاقة الفرد بالجماعة، وعلى انتظام الحياة وفق إيقاع السوق اليومي، وما يفرضه من سلوكيات، طقوس، وتقاليد.

في الماضي، تميزت أسواق القصبة بطابعها التخصصي، حيث كانت كل حرفة أو تجارة تُمارس في فضاء خاص بها يحمل اسمها. فقد **اشتهرت** المدينة بأسواق مثل "سوق العطارين" حيث تباع الأعشاب الطبية والبهارات والعطور التقليدية، و"سوق النحاسين" الذي كان يتردد صداه عبر طرقات النحاس المجلجل صباحًا، و"سوق السلاح" الذي ارتبط تاريخيًا بصناعة البنادق والخناجر خلال العهد العثماني ومرحلة المقاومة، كما عرفت القصبة أسواقًا للمشغولات الجلدية والنسيج والبلغة والحلي التقليدية، وأخرى لبيع الخضر والأسماك واللحوم، كانت تُنظم وفق إيقاعات موسمية ويومية.

ومن الناحية الاجتماعية، لم تكن الأسواق فقط أماكن للشراء والبيع، بل فضاءات تَراكمت فيها الذاكرة الجمعية، فالأسواق كانت ملتقى يومي للسكان، ومسرحًا للعلاقات الاجتماعية المتداخلة، ومكانًا لتمرير الحِرف من جيل إلى آخر، ولممارسة الضبط الاجتماعي من خلال سلطة المحتسب الذي كان يسهر على الأخلاق العامة وجودة السلع، وبفضل هذا التنظيم شكل السوق في القصبة وحدة أنثروبولوجية قائمة على القيم، مثل الثقة، الاحترام، التكافل، والمهارة الحرفية.

غير أن هذه البنية بدأت تعرف تحولات جذرية منذ بداية الحقبة الاستعمارية، التي فرضت منطقًا اقتصاديًا جديدًا، وأعادت تشكيل المدينة من خلال فصل القصبة عن وسط المدينة الجديد (ville nouvelle). هذه التحولات أدت تدريجيًا إلى تهميش الأسواق التقليدية، وتراجع دورها لصالح الفضاءات التجارية العصرية. كما أن النزوح الريفي نحو القصبة بعد الاستقلال، والضغط الديمغرافي، وانهيار بعض الأبنية، ساهم في زوال عدد من هذه الأسواق، أو تحوّلها إلى مستودعات أو فضاءات مهجورة.

ورغم كل ذلك، لا تزال بعض الأسواق حاضرة في الذاكرة الحضرية للقصبة، مثل سوق "السكوار" الذي بقي رمزًا لامتداد القصبة نحو ساحة الشهداء، أو "سوق العطارين" الذي لا يزال يحتفظ ببعض محلاته القديمة رغم التراجع الحاد في عدد العطارين التقليديين، كما تحاول بعض الجمعيات الثقافية ومبادرات الحرفيين إعادة إحياء هذه الأسواق من خلال المعارض المؤقتة أو الأنشطة الترويجية.

وفي السياق المعاصر، أضحى السوق التقليدي في القصبة يمثل معلمًا رمزيًا أكثر من كونه فضاءً وظيفيًا، إذ ارتبط بالتراث غير المادي للمدينة، وتحول إلى مبحث أنثروبولوجي غني يمكن من خلاله تتبع التغيرات في بنية المجتمع، وفهم التحولات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية التي عصفت بالمدينة. فالسوق اليوم يختزل المسافة بين الحرف المندثرة، والذاكرة الحية، والنضال من أجل الحفاظ على التراث في وجه طوفان الحداثة المُفرغة من البعد الإنساني.

إن قراءة أسواق القصبة بوصفها "نصًا اجتماعيًا" مفتوحًا، تُمكّن الباحث من الوقوف عند تفاصيل دقيقة من الحياة اليومية، وتفكيك البنية العميقة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تنظم المدينة في الماضي. كما أن هذا النص – وإن كان قد بهت ماديًا – لا يزال يُكتب يوميًا في ذاكرة العائلات، وفي طقوس البيع في بعض الأزقة، وفي الحنين إلى الأسواق القديمة، حيث كانت الحياة تُعاش ببطء وكرامة.

ثالثا: الحرف التقليدية والرموز اليومية في قصبة الجزائر

1. النحاس والخشب في القصبة: أنثروبولوجيا الحرف والرمز

في قلب مدينة القصبة، حيث الأزقة المتشابكة والأصوات المتداخلة، عاشت الحرفة التقليدية كنبض يومي للحي، تُنسج من خلالها علاقات الإنسان مع المكان، ومع الزمن، ومع ذاته. من بين هذه الحرف التي حملت البعد الرمزي والطقسي والثقافي في آن، برزت حرفة النقش على النحاس وحرفة النجارة التقليدية، ليس بوصفهما مهارتين يدويتين فحسب، بل كأفعال رمزية تؤسس لنسق اجتماعي وثقافي كامل.

في القصبة، لم يكن النحاس مجرّد معدن يُستخدم لصناعة الأواني، بل كان مادة مشحونة **بالذاكرة**، وبالرموز المتوارثة، وبأشكال من القداسة المرتبطة بالبيت، وبالطقوس، وبالدورة الحياتية للمرأة الجزائرية. النقاش على النحاس لا يصنع شيئًا، بل يستدعي طقسًا، يدوّن حكاية، يُشكّل وجهًا لذاكرة

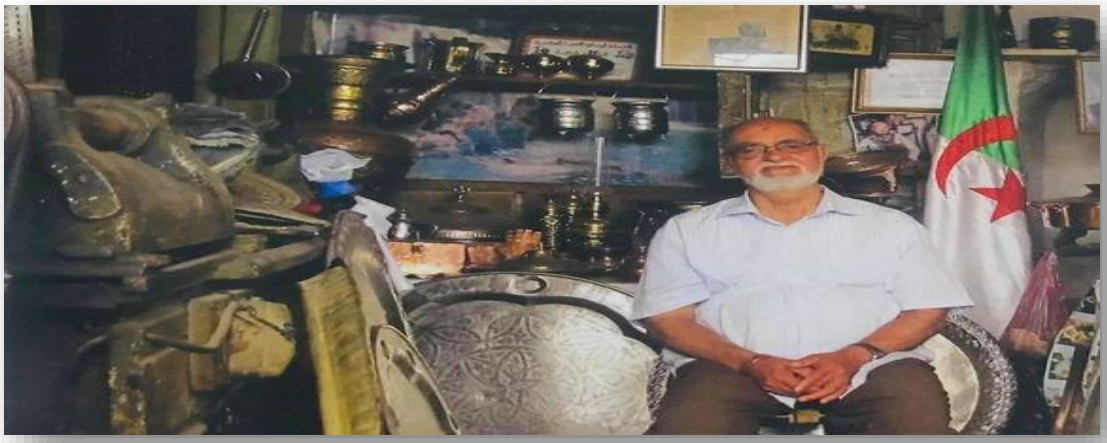
جماعية. الصينية المنقوشة مثلًا، ليست فقط أداة، بل هي وثيقة مرئية تروي من خلال زخارفها النباتية والهندسية سردية الفرح، الخصوبة، الحماية. فكل شكل محفور فيها هو جزء من معجم غير مكتوب، لكنه محفوظ في الوعي الجمعي، ومتداول عبر الأجيال. وما كان يُدهش، هو أن هذه **المنتجات** المُعدة للمرأة تحديدًا، والتي تُستخدم في طقوسها الأهم (الحنة، الولادة، الأعراس. . .)، كان يصنعها رجال. هذا التداخل بين الإنتاج الذكوري والاستهلاك الأنثوي يطرح في ذاته تساؤلات أنثروبولوجية ثرية: من يملك الرمز؟ ومن ينتجه؟ ومن يُعيد تأويله؟ كان الرجل يمسك المطرقة، لكن المرأة تمنح المعنى. الرجل ينقش، والمرأة تحتفظ بالزخرفة ضمن طقس يُعطيها بعدها الحقيقي. في هذا التوزيع المتقاطع للجندر والرمز، تظهر الحرفة كنسق اجتماعي، لا كعملية إنتاجية فحسب.

ومثل النحاس، كان الخشب أيضًا مادة تحمل الذاكرة والمقدّس. النجارة التقليدية في القصبة كانت حرفة عالية المقام، تقترب في طابعها الفني من فن الخط والزخرفة. النجار لا يصنع بابًا عاديًا، بل يصنع "واجهة لروح البيت". كل باب منقوش، كل نافذة محفورة، كل سقف مزخرف، كان يعبّر عن قيم عائلة، عن انتماء ديني، عن سلالة فنية تمتد من الجد إلى الحفيد. والأسطح الخشبية كانت فضاءً للتجليات الجمالية والدينية في آن معًا؛ فالآيات القرآنية، والأشكال الهندسية، والنقوش الموريسكية المترقرقة، لم تكن مجرد ديكور، بل كانت كتابة على الجدران تقول شيئًا عن من يسكن هذا البيت، وعن ما يقدّسه.

الحرفيان، النقاش والنجار، لم يكونا فقط صانعين لأدوات أو زينة، بل كانا جزءًا من بنية المدينة ذاتها، ومن هندستها المعيشية والرمزية. فالقصبة بحد ذاتها لا يمكن تخيّلها دون أصوات المطرقة، ونحت الإزميل، ورائحة الخشب المصقول. لكن كل هذا بدأ يتلاشى. مع دخول المنتجات الجاهزة، والمصانع، وآلات التكرار، بدأ الشكل يفقد المعنى، والرمز يتحوّل إلى سلعة. لم يعد النقش يدويًا، بل يُطبع صناعيًا. لم تعد الخزانة منحوتة، بل تُركّب من ألواح MDF لا تحمل روحًا ولا تاريخًا. هذا الانتقال من الحرفة إلى "المنتج الصناعي" يعني في الأنثروبولوجيا الاقتصادية تحوُّل الشيء من "رمز طقسي" إلى "سلعة مفرغة من الذاكرة".

ومع ذلك، لم يُطفأ هذا النور تمامًا. ما تزال في زوايا القصبة ورش صغيرة تصارع النسيان، تُعيد بعث النحاس، وتُحيي الخشب، لا من أجل الربح، بل من أجل **الحفاظ على الذاكرة الحرفية**، وعلى المعنى الكامن في التفاصيل الصغيرة. إنهم حُرّاس الرموز، في مدينة لا تزال تحاول أن تتذكّر.

يقول **مزداد عمار** (68 عاما) –وهو حرفي منذ 49 عاما– إن من بين الأواني النحاسية التاريخية نجد "البقراج" –"البُقْ" هو الفم، و"راج" اهتزازه بغليان الماء– وهو آنية لتقديم الشاي، ويعود ظهوره إلى الدولة العثمانية، كما يعد رمزا لقواتها المسلحة والجيش الإنكشاري، حيث إن "البقراج" كان يأخذ في شكله ما يرمز لرداء الجندي التركي[1]. ويعبر الهاشمي بن ميرة الذي يمارس مهنة صناعة التحف النحاسية منذ 49 عاماً، عن أسفه نتيجة تراجع اهتمام الناس بالأواني النحاسية، مؤكداً أن قلة فقط ما زالت تتمسك بها، بينما كانت كل الأسر تستعمل الأواني النحاسية حيث بلغ عدد الحرفيين وقتها في حي القصبة وحده –حسب قوله– 15 حرفياً، ويستذكر بن ميرة وعاء يعرف باسم "الطبسي عشاوات" وهو صحن كبير الحجم بغطاء شبيه بقبة المسجد يستعمل في الولائم والأفراح ويوضح فيه طعام الكسكس (المفتول) ليأكل من الضيوف جماعة، ويرى أن هذا الصحن اختفى تقريباً من المائدة الجزائرية بسبب تخلي المواطنين عن التقاليد والجري وراء الحداثة. و يحوز الراحل على شهادة اعتراف من طرف اليونيسكو نظير جهوده الرامية الى صون هاته الحرفة بالرغم من العقبات العديدة. كما تم تكريمه في عديد المرات نظير "أصالة" و "ابداع" منتجاته[2].



[1] تسعديت محمد، (2008)، **النحاس في الجزائر .. حرفة عريقة توشك على الانقراض**، نقلا عن الموقع الالكتروني: https://aja.me/mzefj تم الاسترجاع يوم: 2025/06/20، س: 14.09

[2] وكالة الأنباء الجزائرية، **وفاة الهاشمي بن ميرة، عميد حرفيي النحاس بحي القصبة بالعاصمة**، نقلا عن الموقع الالكتروني: https://www.aps.dz/ar/culture/105531-2021-04-24-08-32-12 ، يوم: 01-06-2025 . س: 11.44

2. محمد راسم: حين يتكلّم النحاس بلغة المنمنمات

إذا كانت الحرفة التقليدية تُعبر عن الذاكرة الجمعية، فإن أعمال محمد راسم تُعبّر عن الذاكرة الجمالية المصقولة بالهوية والانتماء. وبالعودة إلى فنه، نكتشف أن منمنماته، التي استلهمت الزخارف الإسلامية، والمخطوطات الفارسية، ومشاهد الحياة اليومية في الجزائر القديمة، شكّلت قاموسًا بصريًا جديدًا أعاد من خلاله بعث الروح الفنية الإسلامية في سياق استعماري حاول محوها.

لكن ما هو مدهش ومُغفل في كثير من الدراسات، هو كيف أن تأثير منمنمات محمد راسم امتد إلى النحاس، سواء من خلال اشتغاله المحدود على بعض الزخارف المعدنية، أو عبر الأثر غير المباشر على الحرفيين والنقّاشين في القصبة الذين اقتبسوا من عالمه البصري أنماطًا جديدة.

1.1. من الورق إلى المعدن: لغة واحدة بلونين

رغم أن **راسم** لم يكن نحّاسًا بالمعنى التقليدي، إلا أن تفاصيل زخرفته، تناظر الأشكال، التكرار الهندسي والنباتي، وتوزيع المساحات الفارغة، كلّها عناصر وجدت سبيلها إلى أعمال النقش على النحاس. فقد بدأ عدد من الحرفيين في سوق السمارين وسوق اللوح – خاصة في الخمسينات والستينات – باستلهام الخطوط الدقيقة والمنحنيات الهادئة من منمنماته، ليعيدوا إنتاجها في صوانٍ، فوانيس، ومباخر، بعضها ما يزال محفوظًا في المتاحف الوطنية.

2.1. رمزية المنمنمة: من الفضاء الديني إلى الفضاء الوطني

ما فعله **محمد راسم** كان إعادة تفسير الرموز الإسلامية التقليدية (كالنجمة، الهلال، التكرار الزخرفي، السرد القصصي في الصورة) ضمن منظور جزائري، سياسي، ووجداني. وعندما انتقل هذا التأثير إلى النحاس، لم يعد النقش مجرّد زخرفة، بل أصبح يحمل معنى وطنيًا/جماليًا مزدوجًا. لقد جعل النقش "يتكلم"، وجعل الأداة الطقسية تحمل بُعدًا ثقافيًا معاصرًا دون أن تفقد أصالتها.

3. أنثروبولوجيا الاستلهام: كيف تنتقل الرموز؟

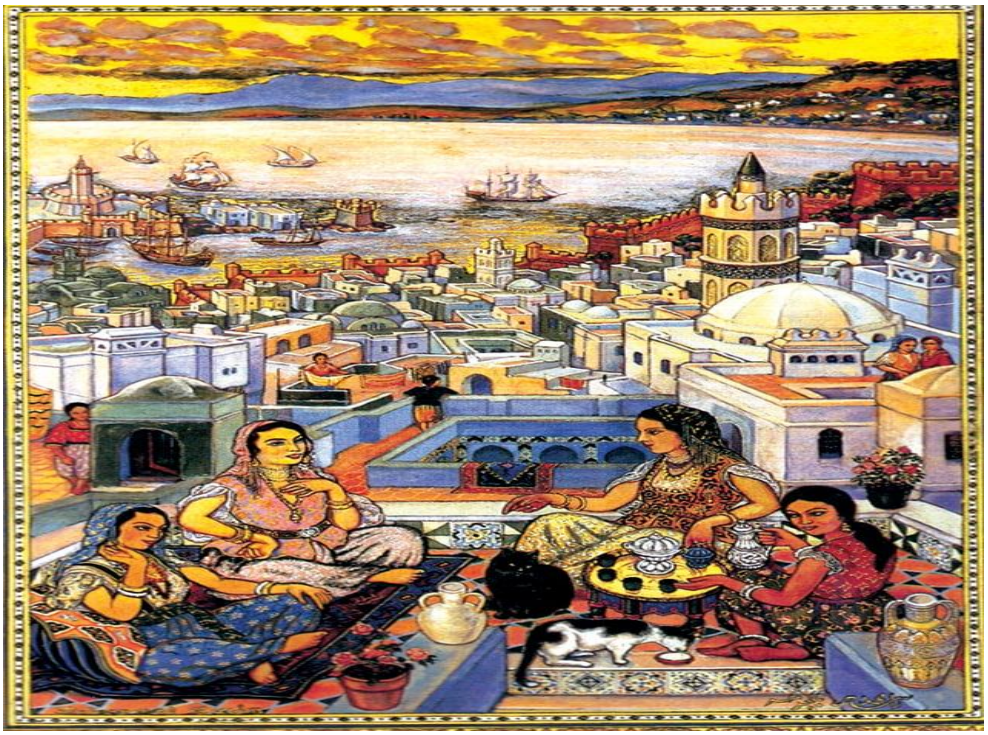
من وجهة نظر أنثروبولوجية، يُعدّ استلهام **محمد راسم** في حرفة النحاس نموذجًا عن انتقال الرموز الفنية من الطبقة المثقفة إلى الحرفة الشعبية، أي من الفن العالي إلى الفن الحيّ. وهو ما يكرّس مفهوم Clifford Geertz عن الثقافة كـ"نسيج من الرموز المتداولة التي تُعيد الجماعة إنتاج هويتها من خلالها".

هكذا، صار الحرفي في القصبة، بفضل تأثير محمد راسم، لا ينقش فقط أشكالًا تجميلية، بل يسرد قصة حضارية على النحاس. فكل دائرة، كل تكرار، كل إطار، صار ينتمي إلى خطاب أعمق من مجرد الزينة: إنه خطاب مقاومة، ذاكرة، وجمال.

كرس **محمد راسم** جل حياته لهذا الفن الذي ساهمة فبقدر كبير بشيوع هيبته تمكن محمد راسم بواسطة عبقريته و تحريته العلمية من إثراء هذا التراث الفني من دون المساس بأصالته وذلك على الحفاظ على التقنيات الجمالية الخاصة بفن المنمنمات اقتنع محمد راسم أن المقاومة يمكن كذلك خوضها على جبهة الفنية لهذا السبب حاول جاهدا أن يحمل انجازاته علامات الإبداع العظمة والفخر كما كانت عليه الجزائر قبل الحقبة الاستعمارية وكما كان يريدها بعد استعادة استقلالها كان يريد أن يوقظ كرامة الشعب الجزائري أن يثير غيرته، جدارته وحنينه"[1].

في هذه المنمنمة "شرفات القصبة"، لا يكتفي محمد راسم برسم واجهات المدينة، بل يُعيد ترتيب الفضاء وفق منطق **الذاكرة والحنين**، ويستحضر من خلال تفاصيل دقيقة **أنثروبولوجيا المرأة، السكن، والعيش في المدينة الإسلامية**؛ الشرفات في اللوحة ليست مجرد بنيات معمارية بارزة من الجدران، بل هي **عيون القصبة**، تطل منها النساء دون أن يُرَين، وتُراقب المدينة من خلف ستائر من خشب محفور وزجاج ملون، في تواطؤ جميل بين الداخل والخارج، بين الخاص والعام، بين العزلة والانتماء.

[1] عبد الرحمن جعفر الكناني، (2012)، **منمنمات محمد راسم الجزائري روح الشرق في الفن التشكيلي العالمي** ، منشورات الإبرز ، 2012 ، ص34



شُرفات القَصَبة» لمحمد راسم»

تمثل الشرفات – كما يُصورها راسم – تجليًا لما يسميه *هنري لوفيفر* بالفضاء المعيش"؛ فضاءٌ يحمل المعنى، يتجاوز الوظيفة، ويعبّر عن البنية القيمية لسكانه. فالنوافذ المغلقة نصف المفتوحة، والمشربيات الخشبية، والسّتر الظليل، كلها تدلّ على **قيم الخصوصية، الكرامة، والأنوثة المُصانة** في الثقافة القصباوية. من خلف هذه الشرفات، تُدار الحياة اليومية، وتُشاهد الشوارع، وتُتداول الحكايات.

تتلاعب اللوحة بالألوان الهادئة والظلال المنكسرة لتعكس **نَفَسًا طقسيًا**. . محمد راسم لا يرسم مدينة، بل يرسم **أنفاس مدينة**، والمرأة التي تتراءى من الشباك ليست فردًا، بل رمزًا، تمثّل حضور الأنثى في المدينة كمراقبة، كذاكرة، وكفاعل صامت. وهي تجسيد أنثروبولوجي للفضاء الأنثوي المنضوي داخل المدينة الذكورية؛ تُطلّ دون أن تُكشَف، تتفاعل دون أن تُحتوى.

"**شرفات القصبة**" هي في جوهرها سردية صامتة تقول إنّ **المدينة تحيا عبر نوافذها**، وأن الهوية لا تُكتب في كتب التاريخ، بل تُنسج في تفاصيل الجدران، والستائر، والخشب المنقوش، وفي كل ما تحفظه العين من دون تصريح.

ونحن بذلك أمام منمنمة ليست تصويرًا هندسيًا لعمران، بل **رؤية طقسية لمدينةٍ تهمس من خلال جدرانها**، ومثلما يقول ***جاستون باشلار***: "**البيت ليس مكانًا للسكن فقط، بل خزانًا للذكريات العاطفية والرمزية**"، فإن "شرفات القصبة" لمحمد راسم تُصبح رمزًا لمدينة تسكن الذاكرة أكثر مما تسكن الخرائط.

ثالثا: النسيج التقليدي في القصبة: خيوط تحوك الذاكرة الجماعية

في قلب القصبة العتيقة، حيث تتشابك الأزقة الضيقة بروح المكان، وتشهد الجدران على قرون من التاريخ، نشأ **فن النسيج التقليدي** كتعبير أنثروبولوجي حيّ عن ثقافة المكان والإنسان. لم يكن النسيج مجرّد صنعة تكميلية أو مهنة يدوية بل شكّل أحد أهم روافد التراث اللامادي الذي حفظته الذاكرة النسائية، ونقلته الأيادي عبر الأجيال، داخل البيوت، وفي ظلال الحوانيت الصغيرة، أو بين جدران الزوايا والقصور. في السياق الأنثروبولوجي، يمثل النسيج أكثر من عملية تحويل خيوط إلى أقمشة؛ فهو **رمز للهوية، ووسيلة تعبير ثقافي، وشيفرة اجتماعية**. فالمرأة العاصمية، وهي تدير نولها أو تحيك خيوط "العبروق" و"الصوف"، كانت تصوغ من نسيجها رسالة صامتة تعبّر عن المكانة، والذوق، والانتماء الاجتماعي. وكان اختيار الألوان والزخارف والمواد يعكس طبيعة المرحلة (عروس، أرملة، أم. . .)، والانتماء الطبقي والأسري، بل وحتى البعد الديني أحيانًا.

1. أنواع الأنسجة التقليدية في القصبة

- **النسيج الصوفي:** يُعد من أبرز أنواع النسيج في القصبة، خاصّة في إنتاج "البرنوس" و"الحايك"، وقد كانت العائلات العاصمية تحرص على اقتنائه من أسواق القصبة مثل "سوق السمارين" و"سوق اللوح". يتم غزل الصوف يدويًا ثم يُحوك بعناية على النول التقليدي، وكانت نساء القصبة يتقنّ خلط الألوان الترابية: الأبيض، البيج، الرمادي، في رمزية تعكس الوقار والاحتشام.
- **نسيج الحرير والقطن:** يُستعمل في صناعة المنسوجات الفاخرة الخاصة بالمناسبات، مثل "محرمة الخرج" و"الجبادور" و"القفطان"، وكانت تُطرّز بخيوط الذهب والفضة (الفتلة) لتتحول إلى رموز بصرية للقوة الاقتصادية والمكانة العائلية.

- **النسيج الديني:** له حضور خاص داخل المساجد والزوايا، مثل "السجاد" و"الستائر" المطرزة التي تزيّن المحاريب أو أضرحة الأولياء، وتُحاك غالبًا بنية القُربى والنية الطاهرة، وتكاد لا تخلو زاوية من زوايا القصبة من سجّاد محلي نسجته نسوة الحي كوقف ديني.

2. المرأة والأنسجة: المبدعة والحافظة

في السياق الأنثوي، كانت عملية النسيج ترتبط بالحياة اليومية، وطقوس الانتقال، حيث يتم إعداد جهاز العروس في القصبة باهتمام بالغ، ويُخصص فيه جزء للمنسوجات المحبوكة يدويًا، مثل **الحايك، والعبايا، والمناشف المطرزة.** كانت الفتيات يتعلمن منذ الصغر أساسيات الحياكة، كجزء من التربية على الصبر والذوق والهوية، وهو ما يجعل النسيج تعبيرًا رمزيًا عن **الدور الأنثوي في نقل الثقافة المادية وغير المادية.**

3. النسيج بين الاندثار والعودة

شهد النسيج التقليدي في القصبة تراجعًا كبيرًا في العقود الأخيرة، بفعل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، والغزو الصناعي. غابت الأنوال الخشبية عن البيوت، وأُهملت مهن "الناسجات" و"الغزّالات"، ولم تبقَ سوى ذاكرة بصرية متناثرة في متاحف القصبة أو في زوايا الصور القديمة، غير أن حركات المجتمع المدني، وبعض الجمعيات النسوية، أعادت إحياء بعض الممارسات النسيجية، وافتُتحت ورشات تكوينية داخل القصبة، هدفها إعادة الروح إلى هذه الصنعة بوصفها **مكوّنًا هوياتيًا ومورِدًا اقتصاديًا مستقبليًا.**

وبالتالي؛ لا يمكن النظر إلى نسيج القصبة بوصفه ماضيًا جامدًا، بل هو **نسيج حيّ،** يحمل في خيوطه نَفَس الجدات، وألوان الطفولة، ورموز الانتماء إلى ذاكرة مدينة لا تُنسى. إنه دفتر لا يُكتب بالحبر، بل بالخيوط، ولا يُقرأ بالعين فقط، بل بالإحساس، والاحترام لتلك الأيادي التي حيكت به المجد والهوية.

4. الحرفيات في القصبة: حاملات سرّ الخيط والإبرة

لم يكن النسيج في القصبة **مجرد** مهنة جماعية، بل حرفة ذات **مقام عالٍ**، تُمارسها نساء ذاع صيتهن في الأحياء الضيقة، حتى صرن بمثابة معالم بشرية تنسج التاريخ كما تنسج الخيوط. كانت أمثال" **لالة خديجة القيطونية** "في حي القصبة العليا، أو" **خياطة درب الزيتون** "التي اشتهرت بإعداد *الحايك المرمري* للعروس، رموزًا حية تنقل الخبرة والحرفة من صدر إلى صدر، ومن أصابع إلى أصابع.

وفي بيوت أخرى، **كانت** هناك نساء مثل" **خالتي الزهرة**"، التي احترفت حياكة المناشف المطرزة، و"**لالة رقية** "التي خصصت غرفة من بيتها لـ"فتلة الحرير"، لا يدخلها إلا من تتقن طقوس الحياكة والاحترام. هؤلاء النساء لم يُدرّسن في مدارس، ولكنهن كنّ **مدارس قائمة بذاتها**، تحفظ الأشكال والزخارف، وتضبط المقاسات والعُقد، كما تحفظ الصمت المقدّس للتراث.

1.4. أشهر أنواع الأقمشة والرموز الزخرفية

كانت القصبة تنتج أنسجة ذات طابع خاص، من بينها:

- **الحايك البلوزة:** من القطن الأبيض أو المخلوط بالصوف، ترمز إلى الاحتشام.
- **العبروق:** خيوط رفيعة تُستخدم في الحياكة الدقيقة، وتُصنع محليًا.
- **محرمة الخرج:** غطاء الرأس المطرّز بخيوط الذهب، يُلبس في المناسبات، ويُعبر عن البهاء.
- **الفتلة:** خيط ذهبي أو فضي، يُستخدم لتزيين "الجبادور" و"الفرملة"، ويُنسج في خطوط دقيقة تُشير إلى الرقيّ الاجتماعي.

وكانت الألوان، كالتركواز، القرمزي، النيلي، والعنّابي، تُختار بعناية، وفق رمزية الطقس أو الموسم أو المناسبة.

2.4. اللباس التقليدي في قصبة الجزائر

في أزقة القصبة العتيقة، لا يُقاس اللباس بثمنه أو خامته، بل بقدرته على حمل الذاكرة وتطريز التاريخ في ثناياه. اللباس هنا ليس مجرد ساترٍ للجسد، بل وثيقة حيّة تنطق بانتماء صاحبه، وتُعرّف به بين أهله وناسه، وتمدّ خيوطها بين المناسبات والطقوس والطبقات الاجتماعية.

4. 3. الحايك: رداء العفّة والهيبة

تتقدّم صورة "المرأة العاصمية" في الذاكرة الجمعية وهي ترتدي **الحايك الأبيض**، المصنوع من الحرير أو القطن أو الصوف حسب القدرة، تلفّه بإحكام فوق جسدها، وتغطي وجهها بقطعة من التول تُعرف بـ**العجار** أو **الغطّاية**. لم يكن الحايك مجرد لباس، بل علامة على التربية والحياء والكرامة، وكان يُلبَس في الخروج إلى السوق، إلى الحمام، أو لزيارة الجارات. وكان يُهدى للعروس ليلة زفافها، كأنما هو مفتاح انتمائها الجديد إلى عالم النساء العاصميات.

4. 4. الجبادور والفرملة: أناقة الحضور وبهاء المناسبات

في حفلات الأعراس أو المناسبات الدينية، تلبس المرأة القصباوية ما يُعرف بـ**الجبادور**، وهو ثوب ذو طابع عثماني مشغول بـ"الفتلة" الذهبية، ويُرافقه سروال "مدوّر" أو "قندورة"، ويُلبَس فوقه "الفرملة"، وهي سترة مفتوحة عند الصدر، مزركشة باليد، وكانت الفتاة الماهرة تُعرَف بقدرتها على تصميم هذه الأثواب بنفسها، أو على الأقل اختيارها من حرفيّات القصبة بدقة، وقد ورثت البنات هذه الألبسة عن الأمهات في ما يشبه **طقوس التوريث الأنثوي** الذي يختزن قيم الجمال والاعتزاز والأنوثة.

5.4. السروال المدور والمخزني والسروال القبايلي

تنوّعت السراويل الرجالية والنسائية في القصبة، بحسب المناسبة والانتماء الاجتماعي.

- **السروال المدور**: يُلبس في الأعراس والاحتفالات، فضفاض من الأسفل، ومطرز في الزوايا.
- **السروال المخزني**: أكثر بساطة، ويرتبط بالزي اليومي.
- **السروال القبايلي**: دخل القصبة مع احتكاكها بالأمازيغ في الأحياء المجاورة، ما يعكس ديناميكية ثقافية حيّة في اللباس.

6.4. البرنوس والقشّابية: رجال القصبة في هيبتهم

لم تكن الأناقة حكرًا على النساء. فرجال القصبة ارتدوا "البرنوس" الأبيض في الشتاء والمناسبات الكبرى، وهو معطف طويل من الصوف يُلقى على الكتف، أما "القشّابية" فكانت لباسًا شتويًا أكثر تواضعًا

ودفنًا، وكانت الطرابيش (الطاقية الحمراء) رمز الرجولة والهيبة، لا يُخلع إلا داخل المساجد أو في بيوت العزاء.

الملابس في القصبة لم تكن موحّدة، بل كانت تُحدّد **هوية لابسيها**؛ المرأة المتزوجة عن العزباء، الثري عن متوسط الحال، العروس عن الزائرة، بل وتُظهر الطقوس الدينية أو الاحتفالية من خلالها. في رمضان تظهر النساء بلباس خفيف مزركش، وفي المولد النبوي يرتدين الأبيض الناصع، أما في عاشوراء فتميل الألوان إلى الداكن والرصين.

رابعا: الإكسسوارات في قصبة الجزائر: حين تتكلم الزينة لغة الهوية

لم تكن الزينة في قصبة الجزائر مجرد تكملة للزي، بل كانت **لغة رمزية مشفّرة**، تتكلّم بها النساء وتفككها الأخريات، لتقرأ فيها ملامح النسب، والمرحلة العمرية، والمستوى الاجتماعي، بل وأحيانًا المزاج الشخصي. إن الإكسسوارات هنا ليست جمادًا، بل **كائنات محملة بالذاكرة والعاطفة**، تتوارثها النساء كما يُورَّث السرّ، وتحمل في لمعانها وهج الأعراس وندوب الفقد وأثر اللقاء.

1. الخلاخل: خطوٌ يرنّ بالحكاية

" الخلخال" ليس مجرد سوار للكاحل. في القصبة، كانت **الخلاخل النحاسية أو الفضية** تُصدر صوتًا مميزًا في الأزقة، تعرفه النسوة جيدًا، فيدلّ على وجود امرأة شابة، متزوجة حديثًا أو مقبلة على الزواج. وكان ارتداؤه في المناسبات يرمز للخصوبة والبهجة، وقد توارثت الأمهات هذه العادة، بل وكان شراء أول خلخال **جزءًا من جهاز العروس**، توضع في صندوق الملابس المطرّز، إلى جانب الجبادور والمنديل المعطّر.

2. المسايس (الأساور): سِيماء الرفعة والجمال

تُعرف الأساور في القصبة بـ"المسايس"، وتُصنع من الفضة غالبًا، وتزيَّن بنقوش تقليدية مستوحاة من الزخرفة العثمانية أو الأمازيغية. كانت تُرتدى على اليدين في شكل زوجيّ، أو رباعيّ، أحيانًا يصل العدد إلى ستة أو أكثر في اليد الواحدة. وكانت المرأة تتباهى بصوت ارتطامها ببعضها البعض أثناء الحركة، ما يدل على **الذوق والوفرة والأنوثة**، ومن المسايس ما يُحفظ كـ"حرز"، يوضع داخله حرزٌ من الحناء أو القرآن، ليُلبس كتعويذة.

3. الشوشات: إكليل الرأس وهالة الفخر

"الشوشة" أو "الشوشة العاصمية" هي زينة توضع على الرأس، غالبًا فوق غطاء الشعر أو مع "الشقّوفة"، وتُطرّز بالخيوط الذهبية أو الفضية، وكانت تُلبس خاصة في الأعراس وتُربط من الجانبين بخيط يمر تحت الذقن، وتدل على **المرأة المتزوجة أو العروس**، بل وقد كانت تُخاط خصيصًا لتتطابق مع لون "الفرملة" أو "الجبادور".

4. الحزام العقيق (السخاب): عبق العطر والهوية

من أقدم ما عرفت به المرأة القصباوية، **السخاب** وهو حزام أو عقد مصنوع من "العقيق" و"القرنفل اليابس" و"المسك"، تُضاف إليه حبوب العطر وتُلفّ في خيوط حريرية. كان يُلبس حول العنق أو الخصر، وكانت رائحته تعبّر عن الطهارة والنقاء و**الأنوثة المتوهجة**، وقد ربطه الكثيرون بطقوس ما بعد الحمّام، إذ ترتديه المرأة بعد استحمامها وتطيّبها، كأنها تُعلن دخولها في عالم النعومة والاحتفال.

6. الخواتم والمحابس: بين الزينة والرمز

كان لكل إصبع خاتمه الخاص، ولكل فترة من العمر أو المناسبة نوع مفضل. فالخاتم العريض يُهدى للعروس، وخاتم البنصر يُلبَس كعلامة زواج، والخاتم ذو الفصّ الأزرق يُعتقد أنه يصدّ العين، وكان الذهب والفضة يُختاران حسب القدرة، أما الأشكال فتمتد من الورود والهلالات، إلى النقوش الهندسية الدقيقة.

6. الإكسسوارات كمرآة للعلاقات الاجتماعية

في مجتمع القصبة، كانت **الإكسسوارات وسيلة تواصل اجتماعي**، تشفّ عن الكثير مما لا يُقال. فالمرأة التي ترتدي كثيرًا من الزينة في عزاء مثلًا تُعاتب اجتماعيًا، والعروس التي لا تلبس الخلاخل تُعتبر ناقصة الجهاز، والعجوز التي ترتدي سخابًا يُنظر إليها بحنين وتقدير، لأن في ذلك **استمرارية للهوية** لا تذبل.

7. أدوات الزينة اليومية في قصبة الجزائر: حوائج صغيرة تروي سيرة الجمال

في قلب البيوت القصباوية، وعلى "الطابلة" المنخفضة بجانب المرايا المذهّبة أو النحاسيات المزخرفة، كانت تقبع أدوات الزينة اليومية، لا بوصفها مجرد "عدة أنثى"، بل كعناصر متأصلة في الثقافة الحضرية، ومكونات ثابتة في طقوس الحياة اليومية، تتفاعل معها المرأة كمن يتعامل مع طقس مقدّس، يختلط فيه الجمال بالروح، والعناية بالجسد بالانتماء للبيئة.

8. المرآة النحاسية: عيون الذاكرة الصامتة

كانت المرآة إحدى القطع المركزية في طقوس التزيّن، وغالباً ما تكون مؤطّرة بإطار نحاسي مشغول بنقوش نباتية أو هندسية. تُوضع المرآة على طاولة منخفضة أو تُعلّق بجانب خزانة الثياب، وكانت تُستخدم بعناية فائقة، لأنها **تعكس الذات وتعيد تشكيلها**. وفي القصبة كانت المرآة تُغسل أحياناً بماء الزهر أو ماء الورد، لأنها "تحب النقاء"، حسب المعتقد الشعبي.

9. مشط القرن: التمشيط طقس مقدّس لا مجرد عادة

لم تكن الأمشاط في قصبة الجزائر مصنوعة من البلاستيك، بل من **قرن الجاموس** أو **خشب العرعار**، وتُشكَّل يدويًا بأحجام مختلفة، منها ما يُستخدم للشعر الطويل، ومنها القصير لتصفيف الغرة أو تمشيط الحواجب. كان المشط أداة شخصية جدًا، ولا يُعطى لأحد، ويُحفظ في "صاشية" أو حقيبة قماشية مطرزة. التمشيط كان طقساً صباحياً يومياً، يُرافق بقراءة البوقالات أو بترديد الأغاني التراثية مثل: *مشطيني يا مّاما بامشط النور، شعري طويل كيف التبر المسجور. . .*

10. علب الحناء والكحل: مستودع الأسرار الجمالية

- **الحناء** كانت محفوظة في علبة من النحاس أو الخشب، وغالباً ما تكون مزينة بزخارف. تُخلط بماء الورد أو بمغلي القرنفل حسب المناسبة، وتُستخدم لتزيين اليدين، القدمين، وأحياناً الشعر.
- **الكحل**، وهو من أقدم أدوات التجميل، كان يُحفظ في علبة صغيرة مع عود خشبي أو من العاج يُسمى "عود الكحل". الكحل لم يكن فقط للزينة، بل يُعتقد أن له خواصّ طبية ويقي من العين والحسد، وقد يُكحّل به الرضيع في سابع ولادته.

11. قوارير العطر: عطر الذاكرة في زجاجات زاهية

قوارير العطر كانت تُحفظ بعناية، وغالباً ما تُصنع من الزجاج الملوّن، أو تُستورَد من تونس والمغرب. ومن العطور المستخدمة: **العود، المسك، العنبر، الورد البلدي، الفلّ، البنفسج، وماء الزهر.** العطر يُرشّ على اللباس الداخلي، وعلى شعر المرأة بعد الاستحمام، ويُستعمل كذلك في الوسائد والثياب المخزّنة، ليصبح **العطر توقيعاً شخصياً للمرأة** لا ينسى.

12. صناديق الزينة (المرايات): الخزانة الصغيرة لذاكرة المرأة

كانت "المراية" أو "السانية" صندوقًا خشبيًا صغيرًا يحتوي كل أدوات الزينة، ويُزيَّن غالبًا بمرآة في الغطاء الداخلي. فيه تحفظ المرأة مجوهراتها البسيطة، مشطها، العطر، الحناء، الكحل، وبعض الأوراق الصغيرة التي تحتفظ فيها بدعوات الأعراس أو أسماء العرّافات. هذه "المراية" كانت تُمنح للبنت عند الزواج، وفيها رمزية عظيمة، إذ تُعبّر عن انتقالها من مرحلة الطفولة إلى عالم المرأة.

13. المناديل المعطّرة: أناقة الظلّ ورائحة الحضور

كانت النساء في القصبة يحتفظن بـ**مناديل صغير من القطن أو الحرير** في حقائبهن أو أكمامهن، معطّر بماء الورد أو المسك، هذا المنديل لم يكن فقط للمسح أو الزينة، بل كان يُعطى أحيانًا كهدية، أو يُوضع فوق صدر المرأة أثناء الحناء، أو يُربط على شعر الطفلة يوم العيد. كان **قطعة حنونة تعكس ذوق المرأة وعطر منزلها.**

خامسا: زينة الأطفال في قصبة الجزائر: حماية تزهو بالجمال

في الأزقة الضيقة لقصبة الجزائر، حيث تتعانق الجدران وتتقاطع الروائح والعطور، كانت زينة الأطفال ـ وخاصة البنات ـ جزءًا من الطقوس اليومية التي تمارسها الأمهات والجدّات، لا بقصد التجميل وحده، بل بوصفها **درعًا رمزيًا ضد الشرور**، ووسيلة للتمييز الطبقي والثقافي، وتجسيدًا لهوية الأسرة والمكان، فالطفل في المخيال الشعبي القصباوي "أمانة"، وجسده الضعيف عرضة للحسد والأرواح الشريرة، لذا لم يكن يُزيَّن عبثًا، بل وفق طقوس دقيقة تدمج بين **الجميل والمعتقد، العرفي والديني، العفوي والمدبَّر.**

1. الكحل: خطوط الحماية والجمال

يُعتبر **الكحل** أول أدوات الزينة التي توضع على وجه الطفل، خاصة في الأيام الأولى بعد الولادة. فالكحل في هذا السياق لا يُنظر إليه كزينة جمالية فحسب، بل هو **مانع روحيّ ضد العين والسوء**. غالبًا ما يُرسم به خط صغير في زاوية العين، أو تُرسم نقطة في الجبهة، أو علامة خلف الأذن، وكان يُقال: "**نكحلوه باش ما يجيهش الشرّ، ولا تقول راه جميل بزاف، قول: ما شاء الله.** وإذا كان الطفل "يبات يعيط بزاف"، كانت الجدات يُكحّلن له "عينو اليمنى فقط" أو يضعن قليلاً من الكحل تحت الوسادة.

2. التمائم والحروز: زينة تحرس الروح

تُعد **التمائم أو الحروز** من أبرز رموز زينة الأطفال في القصبة، وغالبًا ما تُخاط في قطعة جلدية صغيرة تُعلَّق في رقبة الطفل أو تُربط على كتفه، وتُكتب فيها آيات قرآنية أو أدعية للحفظ، أما شكلها، فيختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية، حيث كانت عائلات التجار أو الحرفيين تستوردها من فاس أو تلمسان، في حين تصنعها الأسر البسيطة يدويًا، تُزيّن الحروز أحيانًا بخيوط ملونة أو خرزة زرقاء، وكلها تشير إلى **وظيفة الزينة كدرع روحيّ**.

3. الخلاخيل والسلاسل: خطوات موسيقية للفرح

من مظاهر الزينة البارزة عند البنات الصغيرات، خاصة في المناسبات، كانت **الخلاخيل**، وهي أساور تُلبس في القدمين وتصدر صوتًا عند المشي. غالبًا ما تكون من الفضة أو النحاس، وتحمل رمزية الفرح والحياة، إذ يقولون إن **صوت الخلخال يطرد الأرواح الشريرة**، أما **السلاسل** فتُزيّن رقبة الطفلة، وتعلَّق بها أحيانًا خرزة زرقاء أو قلب صغير من الفضة يُنقش عليه اسم الطفلة أو آية "الكرسي".

4. القفطان الصغير والقباقيب: أناقة البنت العاصمية

في المناسبات والأعراس، كانت البنات تُلبسن **قفطانًا صغيرًا مطرّزًا بالفتلة**، يُشبه ما تلبسه النساء الكبار، مع حزام حريري أو جلدي، يُربط في الخصر، يُرافق ذلك **قبقاب خشبي صغير** يُزيّن بالنقوش أو الرسومات، تعبيرًا عن مشاركة الطفلة في أجواء الاحتفال، هذا التزيين لم يكن مجرد محاكاة للكبار، بل هو **طقس إدماج اجتماعي**، تُدرّب من خلاله البنت على الذوق والمظهر والوقار.

5. الشعر والمشابك: جدائل الحنان

شعر الطفلة كان يُعتنى به بشكل خاص، ويُقسّم غالبًا إلى جديلتين أو ثلاث، تُربط بقطع قماش ملوّنة تُسمى "الشرائط"، أو مشابك من البلاستيك تُشترى من سوق القصبة أو تُجلب من العاصمة، ويقال إن **الجديلة تحفظ العقل وتبعد الوسواس**، وإن "البنت بلا جديلة ما عندهاش بركة".

6. الروائح والبخور: عطر الطفولة في بيت القصبة

كانت بعض العائلات تضع **نقطة من ماء الورد أو المسك خلف أذن الطفلة**، خاصة عند زيارة الأقارب أو الذهاب إلى "الحفلة"، كما يُبخَّر لباس الطفل قبل ارتدائه بـ**عود القماري أو العود الأبيض**، لأن الرائحة الطيبة ترمز إلى النقاء، وتبعد "الشماتة".

7. زينة الطفولة بين الطقس والمعتقد

في قراءة أنثروبولوجية لهذه الزينة، ندرك أن الطفل في ثقافة القصبة لم يكن مجرّد كائن صغير يتجمّل، بل كان **نقطة التقاء بين الدين والمعتقد، بين الجمال والرمز، بين الخوف والرجاء**، فكل قطعة تُوضع عليه، وكل لون يُختار، وكل رائحة تُعطّر ملابسه، كانت تعبيرًا عن *القلق الوجودي على مصيره، والحبّ المفرط الذي تكسوه الحيطة.*

سادسا: الختان والحلاقة في قصبة الجزائر: طقوس العبور بين الطفولة والرجولة

في قلب القصبة، حيث تتشابك الذاكرة اليومية بالتقاليد الراسخة، لم يكن الختان مجرد فعل بيولوجي أو طبي، بل **طقس اجتماعي واحتفالي** له أبعاد أنثروبولوجية غنية. كان يُمثّل مرحلة انتقالية في حياة الطفل الذكر، تخرجه رمزيًا من عالم الطفولة البرئية إلى عتبة "الرجولة الروحية"، وتُرافقه طقوس خاصة تعكس القيم الدينية، والهواجس الاجتماعية، والمعتقدات الشعبية المتداولة منذ قرون.

1. أول الحلاقة: الجمال والنية الحسنة

تبدأ طقوس الحلاقة الأولى، أو ما يسمى محليًا "الحلاقة العيدية"، في أولى سنوات الطفل، حيث كانت الأمهات تأخذن أبناءهن إلى **الحلّاق الشعبي** قبل العيد أو المناسبات الدينية (مثل المولد النبوي)، وكان يُختار الحلّاق بعناية، ويفضَّل أن يكون رجلًا "مبروكًا"، أي صاحب يدٍ مباركة وذكرٍ حسن. يُوضع الطفل في حضن أبيه أو جده، وتُقرأ عليه بعض الأدعية، ثم يبدأ الحلّاق بحلق شعره باستخدام **الموسى أو الشفرة التقليدية**، وتُجمع أولى خصيلات الشعر في منديل خاص، وتُحتفظ بها، اعتقادًا أن الشعر

يحمل "أثر الطفل". بعض العائلات تدفن خصلة الشعر تحت شجرة زيتون، أو تضعها في سقاء ماء، ليُروى الطفل بـ"بركة الأرض".

2. الختان: من دم الجسد إلى نقاء الروح

الختان، أو ما يُعرف شعبيًا بـ"**الطهارة**"، كان طقسًا بالغ الأهمية في حياة العائلة القصباوية، وغالبًا ما يُجرى في سنٍّ تتراوح بين الثالثة والسابعة، في توقيت لا يُترك للصدفة، بل يُنتقى غالبًا في **المولد النبوي الشريف**، أو خلال الاحتفال بـ"عاشوراء"، ليكون الحدث **مشحونًا بالرمزية الدينية**. كانت العائلة تُعدّ للحدث بأسابيع مسبقة: شراء الجلابية الجديدة، حذاء "الشبشب البلدي"، السروال التقليدي المطرّز، والبرنوس الأبيض الصغير، أما الطفل فيُعامل كـ"عريس صغير"، يُحمل على الأكتاف، وتُزغرد له النسوة، وتُنثر الحلوى على الحضور.

العملية كانت تُجرى عادةً في **بيت الطفل**، على يد "الختّان" التقليدي، الذي غالبًا ما كان معروفًا في الحي بيده الخفيفة، ويُستدعى خصيصًا مع "صندوقه" الخشبي الذي يحتوي أدواته المعقمة بالنار، وقبل العملية، تُقرأ عليه آيات قرآنية، ويُعطى الطفل شيئًا من الحلوى أو الدراهم "باش يتشجّع"، ويُربط في حضن أحد أقاربه.

3. الدم والنذور: رمزية التضحيات

لحظة نزول الدم كانت محورية في الطقس، إذ يُقال في الموروث الشعبي: *"دم الطهارة دم بركة"*. فتقوم بعض الجدّات بتلطيخ عتبة الباب أو جدار الغرفة بقطرة من الدم، كنوع من **الوقاية من العين الشريرة**، فيما تضع أخريات قطرة منه في صحن فيه "سكّر وماء ورد" لتُغسل به جبهة الطفل لاحقًا.

في كثير من الحالات، تُذبح **دجاجة أو خروف صغير** بالموازاة مع الختان، كـ"عقيقة مؤجلة"، وتوزع اللحوم على الجيران والفقراء. كما يُنذر البعض بـ"زيارة مقام سيدي عبد الرحمن" بعد نجاح العملية، أو بزيارة الزاوية التي تنتمي إليها العائلة روحيًا.

4. الهدايا والاحتفال: الجسد في خدمة الجماعة

بعد الختان، يتحوّل الطفل إلى "محطّ الأنظار"، تُهدى له الألعاب والملابس والحلويات، وتزوره النساء مهنئات، يُقبّلن رأسه، ويمنحنه الدراهم في صحن مزيّن يُسمى "صحفة الطهارة"، وتُقام وليمة كبيرة

على شرفه، يُدعى إليها الأقارب والجيران، ويُطبخ فيها عادةً "الرشتة باللحم" أو "الشطيطحة"، كرمز للفرح والخصب.

في النظرة الأنثروبولوجية، يمثل الختان في قصبة الجزائر **طقس عبور نموذجي** يدمج بين الجسد والدين والمجتمع، فهو لا يُمارس في الخفاء، بل في وضح الاحتفال، وبمشاركة الجماعة، ليكون فعلًا عامًا يؤكد "انتماء الطفل إلى الجماعة المسلمة"، ويعيد إنتاج القيم الثقافية من خلال الطقوس المتكررة.

يُعلّم هذا الطقس الطفل منذ نعومة أظفاره أن جسده ليس ملكًا فرديًا، بل **وعاءً للهوية الجماعية**، وأن الألم أحيانًا هو سبيل للانتماء والاكتمال.

سادسا: طقوس البلوغ والزواج في قصبة الجزائر: انتقالات رمزية داخل الفضاء الاجتماعي

في قصبة الجزائر، لم تكن الحياة مجرد تسلسل عفوي للمراحل العمرية، بل كانت كل مرحلة تُحتفى بها بطقوس دقيقة، تُنسَج من تقاليد شفهية، وعادات متوارثة، ورموز تغوص في عمق الهوية الجماعية. وضمن هذه المنظومة، احتلت **طقوس البلوغ والزواج** مكانةً مركزية، بوصفها انتقالًا من حالة اجتماعية إلى أخرى، ومن وضع رمزي إلى وضعٍ مختلف، يحكمه التدرج والتلقين والاحتفال الجماعي.

1. أول البوادر: طقوس البلوغ بوصفها إعلان دخول العالم الرمزي للكبار

بالنسبة للفتيات، كان أول حيض يُعدّ لحظة فاصلة، لا تُعلن بشكل مباشر، بل يُحيطها الحياء والرمز. تقوم الأم أو الجدة بإعداد "طبق البلوغ"، ويتكون عادة من الحلوى التقليدية مثل "الدزيريات" أو "المحنشة"، يوزَّع على الجيران والقريبات المقرّبات، في إشارة صامتة إلى أن الفتاة أصبحت "آنسة"، ويُمنع عنها الخروج دون غطاء رأس، وتُشجَّع على ارتداء "البلوزة" أو "الجلابة"، وتبدأ في تعلّم الطقوس النسوية مثل الطهي، تحضير البوقالات، وتصفيف الشعر. أما الفتى، فطقوس بلوغه تبدأ بالاحتفال بحلاقة شعره كاملة (عادة في سن 13 أو 14)، يُدعى له الأقارب والجيران، وتُقدم "المقروط" و"الشاي" و"المطلوع"، ويُلبس أول قندورة من الكتان الأبيض، مع صديري، وغالبًا ما يُؤخذ إلى المسجد لحفظ القرآن وتعلم الوضوء والصلاة، في إشارة إلى دخوله مجال الرجولة الدينية والاجتماعية.

سابعا: الزواج: طقس العبور نحو النضج الاجتماعي

الزواج في القصبة لم يكن مجرد اقتران بين فردين، بل كان **مشروعًا اجتماعيًا جماعيًا**، تُنسج خيوطه بتأنٍ من قبل العائلات، عبر سلسلة من الطقوس الدقيقة، تبدأ بالخطبة ولا تنتهي ليلة العرس.

1. الخطبة (الطلبة)

ترسل عائلة الشاب "الخطّابة" أو إحدى القريبات لتقصّي أخبار البنت، أخلاقها، أصلها، مهاراتها المنزلية، ومدى التزامها بالتقاليد. بعدها، تُرسل "الطلبة" رسميًا، وتحمل معها الحلويات والحناء. وإن قبلت العائلة، تُقدَّم "الشرط" وهي هدايا رمزية (أقمشة، مجوهرات، قفطان)

- **التحضيرات:**

تتولى النساء تحضير "الجهاز" والذي يتضمن الألبسة، أغطية الصوف، أدوات الزينة التقليدية، و"جهاز الكوزينة" بما فيه الطناجر النحاسية والصواني.

- **طقوس الحنة:**

تقام ليلة الحنة قبل الزفاف، حيث تُجتمع قريبات العروس، تُزيَّن بالحناء في طقس يغمره الغناء والرقص، وتُعد أطباق خاصة مثل "اللحم لحلو"، و"طاجين الحلوى"، في حين تُقرأ البوقالات تفاؤلًا واستبشارًا.

- **يوم العرس (الدفوع):**

يُحمل جهاز العروس في موكب نسوي مهيب إلى بيت الزوجية، تصاحبه الزغاريد والموسيقى الشعبية (عادةً غناء "العيساوة" أو "المداحات"). أما العريس، فيرتدي قندورته البيضاء وبرنوسه الجديد، ويُحمل على الأكتاف وسط أهازيج الرجال.

- **رمزية الطقوس: من الفرد إلى الجماعة**

في التحليل الأنثروبولوجي، نجد أن طقوس البلوغ والزواج في القصبة ليست مجرد عادات، بل هي **طقوس عبور** (rites de passage)كما وصفها "أرنولد فان غينيب"، تقود الفرد من مرحلة إلى أخرى داخل الجماعة. وتعمل هذه الطقوس على:

- **تثبيت الهوية الاجتماعية** للفرد.
- **ربط الخاص بالعام**، عبر إدماج الخاصية الفردية (البلوغ أو الزواج) ضمن سياق جماعي يضمن الاستمرارية.
- **نقل القيم** من جيل لآخر بلغة الرموز لا الكلمات.

ثامنا: مطبخ قصبة الجزائر: نكهات الأصالة وعبق التقاليد

عندما نتحدث عن مطبخ قصبة الجزائر، فإننا ندخل إلى عالم من النكهات الأصيلة، والأطباق الشهية، والوصفات المتوارثة عبر الأجيال. إنه مطبخ يعكس تاريخ المنطقة، وتنوع مكوناتها، ومهارة نسائها في تحويل المكونات البسيطة إلى أطباق فاخرة. مطبخ القصبة هو جزء لا يتجزأ من التراث اللامادي، يحمل في طياته قيم الضيافة، والكرم، والاجتماع حول المائدة، والاحتفاء بالمناسبات.

1. المكونات الأساسية: خيرات الأرض والبحر

مطبخ القصبة يعتمد بشكل كبير على **المكونات المحلية والموسمية، خيرات الأرض** تتجلى في الخضروات الطازجة (طماطم، فلفل، بصل، بطاطا، جزر، قرع)، والبقوليات (حمص، عدس، فول)، والحبوب (سميد، قمح، كسكس)، والأعشاب العطرية (كزبرة، بقدونس، نعناع، زعتر(. **خيرات البحر** حاضرة بقوة في المطبخ القصبوي، خاصة الأسماك الطازجة (سردين، مرلان، دوراد، قاروص) والمأكولات البحرية الأخرى. **اللحوم** أيضًا جزء أساسي، خاصة لحم الضأن والبقر والدجاج. **التوابل** تلعب دورًا حاسمًا في إضفاء النكهة المميزة على أطباق القصبة، مثل الكمون، والكزبرة، والكركم، والفلفل الأسود، والقرفة، والزنجبيل، والزعفران. **زيت الزيتون** هو المكون الذهبي الذي يضفي نكهة فريدة وقيمة غذائية عالية على معظم الأطباق.

2. **الأطباق الشهيرة:**

مطبخ القصبة غني بالأطباق الشهية والمتنوعة، التي تعكس مهارة الطهاة وذوقهم الرفيع. من بين الأطباق الأكثر شهرة:

- **الكسكس:** ملك المائدة الجزائرية، والكسكس القصبوي له خصوصيته. يُعد بالسميد المتوسط أو الخشن، ويُطهى على البخار، ويُقدم مع مرق غني بالخضروات واللحم (أو الدجاج) والحمص والزبيب. تختلف طرق تحضير الكسكس من عائلة لأخرى، لكن الأساس يبقى واحدًا: طبق شهي ودافئ ومغذٍ.

- **الطاجين:** يُعتبر الطاجين من الأطباق الرئيسية في المطبخ القصبوي. يُطهى في قدر فخاري خاص (الطاجين)، ويتكون من اللحم (أو الدجاج) والخضروات الموسمية والتوابل والزيتون والمخللات. تتنوع أنواع الطاجين بتنوع المكونات والنكهات، فهناك طاجين الزيتون، طاجين البرقوق، طاجين اللحم الحلو، طاجين الدجاج بالليمون، وغيرها الكثير.

- **الشخشوخة:** طبق تقليدي آخر من المطبخ القصبوي، يعتمد على رقائق العجين الرقيقة (الشخشوخة) المفتتة، والتي تُسقى بمرق غني باللحم والخضروات والتوابل. الشخشوخة طبق دسم وشهي، يُقدم عادة في المناسبات الخاصة والأعياد.

- **الحريرة:** حساء تقليدي جزائري، يُعتبر طبقًا أساسيًا في رمضان. الحريرة القصبية تتميز بنكهتها الغنية والمميزة، وتتكون من الطماطم، والبصل، والكرفس، والبقوليات (حمص، عدس)، واللحم (أو الدجاج)، والتوابل والأعشاب. الحريرة طبق دافئ ومغذٍ، يُقدم عادة مع التمر والليمون.

- **المحاجب:** فطائر رقيقة محشوة بالبصل والطماطم والفلفل الحار والتوابل. المحاجب طبق شعبي شهي، يُعتبر وجبة خفيفة أو مقبلات، ويُقدم ساخنًا.

- **البوراك:** رقائق عجين رقيقة محشوة باللحم المفروم أو الدجاج أو الجبن أو الخضروات، ثم تُقلى في الزيت. البوراك طبق مقبلات شهي ومقرمش، يُقدم عادة في رمضان وفي المناسبات الخاصة.

- **أساليب الطهي التقليدية:**

أساليب الطهي في القصبة تعكس **حكمة الأجداد ومهارة النساء** في استخدام المكونات المحلية وتحويلها إلى أطباق شهية. **الطهي البطيء** هو أحد الأساليب الأساسية، حيث تُطهى الأطباق على نار هادئة لساعات طويلة، مما يسمح للنكهات بالاندماج والتجانس، ويجعل اللحم والخضروات طرية وذائبة. **استخدام الأواني الفخارية** (الطاجين، القدرة) يضفي نكهة مميزة على الأطباق، ويساهم في الطهي

المتساوي والمحافظة على الرطوبة. **التقنيات اليدوية** في إعداد العجين، وتقطيع الخضروات، وتجهيز التوابل، تعكس مهارة الصانعات وإتقانهن. **التوارث الشفهي للوصفات** من الأم إلى الابنة، ومن الجدة إلى الحفيدة، يضمن استمرار التقاليد والمحافظة على أسرار المطبخ القصبوي.

- **البعد الاجتماعي والثقافي للطعام: مائدة الاجتماع ورمز الكرم**

الطعام في القصبة له **بعد اجتماعي وثقافي عميق. المائدة** هي مكان الاجتماع العائلي والاجتماعي، حيث يجتمع الأهل والأصدقاء والجيران لتناول الطعام وتبادل الأحاديث والقصص. **الضيافة والكرم** قيمتان أساسيتان في الثقافة القصبية، وتتجليان في إكرام الضيف وتقديم أفضل ما في البيت من طعام وشراب. **المناسبات والأعياد** لها طقوسها الغذائية الخاصة، حيث تُعد أطباق تقليدية خاصة، وتُقدم الحلويات والقهوة والشاي، وتعم الفرحة والبهجة. **رمضان** له مكانة خاصة في المطبخ القصبوي، حيث تُعد أطباق خاصة للإفطار والسحور، وتزداد الروحانية والتكافل الاجتماعي. **فن الطهي** في القصبة يُعتبر مهارة نسائية مرموقة، فالمرأة الماهرة في الطبخ تحظى بالاحترام والتقدير في المجتمع.

- **تطور المطبخ القصبوي والحفاظ عليه:**

مطبخ قصبة الجزائر، كغيره من المطابخ التقليدية، يتأثر **بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.** قد تظهر تأثيرات المطابخ الأخرى، وتتغير بعض أنماط الاستهلاك. لكن في المقابل، هناك **جهود للحفاظ على المطبخ القصبوي** كتراث ثقافي لامادي. توجد مبادرات لتوثيق الوصفات التقليدية، وتعليمها للأجيال الشابة، وتنظيم فعاليات ومهرجانات للتعريف بالمطبخ القصبوي وتشجيع استهلاكه. الحفاظ على مطبخ القصبة هو حفاظ على جزء هام من هوية وتراث قصبة الجزائر، وضمان استمرار هذا الإرث الثقافي للأجيال القادمة.

مطبخ قصبة الجزائر، بهذا الوصف، يتجاوز كونه مجرد مجموعة من الوصفات والأطباق، ليصبح **قصة عن الأصالة والتقاليد والاجتماع الإنساني.** إنه جزء حيوي من التراث اللامادي للقصبة، يستحق أن نحتفي به ونحافظ عليه كجزء من هويتنا الثقافية.

- **الطبخ بوصفه خطابًا ثقافيًا**

في القصبة، لا يُنظر إلى المطبخ نظرة دونية، بل كان يُعدّ من أهم مساحات تثبيت الهوية، فكل وصفة تحفظ سرّها الأم أو الجدة، وكل طبق يحمل حكاية أو مناسبة، وكل مكون له مدلوله الرمزي. لذلك فإن اندثار بعض هذه الأطباق أو اختزالها في وصفات سريعة يُعدّ تهديدًا لذاكرة جمعية طالما حافظت على هذا التراث من خلال الملاعق والقدور، لا عبر الكتب، واليوم ومع تراجع دور الأسر الممتدة، وتحوّل العادات الغذائية تحت وطأة الحداثة والعولمة، بات من الضروري توثيق هذا التراث الغذائي باعتباره مكونًا أساسيًا من التراث اللامادي للقصبة، يُعبّر عن توازن بين الذوق، الهوية، والذاكرة.

- **الحلويات: سُكّرُ الذاكرة وبهاء الطقوس**

لم تكن الحلويات مجرد حلوى تُقدم للضيف أو تُعدّ في الأعياد، بل كانت جزءًا من طقس اجتماعي جماعي له رمزيته. في الأعراس، والمولد، ورمضان، وحتى في بعض الجنائز، كانت المرأة القصباوية تُظهر فنها في تشكيل الحلوى، فتغدو العرايش والدزيريات والمحنشة رسائل مشفّرة تعبّر عن الذوق، المهارة، والمكانة الاجتماعية.

في العادات العاصمية، **الحلويات النسوية** كانت مظهرًا من مظاهر الفخر والمهارة. لم تكن كل النساء قادرات على إتقانها، وكانت القدرة على تشكيل الحلويات الدقيقة دليلًا على الحنكة، الصبر، والذوق الرفيع. فـ"لعرايش"، بطياتها المعقدة، تتطلب يدًا خفيفة وخبرة دقيقة. و"المحنشة"، بتدويرها المتقن، تعكس رمزية الثعبان الحارس للبيت، وهي تُقدّم في مناسبات خاصة مثل المولد أو ختان الذكور.

تقوم النسوة بتحضير **تشاراك مسكر وتشاراك عريان** في الأعراس، كرمز للاحتفال والبهجة. بينما يُحضَّر **القنيدلات والمخبز** في المناسبات الدينية مثل عاشوراء والمولد، ويتخذان طابعًا قدسيًا حيث تتخللهما أدعية وأهازيج جماعية. أما **هريسة اللوز والبقلاوة**، فتُعدّ طقوسًا باذخة تُقدَّم للضيوف رفيعي المستوى، وتُصنَّف ضمن الحلويات "الراقية" التي تحمل طابعًا عثمانيًّا. تحضير الحلويات في القصبة لم يكن يتم بشكل فردي، بل كان مناسبة **اجتماعية–طقسية** تشارك فيها النسوة من العائلة والحي. يتحوّل المطبخ إلى ورشة تُنظّم وفق قواعد دقيقة: مَن تعجن، ومَن تقطع، ومَن تزيّن، ومَن تراقب الفرن. كانت هناك هرميات ناعمة تُظهر من الأجدر بالتقدير.

- **الدزيريات:** تُعد من خليط اللوز والسكر المعطر بماء الزهر، تُغطّى بطبقة رقيقة من العجين وتُزيَّن بحبّة لوز. يتم تشكيلها بدقة، وكأنها زهرة صغيرة تعبّر عن أنوثة متقنة.

- **لعرايش:** تُعد من عجينة رقيقة جدًّا تُقطع وتُشكّل بشكل شريطي يُلف بطريقة معينة لتُشبه الأساور، وهي تُمثّل رمزًا للأنوثة والتجلي في الأعراس.
- **المحنشة:** تُحضّر من ورق العجين المحشو باللوز، وتُلفّ بشكل حلزوني، في مشهد طقسي يوحي بالديمومة والدوران الكوني.
- **تشاراك مسكر:** يُغطى بالسكر الأبيض، في إشارة إلى الصفاء والنقاء، وغالبًا ما يُقدَّم في الأفراح.

كانت النساء أثناء التحضير يُرددن الأغاني النسوية الشعبية، أو يستمعن للبوقالات، فتتحوّل جلسات التحضير إلى فضاء تربوي ونفسي ووجداني، تندمج فيه الحلوى بالحكي، بالذكرى، بالموروث الشفهي، **ويتحوّل السكر إلى ناقل ثقافي.**

- **من الطقس إلى التراجع: حضور مهدَّد**

لم تكن الحلويات التقليدية في قصبة الجزائر مجرّد نِتاجٍ مطبخي مخصص للمناسبات، بل كانت فعلًا رمزيًا مشحونًا بالدلالات الاجتماعية والثقافية، تؤديه النساء ضمن سياق طقوسي جماعي، يشبه إلى حد كبير طقسًا احتفاليًا داخليًا. إذ كانت عملية إعداد "لعرايش"، و"الدزيريات"، و"القنيدلات"، و"كعب الغزال"، و"البقلاوة"، وغيرها، تمتد على أيام، تُستحضر خلالها خبرات الجدّات، ويتشارك فيها النساء داخل الفضاء الحريمي المغلق، وتُحكى في أثنائها القصص، وتُردد الأمثال، وتُحفظ أسرار العائلة والحي والمجتمع.

لقد كانت صناعة الحلوى لحظة اندماج بين المهارة اليدوية والإبداع النسوي، ومجالًا فعليًا لتمرير القيم، والهُوية، والرموز، فكل شكل زخرفي للحلوى، وكل لمسة دقيقة للزبدة أو ماء الزهر أو القَرنفل، كان يُحمل دلالة اجتماعية. وكان طقس صناعة الحلوى أكثر من عمل منزلي؛ كان أداءً ثقافيًا يُعزز من مكانة المرأة في نسيج المجتمع ويمنحها سلطة رمزية داخل الأسرة وخارجها، غير أن هذا العالم الطقوسي بدأ في التآكل مع تحوّل أنماط العيش والاستهلاك، فالحداثة بمفهومها الصناعي، أدخلت على المطبخ المحلي منتجات معلبة، وأذواقًا معيارية، واستجابات سريعة لرغبات السوق، ومع ضيق الوقت وتفكك العلاقات الأسرية الموسعة، وتراجع أدوار الجدات، اختفى المشهد الطقوسي لصناعة الحلويات، وتحوّل من مشهد جماعي حميم إلى عملية شراء فردية معقّمة من الطابع الرمزي.

لقد تحوّلت المرأة من "صانعة هوية" عبر الحلوى، إلى "مستهلكة" تلتقط من المحلات ذات الحلوى المعلبة ما يسد رمزية المناسبة دون طقوس. ومع هذه النقلة، ضعفت العلاقة بين الحلوى والحدث، وبين الذوق والذاكرة، بل وحدث انقطاع في السلسلة الثقافية التي كانت تمرر المهارات عبر الأجيال.

حتى الشكل البصري للحلوى، الذي كان في السابق يُعبّر عن هوية عائلية أو حيٍّ ما، أصبح اليوم مُنتَجًا موحدًا لا يحمل طابعًا شخصيًا. فاختفى الاختلاف بين "تشاراك العريان" الذي كانت تنقشه النساء بأظافرهن أو بالمشط الخشبي، وبين نسخة بلاستيكية الطابع في واجهات المحلات. كما أن "قوالب القنيدلات" المصنوعة من النحاس المحفور، والتي كانت تُنقل من أم إلى بنت، صارت اليوم بلا أهمية تُذكر، واختفى معها بعد رمزي من الأنوثة المحلية.

وإذا كانت الحلويات في السابق تُحضَّر في مناسبات بعينها – العيد، الختان، الزفاف، الميلاد فإن هذه الجدولة الزمنية للطقوس قد اختلت أيضًا. فالحلوى لم تعد حاضرة بوصفها "علامة على المناسبة"، بل كوجبة استهلاكية محايدة، تُبتلع بلا سياق، وهذا ما يضعنا أمام إشكال أنثروبولوجي مركّب: **حين يغيب الطقس، تضيع الوظيفة الرمزية، ويبدأ التراث اللامادي في الذوبان داخل ثقافة النمطية والتسليع.**

في ضوء هذا التحول، لم يعد من السهل الحديث عن "حلويات القصبة" كذاكرة طهوية مستمرة، بل كذاكرة مهددة، ولا يُنقذ هذه الذاكرة إلا مشاريع توثيقية جادة، أو مبادرات نسوية لإحياء الطقس، أو إدماج الحلويات التقليدية ضمن السياحة الثقافية والمناهج التربوية، أما الاكتفاء بـ"الحفاظ على الطعم" دون الطقس، فليس سوى محاولة لاكتناز الذاكرة بعد دفنها.

تاسعا: الموروث الشفهي للقصبة

1. الأهازيج والأمثال الشعبية: "صوت الذاكرة في شوارع القصبة"

في القصبة، لا تكتمل الصورة إلا بصوتها. ذاك الصوت الذي لم يكن محض صدى، بل تجسيدٌ حيّ لثقافة شفهية اختزلت في طيّاتها الحكمة، السخرية، الفرح، والحزن. فبين أزقتها، لم تكن الحياة تسير فقط على وقع الخطى، بل على إيقاع الأهازيج والأمثال الشعبية التي كانت تتناقلها النساء في الحمامات، والرجال في المقاهي، والعجائز في المجالس العائلية.

الأهازيج، تلك الأنغام المرتجلة التي كانت تصاحب المواسم والمناسبات، شكّلت وسيلة للتعبير الجماعي، خاصة في الأفراح. كانت النساء تنشدنها جماعيًا في الأعراس، في طقوس "الحنة" و"الدخلة"، حيث تمجّد فيها العروس وأهلها، وتُوجّه فيها رسائل مبطّنة للآخرين، من خلال كلمات عذبة أو لاذعة، تُغنّى على وقع "البندير" أو "الطار"

أما في الأتراح، فكانت الأهازيج تتخذ طابعًا جنائزيًا، حيث تردد النساء نواعيّ حزينة على الأرصفة، يعددن فيها مناقب الراحل، ويُلقينها بنبرة حزينة تهز وجدان السامعين. كانت هذه الأهازيج بمثابة كاتدرائية صوتية للحزن الجماعي، تحفظها الذاكرة وتتناقلها الألسن جيلاً بعد جيل.

أما **الأمثال الشعبية**، فهي دستور الحكمة اليومي في القصبة؛ تنزل من أفواه الناس في الوقت المناسب، وتُوظّف لتفسير سلوك ما أو التعبير عن رأي، مثل: *"اللّي فاتك بليلة فاتك بحيلة"*، أو *"ما يحس بالجمرة غير اللّي عافس عليها"*. . هذه الأمثال لم تكن مجرد أقوال عابرة، بل تلخّص تجارب طويلة، وتلعب دورًا تربويًا، تعليميًا وحتى ساخرًا.

في القصبة، يُستعان بالأمثال للحُكم على حدث، أو الحسم في مشادة، أو التعليق على سلوك أحدهم. فحين تقول امرأة لجارتها: *"كي طاحت البقرة كثرو* السكاكين *"*فهي لا تروي قصة حيوانية، بل تشير إلى شماتة الناس في المبتلى. هذه اللغة المجازية رسّخت نفسها كجزء من البنية الرمزية للقصبة، لا يمكن فصلها عن الحياة اليومية.

لقد شكّلت الأهازيج والأمثال الشعبية في القصبة سجلًا صوتيًا حيًا، يمكن اعتباره مرآة للمجتمع المحلي، فيه تقرأ قيمه، ومخاوفه، وتطلّعاته. وإن كان الخطر اليوم يكمن في تآكل هذه الذاكرة الشفوية،

فإن الحفاظ عليها لا يكون فقط بالتوثيق، بل بإعادة بثّها في الحياة اليومية، عبر المسرح، المدرسة، والإعلام المجتمعي.

2. التقاليد الشفاهية في قصبة الجزائر: بين عبق الذاكرة وشبح النسيان

في عمق الأزقة المتشابكة لقصبة الجزائر، حيث تتكئ الجدران على التاريخ، وتُخفي النوافذ أسرار البيوت، كانت الكلمة المروية هي الوعاء الأول للمعرفة والهوية. لم تكن التقاليد الشفاهية مجرد تسلية نسوية تُمارس في جلسات السمر، بل كانت منظومة متكاملة لحفظ الذاكرة الجماعية، ونقل القيم، وترسيخ الانتماء.

1.2. الأساطير والروايات: سرد الذاكرة الرمزية

كانت القصبة حبلى بالحكايات والأساطير التي شكّلت وجدان أهلها، حيث تحوّلت الشخصيات إلى رموز ثقافية وأدبية، تنسج الواقع بالخيال، وتمنح المكان بعدًا ميثولوجيًا حيًا.

تأتي "**أسطورة خداوج العمياء** "في طليعة هذه الحكايات، تلك الفتاة الفاتنة التي عُرفت بجمالها الأسطوري حتى فقئت عيناها غيرةً من نساء القصر، فتحوّلت من امرأة مغدورة إلى رمز نسائي غامض، ما بين التراجيديا والتقديس الشعبي.

أما "**فاطمة لمعكرة**"، فهي الأخرى شكل من أشكال الأنثى الخارقة، التي كانت تجوب الأحياء القديمة وتقرأ الطالع وتربط بين عالم الأحياء والأسرار. شخصيات كهذه لم تكن مجرد قصص، بل كانت وسائط تربوية ومجازات اجتماعية، تُستخدم لتوجيه السلوك، أو لتهذيب الخيال، أو لتفسير ما استعصى فهمه من تقلبات الحياة.

ولا ننسى **الروايات التي كانت تُروى عن الأميرتين** المختبئتين في أحد قصور القصبة، وهما، حسب الرواية الشعبية، من بقايا العائلات الملكية الأندلسية أو التركية، هربتا من قبضة الزمن، واختارتا الصمت الأبدي، فأصبحتا رمزًا للفقدان النبيل، ولصوت النساء الذي حاصرته الجدران ولكنه بقي حيًا في الذاكرة.

2.2. البوقالات: ديوان النساء في الظل

في أمسيات الشتاء، حين كانت النسوة يلتئمن حول موقد فحم أو صحن كسكس، كانت **البوقالات** تُقال لا لتُقرأ بل لتُحسّ. هي شكل من أشكال الشعر الشعبي الأنثوي، تنطق به النساء عفوًا ولكنه يحمل شفرات شعورية عميقة، تجمع بين التنبؤ، والحس العاطفي، والتعبير الرمزي.

- **التعريف بالبوقالة :**

يشتق اسم **بوقالة** من الكلمة الامازيغية "**بوقال**" وهو عبارة عن اناء مصنوع من الفخار لشرب الماء او الحليب، ومن جهة اخرى يطلق ايضا مصطلح **البوقالة** على الاشعار الشعبية التي تشكل اساس لعبة **البوقالة.** ومن جهة اخرى يطلق ايضا مصطلح **البوقالة** على الاشعار الشعبية التي تشكل اساس لعبة **البوقالة،** حيث تتلى ابيات لطيفة المعاني رقيقة الشعور غالبا ما يكون فحواها حول الحب العفيف والحزن على فراق الحبيب وامل عودته[1].

يربط بعض الدارسين البوقالة بانها جزاء او مقاطع من الحوفي نظرا للتشابه الكبير بينهما من حيث الشكل او المضمون وربما الفرق الوحيد بينهما هو ان البوقالة تقرا بينما الحوفي يغنى، و الحوفي هو شعر يغنى من طرف الفتيات اثناء قيامهن بلعبة الارجوحة او "الجغليلة" باللفظ العامي ، وهو نوع من الشعر النسوي مشتق من الفعل حوف و الذي معناه الدوران حول الشيء[2].

هناك راي اخر يجعل البوقالة تنحدر من الموشحات والازجال الاندلسية لاعتبار التشابه الشكلي التجانس اللغوي الموجود في كليهما ولهذا لربما انتقلت لعبة البوقالة الى الجزائر مع العائلات الاندلسية المهاجرة فرارا من الابادة التي كان يتعرض لها المسلمون بعد سقوط الاندلس حيث استقرت هذه العائلات المهاجرة في المناطق الساحلية التي اشتهرت بلعبة البوقالة.

يربط راي اخر لعبة البوقالة بالحروب البحرية الجزائرية و التركية بقيادة الاخوة عروج في اطار الصراع المسيحي الاسلامي حيث كان جل الرجال الجزائريين الذين يسكنون قرب الساحل يشتغلون في

---

[1] عبد الرحمان رباحي، بخرتاك بالجاوي،ط1، د د ن، الجزائر، 1998، ص 03

[2] Kaddour MHAMSADJI , JEU DE LA BOUKALA (contribution a une meilleure connaissance de ce divertissement éducatif et populaire) _ O P U, 1989, Alger , P23 .

مجال البحرية مما يجعلهم مغيبون عن اهاليهم فيسيطر القلق و الخوف على النسوة فتم اللجوء الى البوقالة كوسيلة للترفيه و بعث الامل في النفوس وتمضية الوقت، و يظهر هذا واضحا من خلال كثرة ورود كلمات مرتبطة بمجال البحرية في نصوص البوقالات : القبطان البحارة ، السفينة . . . . . الخ

كل هذه الاسباب قد تكون مجتمعة وراء ظهور فن البوقالة التي ارتبطت في نشأتها بالمناطق الساحلية: الجزائر العاصمة، شرشال، تنس، بجاية . . . غير انها توسعت فيما بعد الى مناطق حضرية كالبليدة، مليانة . . . ونتيجة للحركة السكانية وبفضل وسائل الاعلام كالإذاعة انتشرت بعد الاستقلال واصبحت تمارس في كل المدن الجزائرية.

- **وصف لعب البوقالة:**

لعبة **البوقالة** في صفتها الاولية كانت تقام في الليل عند اكتمال القمر تماما كبعض طقوس السحر، وكان من ادواتها **الكانون** او **النافخ**، قبعة او شاشية شاب عازب و سبعة خيوط من ملابس ارملة، قطع حلي النسوة التي يضعنها في اناء او ما يعرف بالبوقال به ماء من سبع عيون، وكانت تستعمل فيها سبعة اعشاب يبخر بها المكان كالحنة و الجاوي الابيض و الاسود و عشبة المر و عود الند و القصبر و اللبان و قطرات من زيت الزيتون . . اما الحطب المستعمل فكان يقطع من سبعة ابواب مختلفة في المدينة.

تبدو هذه اللعبة في ظاهرها كطقس سحر. . . نوع من انواع استحضار الجن . . . تقوم النسوة بربط عقدة بأطراف جلابيبهن او خمورهن و لا يفتحنها الا بعد الاستماع للفال في العتمة و السكون، حيث تردد ترانيم طلاسمية " **بخرتك بالجاوي جيبلنا الخبر من القهاوي، بخرتك بالحنة جيبلنا الخبر من مزغنا ، بخرتك بالزيت جيبلنا الخبر من كل بيت** . . . " ، لكن النية من وراء لعبة **البوقالة** بعيدة كل البعد عن السحر والشعوذة، بل هي اقرب الى الفال الحسن المرغوب حيث انها تبدا باسم الله وبالصلاة على خاتم النبيين " **بسم الله بديت و على النبي صليت يارب اعطينا الفال و لاقينا بولاد لحلال** " كما انها لا تدعو الى الكفر و الخروج عن الدين الاسلامي، بل تدعو الى الدعاء و التضرع لله " **الناس تنده بالرجال و الوالي ، وانا ننده بربي العالي** " ، "**امنت بالله و المنام رؤية من عند الله ،حمامة بيضة جات ترفرف عليا معاها حصان توقف بين يديا** ".

أما عن مواضيع **البوقالة** فهي تدور عن الحب العفيف و الزواج و لقاء الاحبة و الحزن على فراق الاحباب و الخلان و الامل بعودتهم و تشعل النسوة شموعا لعلهم يستهدون بها في طريق عودتهم " **ياقايدين الشموع هاكو شمعة قايدوها بالاك الغايب يعود و الفرحة نعاودوها** " ، وتخاطب **البوقالة** المشاعر و الوجدان و تؤرخ ببساطتها للتاريخ و تتميز بالحبكة الزمنية و المكانية.

من أكثر الاماكن التي ارتبطت بها لعبة **البوقالة** المدينة العتيقة القصبة، حيث تحتل مكانة حميمية وسط النسوة في سهراتهن فوق أسطح القصبة او في دويراتها ومنازلها و فنآتها، تجتمع النسوة حول اطباق البقلاوة وقلب اللوز و المقروض المعسل والتشاراك . . . و غيرها من الحلويات التقليدية التي تتميز بها المنطقة، و اكواب الشاي و القهوة. وتتطلب هذه اللعبة توفير الاجواء الحميمية الملائمة التي تساعد المشاركات فيها على فتح مخيلتهن وفسح خواطرهن وشرح صدورهن للفال الطيب و الامل والرجاء والحلم.

لعل ما يميز هذه اللعبة هو ضرورة ان تعقد النساء المستأنسات بمقاطعها الشعرية اللطيفة المعنى، مايسمى " **بالفال** " ومعناه ان تعقد المرأة النية داخل قلبها بالتفكير في شخص من الأشخاص زوجا كان او اخا بعيدا او اي من الاحباب بل حتى في الاعداء و الخصوم، بمحاولة اسقاط معنى ابيات **البوقالة** الموجهة لها على شان الاسم الذي نوته، مع الرجاء ن يتم ذلك حقا.

من اساسيات **البوقالة** ان لا لاتنال المراة حضها من الابيات الشعرية الا بعدما تمسك بجزء من خمارها او تنورتها و تصنع منها عقدة صغيرة لا تفتحها الا بعد الاستماع الى **البوقالة** ، و يحضر اناء فخاري المسمى بالبوقال ويوضع فيه القليل من الماء ثم يطلب من النسوة نزع خواتمهن ووضعها داخل الاناء بعدها يغطى بمنديل من القماش الناعم (في السابق كان يعطى بشاشية او قبعة شاب اعزب)، بعدها تبدا الكبيرات في السن او تلك التى تحفظ **البوقالات** بقول الفال او **البوقالة** وكل النسوة مصغيات فاذا كانت **البوقالة** ذات فال حسن تجد كل الفتيات متشوقات حتى يعرفن من صاحبتها و اذا كانت **البوقالة** ذات فال سيء او حزين تجد كل واحدة خائفة من ان تكون هي صاحبة **البوقالة** . . . بعد الاستماع تخرج احداهن خاتما من اناء **البوقالة** وتقع **البوقالة** على صاحبة الخاتم .

- **مظاهر الخصوصية الثقافية الجزائرية في لعبة البوقالة:**

تعد لعبة **البوقالة** تراث ثقافي يشكل احد اهم روافد الرصيد الهوياتي التاريخي و الثقافي و الشعبي الجزائري، فهي تقليد جزائري قديم كان يتخطى كونه وسيلة للتسلية تمارسها النسوة و قضاء وقت فراغهن في ظل قلة الامكانات ووسائل الترفيه ليكون فضاء نسوي بامتياز بعيد عن السلطة الذكورية يلتم فيه شمل النساء و يحمل معاني و قيم عميقة وعلاقات اجتماعية متماسكة حيث تلتقي فيه النسوة ليعبرن بحرية بلهجة جزائرية عامية متقنة القوافي عما يختلج صدورهن من حب عفيف و اشتياق الى الزوج ، فذهنيات المجتمع الجزائري المحافظ لا تسمح للمرأة بالتعبير عن هذه المشاعر في اطار ما يسمى " **بالحشمة** " وهي قيمة اجتماعية تعبر عن الحياء و الوقار الذي ينبغي ان تتحلى به المرأة،. هذا وكانت تقام قعدات لعبة **البوقالة** في فضاء مكاني معزول عن الذكور بهدف "**الحرمة** " وهي قيمة اجتماعية اخرى تعتبر من اهم سمات الشخصية الجزائرية اساسها الحفاظ على الشرف والعرض[1].

توحي سهرات لعبة **البوقالة** بعراقة واناقة المرأة الجزائرية، حيث تتزين النسوة بأبهى الملابس والحلي التقليدية الجزائرية **كالكاراكو** و**القاط** و **القويط** و**الغليلة** و**خيط الروح** و**محرمة لفتول** . . . وتقدم اشهى الحلويات التقليدية على اواني نحاسية منقوشة و مزخرفة من صنع حرفيي المنطقة و هذا مايدل على اعتزاز المراة الجزائرية بتقاليدها العريقة و الاصيلة، وحبها وتفننها في العمل اليدوي و الحرفي.

والملاحظ في تلك الاشعار العامية التي تردد في لعبة **البوقالة** انها في غالبها تحوي الدعاء والتضرع لله وهذا ما زاد من مكانتها واحترامها بين النسوة لأنها تبعث بالاعتقاد الراسخ بتحقيق الامنيات وزرع التفاؤل والامل في قلوبهن وتؤكد على انتمائهم الديني الاسلامي " **بسم الله بديت وعلى النبي صليت** ..

- **مآلات لعبة البوقالة:**

لطالما كانت لعبة البوقالة تزيد من روعة المكان و الزمان في جلسات نساء الجزائر خاصة عند حلول شهر رمضان الكريم، لتكون جامعة شمل النساء فى احدى البيوت من اجل السهر و الاستمتاع

[1] احمد بن نعمان، سمات الشخصية الجزائرية من منظور الانثروبولوجيا النفسية، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر ، 2017، ص55

بقضاء اوقات استثنائية مشبعة بثقافة الكلام و التراث الشعبي، غير ان هذه اللعبة بدأت تأخذ طريقها للزوال منذ نهاية الستينيات و غيبت تماما خلال سنوات الثمانينات حين بدأت الاسر في الانقسام و الانغلاق على انفسها ، كما ان شاشات التلفاز و الهواتف الذكية عوضت قعدة البوقالات و جمعة النساء ، لكن في الآونة الاخيرة بدى بعض الاهتمام بلعبة البوقالة من طرف بعض الاسر المحافظة على التقاليد و التراث لكن بتجريدها من جزئياتها التي تصنع خصوصيتها كالإناء الفخاري و نزع الخواتم و التبخيرة و العقدة و استحضار الفال . . . . ولم يحتفظوا الا بتلاوة الاشعار التي تحفظها النساء. كما تنشر حاليا في الجرائد والمجلات الالكترونية وتبث في الإذاعات المحلية وبعض الحصص التلفزيونية خلال شهر رمضان بهدف الحفاظ على الموروث الشعبي وحمايته من الاندثار حتى ولو كان على الطريقة الحديثة، كما تقوم بعض الوكالات السياحية بتنظيم سهرات رمضانية تتخللها لعبة البوقالة من اجل التعريف بهده اللعبة الشعبية كتراث ثقافي جزائري قاطب للسياحة.

ورغم التكنولوجيا والأنترنت فقد بعثت لعبة البوقالة نفسها على الصفحات الزرقاء، وبعد ان كانت النسوة تجتمعن في سطوح الديار وفناءتها أصبحن يجتمعن في صفحات الفايسبوك ويستمتعن بالفال ويمرحن بالتعليقات.

ورغم محاولات الحفاظ عليها، فإن البوقالات اليوم لم تعد تمارس كما في السابق، بل تراجعت لصالح الوسائط السريعة، واختفت معها طقوسها (تحضير الفنجان، قراءة الحظ، إغماض العين. . .)، مما يطرح أسئلة عن مستقبل هذه الذاكرة الشعرية.

3. الأمثال الشعبية: حكمة الأجداد المختزلة

تشكل الأمثال الشعبية في قصبة الجزائر نسيجاً لغوياً حياً يختزن في طياته قروناً من التجربة الإنسانية والحكمة الجماعية. هذه التعبيرات المكثفة، التي تتناقلها الأجيال شفهياً في أزقة القصبة الضيقة وعلى عتبات دورها العتيقة، تمثل أحد أهم مكونات التراث اللامادي لهذا الفضاء الحضري العريق. إنها ليست مجرد جمل بلاغية موروثة، بل هي منظومة معرفية متكاملة تعكس الرؤية الكوسمولوجية لسكان القصبة، وتكشف عن بنياتهم الاجتماعية، وقيمهم الأخلاقية، وتصوراتهم للعالم والآخر. في سياق الأنثروبولوجيا الحضرية، تتجاوز هذه الأمثال وظيفتها اللغوية البحتة لتصبح أرشيفاً حياً للذاكرة الجماعية،

حيث يحمل كل مثل في بنيته اللغوية المختزلة قصة، حدثاً تاريخياً، أو موقفاً اجتماعياً ترسخ في الوعي الجمعي لأهل القصبة.

عندما تقول العجوز "اللي ما عندوش قبيلة، يشريلو قنطار حيلة"، فهي لا تنطق بمثل فحسب، بل تستدعي منظومة كاملة من العلاقات القرابية والتضامن الاجتماعي التي شكلت لقرون طويلة العمود الفقري للحياة الاجتماعية في القصبة، هذا المثل يكشف عن البنية الاجتماعية التقليدية التي كانت تعتمد على العصبية القبلية والتماسك العائلي كآلية للحماية والبقاء في نسيج حضري معقد. تتميز أمثال القصبة بخاصية فريدة تتمثل في قدرتها على التكيف والتحول عبر الزمن مع الحفاظ على جوهرها الدلالي، فالأمثال التي كانت تُستخدم في القرن الثامن عشر لوصف العلاقات التجارية في الأسواق، أو التفاعلات بين مختلف الطوائف الدينية، أو التحديات اليومية للحياة في مدينة عثمانية، لا تزال تُستخدم اليوم بمعانٍ قد تختلف أو تتوسع، لكنها تحافظ على رمزيتها الثقافية العميقة، هذه الدينامية تجعل من الأمثال شهادة حية على التحولات الاجتماعية والثقافية التي عرفتها القصبة عبر تاريخها الطويل.

من منظور الأنثروبولوجيا اللغوية، لا يمكن فهم الأمثال الشعبية في القصبة بمعزل عن سياقاتها الأدائية، فالمثل ليس نصاً ثابتاً يُحفظ ويُردد، بل هو فعل تواصلي يكتسب معناه الكامل من خلال الموقف الاجتماعي الذي يُستدعى فيه، ومن هوية القائل والمتلقي، ومن اللحظة التاريخية التي يُنطق فيها. عندما يقول الحرفي في سوق القصبة "الصنعة كنز"، فهو لا يقدم ملاحظة عامة عن قيمة العمل اليدوي فقط، بل يؤكد على الهوية المهنية، ويشير إلى نظام القيم الذي يحكم العلاقات بين الأستاذية والمتعلمين، ويدافع عن مكانة الحرفة في مواجهة التحديات الاقتصادية المعاصرة. في الفضاءات النسائية بالقصبة، كالحمامات التقليدية أو التجمعات على أسطح المنازل، تكتسب الأمثال أبعاداً خاصة، حيث تستخدمها النساء كأدوات للتربية والنصح، لتمرير المعارف المتعلقة بالزواج والأمومة، ولتعزيز التضامن النسوي في مواجهة البنى الذكورية. المثل الشهير "الدار بلا مرا، كيما الوادي بلا ما" لا يعكس فقط رؤية للدور الاجتماعي للمرأة، بل يكشف عن الاعتراف الضمني بمركزيتها في الحفاظ على الأسرة والبيت كوحدة اجتماعية أساسية، وهذه الأمثال تشكل جزءاً من "ثقافة النساء" التي تتناقل شفهياً وتحمل معارف عميقة حول إدارة الحياة اليومية والعلاقات الأسرية.

تعكس أمثال القصبة التعددية اللغوية والثقافية الغنية التي ميزت هذا الفضاء عبر تاريخه، فنجد أمثالاً بالعربية الدارجة الجزائرية، ممزوجة بكلمات تركية وإسبانية وإيطالية وفرنسية، مما يشهد على

التفاعلات الثقافية المعقدة التي عرفتها القصبة كمدينة متوسطية عثمانية. هذا الهجين اللغوي ليس مجرد ظاهرة لسانية، بل يعكس عمليات التثاقف والتبادل الثقافي التي حدثت على مدى قرون، والمثل القائل "كل شي في وقتو يكون مليح حتى الوقت" يحمل بساطة لغوية لكنه يختزن حكمة عميقة عن الزمن والصبر، وهي قيم محورية في الثقافة المحلية. بعض الأمثال تحتفظ بإحالات تاريخية دقيقة لأحداث معينة أو شخصيات عاشت في القصبة، لكن معانيها توسعت لتشمل مواقف أكثر عمومية، وهذا التحول من الخاص إلى العام، ومن الحدث التاريخي المحدد إلى الحكمة الكونية، يكشف عن الآليات التي يتم من خلالها إنتاج المعرفة الشعبية وتداولها. الباحث الأنثروبولوجي يجد في هذه الأمثال مادة ثرية لفهم كيف يؤرخ الناس العاديون لتجاربهم، وكيف يحولون الأحداث المعيشة إلى دروس أخلاقية وحكم حياتية.

تشكل الأمثال في القصبة دستوراً أخلاقياً غير مكتوب ينظم السلوك الاجتماعي ويحدد معايير الصواب والخطأ، ومن خلال تحليل بنية هذه الأمثال ومضامينها، يمكن للباحث الأنثروبولوجي أن يستكشف المنظومة القيمية التي تحكم المجتمع. قيم مثل الكرم، الشرف، الستر، الوفاء، الصبر، والتضامن تتكرر باستمرار في الأمثال، مما يشير إلى مركزيتها في البناء الاجتماعي، والمثل "الخبز اللي ما تاكلوش بيدك، ما تحكمش فيه بلسانك" يجسد قيمة الامتنان والوفاء، ويحذر من نكران الجميل، وهي قيم أساسية في مجتمع يعتمد على شبكات التبادل والدعم المتبادل. الأمثال تعمل أيضاً كآليات للضبط الاجتماعي، حيث يتم استدعاؤها لتقويم السلوك المنحرف أو لتعزيز السلوك المرغوب، فعندما يُقال لشخص "اللي يزرع الريح يحصد العاصفة"، فإن المثل يعمل كتحذير وعقاب رمزي في آن واحد. هذا البعد الإنجازي للأمثال يجعلها أداة فعالة في الحفاظ على التماسك الاجتماعي دون الحاجة إلى السلطة المؤسساتية الرسمية، إنها شكل من أشكال الحكم الذاتي الثقافي الذي يمارسه المجتمع على نفسه.

من منظور الأنثروبولوجيا الرمزية، تكشف الأمثال عن التصورات العميقة التي يحملها سكان القصبة حول الكون والطبيعة والإنسان والمجتمع، فالعديد من الأمثال تستخدم استعارات من الطبيعة، كالفصول، والحيوانات، والعناصر الطبيعية، مما يعكس رؤية للعالم تقوم على التناظر بين النظام الطبيعي والنظام الاجتماعي. المثل "كل طير على شاكلتو يطير" لا يصف فقط سلوك الطيور، بل يقدم رؤية أنطولوجية عن الطبيعة البشرية والانتماء الاجتماعي، حيث يميل الناس بشكل طبيعي إلى من يشبهونهم. الأمثال تعكس أيضاً التصورات الدينية والماورائية التي تشكل جزءاً من الوعي الجمعي، فالإشارات إلى

القدر، البركة، النحس، والحسد تتكرر في العديد من الأمثال، مما يكشف عن نظام تفسيري للعالم يمزج بين الإيمان الديني والمعتقدات الشعبية. هذا التشابك بين الإسلام الرسمي والممارسات الدينية الشعبية يتجلى بوضوح في الأمثال، التي تحمل في طياتها إشارات إلى الأولياء الصالحين، والكرامات، والممارسات الروحانية التي تشكل جزءاً أصيلاً من الحياة الدينية في القصبة.

في السياق المعاصر، تواجه الأمثال الشعبية في القصبة تحديات كبيرة مرتبطة بالتغيرات الاجتماعية والثقافية السريعة، فالهجرة المتواصلة من القصبة، شيخوخة السكان، وضعف التناقل بين الأجيال تهدد باندثار هذا التراث الشفوي الثمين. الجيل الجديد، المتأثر بالثقافة العالمية ووسائل الإعلام الحديثة، لم يعد يستخدم الأمثال بنفس الكثافة والتلقائية التي كان يستخدمها الأجداد، وهذا التحول لا يعني فقط فقدان تعبيرات لغوية، بل يشير إلى تغيرات عميقة في طرق التفكير والتواصل والتعبير عن الهوية. مع ذلك، تظل بعض الأمثال حية في الاستخدام اليومي، خاصة تلك التي تتعلق بالمواقف الإنسانية العامة والخبرات المشتركة، بل إن بعض الأمثال القديمة تكتسب معاني جديدة في السياق المعاصر، مما يدل على قدرتها على التجدد والتكيف. الباحث الأنثروبولوجي مطالب بتوثيق هذه الأمثال، ليس فقط كنصوص لغوية، بل كممارسات ثقافية حية، مع الاهتمام بسياقات استخدامها، وتحولات معانيها، والأجيال التي لا تزال تحفظها وتستخدمها.

تمثل الأمثال الشعبية في قصبة الجزائر نافذة استثنائية لفهم البنى الثقافية والاجتماعية العميقة لهذا المجتمع الحضري العريق، فهي ليست مجرد فلكلور أو تراث جامد، بل هي معرفة حية تتطور وتتحول مع الزمن، تحمل في طياتها ذاكرة جماعية، ومنظومة قيمية، ورؤية للعالم. دراستها من منظور أنثروبولوجي تكشف عن الكيفية التي ينتج بها الناس العاديون المعنى، ويفسرون تجاربهم، ويتناقلون حكمتهم عبر الأجيال. في زمن العولمة والتحولات السريعة، يصبح حفظ وتوثيق هذا التراث اللامادي ضرورة ثقافية وعلمية، لأنه يمثل شهادة فريدة على غنى وتنوع التجربة الإنسانية في هذا الفضاء المتوسطي الأصيل.

الفصل الخامس

الفصل الخامس: تراث القصبة بين الماضي والحاضر

تمهيد:

في أعماق العاصمة الجزائر، حيث تتداخل خيوط الزمن وتتشابك أصداء التاريخ، تقف القصبة كشاهد حي على حوار مستمر بين الماضي والحاضر. هذا الحي العتيق الذي يحمل في جنباته أكثر من ألفي سنة من التراث الإنساني، يواجه اليوم تحدياً وجودياً حقيقياً: كيف يحافظ على أصالته التراثية وهو يعيش في قلب مدينة حديثة تتسارع خطواتها نحو المستقبل؟

في القرون الوسطى وخلال العهد العثماني، كانت القصبة قلب الجزائر النابض. شوارعها وأزقتها المتعرجة كانت تعج بالحياة، حيث التجار يعرضون بضائعهم القادمة من أقاصي العالم، والحرفيون ينسجون تحف فنية بأيديهم الماهرة، والعلماء يدرسون في مساجدها وزواياها، والشعراء ينشدون في جلساتها الأدبية.

كانت القصبة في تلك الحقبة مركزاً تجارياً وثقافياً مهماً في حوض البحر الأبيض المتوسط. تجار الذهب والتوابل والحرير يتوافدون عليها من مختلف أنحاء أفريقيا وآسيا وأوروبا. وكانت صناعاتها التقليدية – من نسيج وخزف ونحاس وجلود – مطلوبة في الأسواق البعيدة.

أولا: أهمية القصبة في السياق الثقافي

تُعدُّ القصبة في الجزائر العاصمة رمزاً حياً للهوية الثقافية والتاريخية للجزائر، إذ تتجلى فيها طبقات من التراكم الحضاري والتفاعل الاجتماعي الذي شكّل نسيج هذه المدينة العتيقة على مر العصور. فقد نجحت القصبة في استيعاب تأثيرات حضارات مختلفة دون أن تفقد جوهرها المحلي؛ فبعد أن كانت نقطة انطلاق للمستوطنات التجارية خلال الحقبة الفينيقية، انتقلت إلى مرحلة تكامل حضاري مع الأسلوب الروماني الذي أدخل نظماً حضرية متطورة، ثم جاء العثمانيون ليضيفوا إلى هذه البنية بعداً دينياً وثقافياً مميزاً.

إن القصبة ليست مجرد موقع سياحي يُحتفى به من منظور زائري، بل هي فضاء معيش ينبض بذكريات الماضي وحكايات الأجيال التي حافظت على تقاليدها عبر الزمن. فالمباني التاريخية التي تزخر بها، من البيوت التقليدية إلى القصور والمعالم الدينية، تحمل في طياتها أسراراً للتعايش والتفاعل

الاجتماعي؛ إذ كانت تُستخدم كمنابر للتعليم الديني والتربية الروحية، كما كانت منصات للتجارة والثقافة تُسهم في تعزيز الروابط الاجتماعية بين السكان.

وقد انعكس التصميم العمراني الفريد للقصبة في كل تفاصيله على الحياة اليومية، بدءاً من الأزقة الضيقة التي توفر الظل والتهوية الطبيعية، وصولاً إلى الفناء الداخلي الذي يشكل قلب كل منزل، ليعكس مفهوم "البيت كعالم مصغر" يُجمع فيه أفراد العائلة دون فقدان خصوصية الفرد. إن استخدام المواد المحلية مثل الحجر الجيري والطين والخشب يعكس الارتباط الوثيق بين سكان القصبة وبيئتهم الطبيعية، مما يساهم في استدامة البنية العمرانية وتكيّفها مع المناخ المحلي.

وليس هذا فحسب، بل إن التراث المعماري للقصبة يُعدُّ مرآةً للتاريخ المشترك الذي حمل تأثيرات الفينيقيين والرومان والعثمانيين، وما زالت آثار هذه الحضارات حاضرة في نقوش الزليج والنقوش الجصية والأقواس المزخرفة التي تزين المباني. هذا المزج بين القديم والحديث في التصميم العمراني يعكس قدرة المجتمعات على التكيف مع التغيرات دون أن تفقد هويتها.

كما تُشكّل القصبة محوراً ثقافياً حيوياً من خلال فعالياتها ومهرجاناتها التي تُعيد إحياء التراث الشعبي وتُبرز قصة المقاومة والصمود في وجه التحديات، سواء كانت تلك التحديات سياسية أو اقتصادية أو بيئية. إن الحفاظ على هذا التراث الحضاري ليس مجرد مهمة ترميمية، بل هو جهد ثقافي يهدف إلى استعادة الذاكرة الجماعية وإبراز الهوية الوطنية العميقة التي يستمدها الشعب الجزائري من جذوره التاريخية.

وفي ضوء ما سبق، تعتبر القصبة مثالاً حياً على التلاقي بين الماضي والحاضر، حيث لا تزال تُمارَس فيها العادات والتقاليد التي تعكس قيم التضامن والاحترام المتبادل، ما يجعلها ليست مجرد متحف مفتوح فحسب، بل فضاءً حيوياً يستمر في إلهام الأجيال بتجسيدها لروح التاريخ وحضارة الأجداد. بذلك تبقى القصبة شاهدًا على رحلة الزمن التي شكلت الهوية الجزائرية، وتُبرز أهمية الحفاظ على تراثها كجزء لا يتجزأ من الذاكرة الثقافية الوطنية.

ثانيا: الحاضر المعقد: تحديات البقاء والاستمرار

1. التحديات العمرانية والسكانية

اليوم، تواجه القصبة تحديات جمة لم تشهدها من قبل. التآكل العمراني يهدد العديد من المباني التاريخية، والنزوح السكاني يفرغها من سكانها الأصليين الذين كانوا حراس تراثها الحيين. الشباب يهجرون القصبة بحثاً عن فرص عمل أفضل في الأحياء الحديثة، تاركين وراءهم بيوت الأجداد لتواجه عوامل الزمن وحدها.

البنية التحتية المتهالكة، من شبكات المياه والكهرباء والصرف الصحي، تجعل الحياة في القصبة صعبة بمعايير العصر الحديث. وهذا يدفع المزيد من العائلات إلى البحث عن بدائل أكثر راحة في الأحياء الجديدة.

2. تراجع الحرف التقليدية

الحرف التقليدية التي كانت قوام الاقتصاد في القصبة تواجه اليوم منافسة شرسة من المنتجات الصناعية المستوردة. الحرفي التقليدي الذي يقضي أياماً في صنع قطعة واحدة من النحاس المنقوش، يجد نفسه في مواجهة منتجات صينية رخيصة تؤدي نفس الغرض الوظيفي وإن كانت تفتقر للروح الفنية والقيمة التراثية.

كما أن نقل المهارات من جيل إلى آخر بات أمراً صعباً. الشباب لا يجدون في تعلم الحرف التقليدية مستقبلاً مهنياً واعداً، فيتجهون نحو التعليم الحديث والمهن العصرية. وهكذا تضيع أسرار الحرفة وتقنياتها التي تراكمت عبر قرون.

3. التحدي الثقافي والهوياتي

في عصر العولمة والثقافة الرقمية، تبدو تقاليد القصبة وعاداتها أحياناً وكأنها من عالم آخر. الأجيال الجديدة التي نشأت على الأفلام الأمريكية والموسيقى الغربية والتكنولوجيا الحديثة، تجد صعوبة في التواصل مع تراث أجدادها.

اللغة الأمازيغية والعربية الكلاسيكية التي كانت تحفظ التراث الشفوي، تتراجع أمام اللهجة المحلية المختلطة بكلمات فرنسية وإنجليزية. والحكايات الشعبية والأمثال والأغاني التراثية تُنسى تدريجياً.

ثالثا: محاولات الإحياء والحفاظ

1. الجهود الرسمية

الدولة الجزائرية، مدركة لخطورة الوضع، اتخذت عدة خطوات للحفاظ على تراث القصبة. إدراج القصبة في قائمة التراث العالمي لليونسكو عام 1992 كان بداية الاعتراف الدولي بقيمتها التراثية. وتم إنشاء وكالة خاصة لترميم وحفظ القصبة، تعمل على استعادة المباني المتضررة وتحسين البنية التحتية.

مشاريع الترميم تستهدف المساجد والقصور والبيوت التراثية، مع محاولة الحفاظ على الطابع المعماري الأصيل. كما تم إنشاء متاحف ومراكز ثقافية لعرض التراث المادي وغير المادي للقصبة.

2. المبادرات الشعبية والمدنية

إلى جانب الجهود الرسمية، تنشط جمعيات مدنية ومبادرات شعبية للحفاظ على تراث القصبة. حرفيون متحمسون يحاولون إحياء الصناعات التقليدية، وفنانون يجتهدون في توثيق التراث الموسيقي والشعري، وباحثون يجمعون الحكايات والأمثال الشعبية قبل أن تضيع نهائياً.

بعض العائلات العريقة في القصبة تقاوم الهجرة وتحاول البقاء للحفاظ على البيوت التراثية. وشباب متطوعون ينظمون فعاليات ثقافية ومهرجانات لإعادة الحياة إلى أزقة القصبة.

5. السياحة الثقافية كحل جزئي

السياحة الثقافية بدأت تلعب دوراً في إحياء القصبة اقتصادياً. السياح الأجانب والمحليون الذين يزورون القصبة يشكلون سوقاً للمنتجات الحرفية التقليدية، مما يشجع بعض الحرفيين على الاستمرار في عملهم.

فنادق تراثية تم ترميمها لاستقبال السياح، ومطاعم تقدم الأكلات الجزائرية التقليدية، ومحلات تبيع التحف والصناعات اليدوية. كل هذا يساهم في إعادة بعض الحيوية الاقتصادية للقصبة.

رابعا: نماذج من التراث المهدد والمحفوظ

1. الموسيقى التراثية

الموسيقى الأندلسية والحوزي والشعبي الجزائري كانت جزءاً لا يتجزأ من الحياة في القصبة. اليوم، هناك محاولات لإحياء هذا التراث الموسيقي من خلال معاهد متخصصة وفرق موسيقية تحافظ على الأساليب التقليدية في العزف والغناء.

المقامات الموسيقية الأندلسية المعقدة، والآلات التقليدية مثل العود والقانون والرباب، تحتاج إلى جهود مضاعفة للحفاظ عليها ونقلها للأجيال الجديدة.

2. فنون الطبخ التراثي

المطبخ الجزائري في القصبة كان مدرسة متكاملة لفنون الطهي التقليدي. أطباق مثل الكسكس والشخشوخة والضولمة والقطايف، كلها تحمل في طياتها تاريخاً وثقافة. اليوم، تحاول جدات القصبة نقل أسرار هذه الأطباق لأحفادهن، بينما تنظم ورش تدريبية لتعليم فنون الطبخ التراثي.

3. الألبسة التقليدية

الحايك والقفطان والبرنوس والشاشية، كلها قطع من التراث الجزائري التي كانت تُصنع في القصبة. اليوم، هناك محاولات لإحياء هذه الصناعات، خاصة للمناسبات الخاصة والأعراس التقليدية.

خامسا: رؤية مستقبلية: التوازن بين الأصالة والمعاصرة

1. نحو تنمية مستدامة للتراث

الحل الأمثل لحفظ تراث القصبة لا يكمن في تجميدها كمتحف مفتوح، بل في إيجاد نموذج تنموي مستدام يحافظ على أصالتها ويواكب متطلبات العصر. هذا يتطلب:

إعادة تأهيل البنية التحتية مع الحفاظ على الطابع المعماري التراثي، وتشجيع السكان الأصليين على البقاء من خلال تحسين ظروف المعيشة، وإحياء الحرف التقليدية بطرق عصرية تجمع بين الأصالة والجودة العالية.

2. دور التكنولوجيا في حفظ التراث

التكنولوجيا الحديثة يمكن أن تلعب دوراً مهماً في توثيق وحفظ التراث اللامادي للقصبة. التسجيلات الصوتية والمرئية للحرفيين المسنين وهم يمارسون مهنهم، وتوثيق الحكايات والأغاني الشعبية، وإنشاء أرشيف رقمي شامل للتراث الجزائري.

كما يمكن استخدام تقنيات الواقع الافتراضي والذكاء الاصطناعي لإعادة إحياء مشاهد من الحياة التقليدية في القصبة، وتقديمها للأجيال الجديدة بطريقة تفاعلية مشوقة.

3. التعليم والتربية على التراث

المدارس والجامعات يجب أن تلعب دوراً أكبر في تعريف الأجيال الجديدة بتراثهم. مناهج دراسية تتضمن تاريخ القصبة وتراثها، ورحلات مدرسية منتظمة إليها، وورش تدريبية لتعلم الحرف التقليدية، كلها وسائل لربط الشباب بجذورهم الثقافية.

خامسا: القصبة، جسر بين الماضي والمستقبل

تراث القصبة ليس مجرد ذكريات جميلة من الماضي، بل هو رصيد حضاري يمكن أن يساهم في بناء مستقبل أفضل. التحدي الحقيقي هو كيفية الحفاظ على جوهر هذا التراث وروحه، مع تطويره بما يتناسب مع متطلبات العصر.

القصبة اليوم تقف على مفترق طرق: إما أن تستسلم لعوامل التآكل والنسيان، أو أن تنهض من جديد كنموذج فريد للتنمية التراثية المستدامة. الخيار في أيدي الجزائريين جميعاً، حكومة وشعباً، مثقفين ومواطنين عاديين.

إن إنقاذ تراث القصبة هو إنقاذ لجزء من الهوية الجزائرية والمغاربية والإسلامية. وهو استثمار في المستقبل، لأن الشعوب التي تحافظ على تراثها هي الشعوب التي تملك البوصلة الصحيحة لمواجهة تحديات المستقبل.

في كل حجر من أحجار القصبة ذاكرة، وفي كل زقاق من أزقتها حكاية، وفي كل بيت من بيوتها تاريخ. والحفاظ على هذا الكنز التراثي مسؤولية جماعية لا تقبل التأجيل. فالتراث، مثل الحياة، إذا لم نحافظ عليه اليوم، فقد نفقده للأبد.

1. القصبة: جدلية الاستمرارية والتغير في الفضاء العمراني

إن قراءة القصبة من منظور أنثروبولوجي تقتضي فهمها ككيان ديناميكي يعكس تحولات المجتمع الجزائري عبر الزمن، فهي ليست مجرد مجموعة من الأبنية التراثية، بل هي فضاء معيش يحتضن أنماط السلوك والتفاعل الاجتماعي، ويجسد الذاكرة الجماعية للسكان. هذه الذاكرة، المتشكلة عبر قرون من التراكمات الثقافية، لم تتوقف عند استيعاب التأثيرات الأندلسية والعثمانية، بل استمرت في إعادة إنتاج ذاتها بما يتلاءم مع التحولات التاريخية والسياسية التي شهدتها المدينة.

استمرارية الهوية العمرانية للقصبة رغم تعاقب السلطات السياسية على الجزائر تعكس علاقة السكان العميقة بالفضاء المعماري الذي يعيشون فيه، فالبيوت التقليدية بأسطحها المتقاربة وأزقتها المتشابكة، لم تكن مجرد وحدات سكنية، بل كانت امتدادًا لبنية اجتماعية تتأسس على مفاهيم القربى والجيرة والتكافل، هذا التفاعل بين الشكل المعماري والنمط الاجتماعي هو ما جعل القصبة فضاءً عضويًا يعيد تشكيل ذاته وفقًا لاحتياجات السكان، دون أن يفقد روحه الأصلية. . الأحياء المتداخلة والمنازل المتجاورة لم تكن تُبنى وفق تخطيط هندسي صارم فحسب، بل وفق منطق اجتماعي يراعي خصوصية الأفراد دون أن يعزلهم عن بعضهم البعض، فالأزقة الضيقة التي تخترق القصبة ليست مجرد ممرات تؤدي إلى البيوت، بل هي فضاءات تواصلية حيث تُنسج العلاقات اليومية، وتُعقد الحوارات، وتتشكل روابط الانتماء، هذا التشابك العمراني لم يكن عشوائيًا، بل كان يخضع لفلسفة تضمن الأمن الاجتماعي، حيث يسمح التصميم للساكن بأن يكون جزءًا من نسيج الحي دون أن يفقد خصوصيته، وهو ما يظهر جليًا في تصميم المنازل التي تنفتح على الداخل من خلال الأفنية المغلقة، بينما تظل واجهاتها الخارجية متقشفة، تعكس قيم التواضع والحفاظ على الحميمية الأسرية.

هنا يصبح الفضاء المعماري للقصبة انعكاسًا لأنماط العيش وقيم المجتمع، حيث تتماهى الحدود بين المجال الخاص والمجال العام في علاقة تكاملية دقيقة، فالساحات الداخلية للمنازل لم تكن مجرد فراغات وظيفية بل كانت القلب النابض للحياة الأسرية، حيث يلتقي أفراد العائلة، وتتداخل الأجيال،

وتُروى الحكايات التي تنسج الذاكرة الجماعية للسكان، أما الأزقة الضيقة فقد كانت تشكل امتدادًا لهذه الحياة الداخلية، حيث تتحول إلى مساحات اجتماعية مفتوحة تُعقد فيها المجالس، وتُنقل فيها الأخبار، وتُبنى فيها علاقات الجيرة القائمة على الثقة والتآزر.

إن هذا التفاعل بين الشكل المعماري والنمط الاجتماعي هو ما جعل القصبة فضاءً عضويًا يعيد تشكيل ذاته وفقًا لاحتياجات السكان، دون أن يفقد روحه الأصلية، ففي كل حقبة تاريخية ورغم التحولات السياسية والاقتصادية التي عرفتها الجزائر، ظل الفضاء العمراني للقصبة محتفظًا بهيكليته الأساسية، مستوعبًا التغيرات دون أن يفقد طابعه الخاص، والسبب في ذلك لا يعود فقط إلى متانة العمارة التقليدية أو جمالياتها، بل إلى الدور الاجتماعي الذي لعبته هذه الأبنية في تشكيل هوية سكانها، حيث لم يكن البيت مجرد مأوى، بل كان امتدادًا للذات، يختزن الذكريات، ويعبر عن القيم، ويشكل جزءًا من النسيج العاطفي للأفراد.

لكن مع دخول الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر، تعرضت هذه الاستمرارية لصدمة عنيفة، حيث تم تفكيك البنية التقليدية للقصبة من خلال سياسات عمرانية هدفت إلى طمس معالمها الإسلامية وتعطيل وظائفها الاجتماعية. فقد تم هدم العديد من المعالم الدينية، وتم تحويل بعضها إلى كنائس وثكنات عسكرية، في محاولة لفرض هوية استعمارية على الفضاء العمراني. هذه العملية لم تكن مجرد تغيير في البنية المادية للمدينة، بل كانت محاولة لإعادة تشكيل أنماط العيش والتفاعل الاجتماعي، ما أدى إلى خلخلة التوازنات التقليدية التي كانت تحكم حياة السكان.

ورغم هذه التحديات، فإن القصبة لم تفقد هويتها بالكامل، بل تحولت إلى مركز للمقاومة الثقافية والدينية. فقد لعبت المساجد والزوايا دورًا رئيسيًا في الحفاظ على الروح الإسلامية للمدينة، حيث ظلت منارات للعلم والتربية الروحية، وأسهمت في تعزيز الوعي الوطني خلال الحقبة الاستعمارية. ومن اللافت أن الفضاء العمراني للقصبة، رغم تعرضه للضغوط، استمر في أداء وظائفه التقليدية، حيث ظلت الأزقة الضيقة والمساحات الداخلية للمنازل أماكن للتفاعل الاجتماعي الذي يتجاوز البعد المادي للمكان.

2. التحديات المعاصرة

في مرحلة ما بعد الاستقلال، واجهت القصبة تحديات جديدة مرتبطة بالتمدن والتوسع العمراني الحديث، فقد أدى النزوح الريفي وتغير أنماط العيش إلى تراجع الاهتمام بالحفاظ على الطابع التقليدي

للمدينة، ما أدى إلى تدهور العديد من مبانيها وانحسار الوظائف الاجتماعية التي كانت تؤديها، ومع ذلك فإن جهود الترميم التي انطلقت في العقود الأخيرة تعكس وعيًا متزايدًا بأهمية استعادة هذا الإرث الحضاري، ليس فقط باعتباره جزءًا من التراث المعماري، بل كفضاء حي يحمل دلالات اجتماعية وثقافية عميقة.

التحدي الحقيقي اليوم لا يكمن في ترميم المباني بقدر ما يتمثل في إعادة إحياء النسيج الاجتماعي للقصبة، بحيث تستعيد وظيفتها كفضاء جامع يعكس روح المجتمع الجزائري في تنوعه وتكامله، وهنا تبرز الحاجة إلى مقاربة أنثروبولوجية لفهم كيفية إعادة إدماج القصبة في النسيج الحضري المعاصر دون أن تفقد أصالتها، بحيث لا تتحول إلى مجرد متحف مفتوح، بل تظل فضاءً نابضًا بالحياة يعكس استمرارية الذاكرة الجماعية لسكانها.

تبقى القصبة شاهدًا على جدلية الاستمرارية والتغير، فهي ليست مجرد بقايا معمارية صامدة في وجه الزمن، بل هي كيان حي يعيد تشكيل ذاته باستمرار، في عملية لا تتوقف عند حدود التاريخ، بل تمتد إلى الحاضر والمستقبل.

وفي مواجهة هذه التحديات، برزت جهود للحفاظ على القصبة تُعنى بإعادة تأهيلها وترميم مبانيها التاريخية، فقد أطلقت الحكومة الجزائرية بالتعاون مع منظمات دولية ومؤسسات ثقافية برامج شاملة لصيانة المباني التراثية، تهدف إلى إعادة البريق إلى تلك المنشآت التي تأثرت بمرور الزمن، ومن بين هذه الجهود توجد مشاريع ترميم دقيقة تتضمن استخدام تقنيات حديثة ومناهج تقليدية تضمن الحفاظ على المكونات الأصلية مثل الحجر الجيري والنقوش الجصية والزليج، مع مراعاة توافقها مع المعايير البيئية الحديثة، كما يتم العمل على تطوير البنية التحتية العامة في القصبة، بما يشمل تحسين نظام الصرف الصحي وتحديث الخدمات الأساسية دون المساس بجوهر الفضاء الحضري التقليدي.

تسعى هذه المبادرات إلى تحقيق توازن بين حماية التراث وتنمية المنطقة بشكل مستدام، إذ تُعتبر القصبة ليس فقط متحفًا مفتوحًا يعكس التاريخ العريق للجزائر، بل فضاءً حيًّا يشارك سكانه هويتهم الثقافية والاجتماعية، وفي هذا السياق يُظهر البحث الأنثروبولوجي أهمية استيعاب الديناميات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أدت إلى هذه التحديات، بالإضافة إلى تحليل الاستراتيجيات الفعالة لإعادة

بناء الذاكرة الجماعية وترسيخ الهوية الحضرية للقصبة، كخطوة أساسية نحو الحفاظ على هذا الإرث العالمي.

سادسا: السياحة الثقافية كفرصة: كيف نُعرّف بالقصبة؟

1. جولات ثقافية تقودها نساء من الحيّ يروين الحكايات المحلية

في الأزقة المتعرجة لقصبة الجزائر، حيث تختلط رائحة الخبز الطازج بأصوات الأبواب الخشبية التي تصدر أنينها القديم، تتوارى خلف الجدران حكايات لم تُروَ بعد، تسكنها نساء يحملن ذاكرة المدينة في قلوبهن، لا في الكتب. فالسياحة الثقافية في هذا السياق لا تقتصر على التجوال بين البيوت العتيقة والقصور المهجورة، بل تصبح رحلةً في الزمن تقودها الجدّات والأمهات والنساء الحافظات لذاكرة المكان.

ليست نساء القصبة مجرّد ساكنات في حيّ قديم، بل هنّ حارسات للمعنى. يعرفن ما لا تقوله اللافتات، ويحفظن ما لم يُكتب في كُتيّبات التراث: يعرفن أسماء البيوت قبل أن تحمل أرقامًا، ويعرفن من مات فيها، ومن غنّى، ومن هاجر، ومن عاد. . . يعرفن الطقوس القديمة، وأغاني العُرس، وأسرار الخبز المعجون بالدعاء، وتلك الحركات الصغيرة التي لا تُرى، لكنها تصنع نسيج الحياة.

إن إدماج النساء في قيادة جولات ثقافية داخل القصبة لا يجب أن يُنظر إليه كفعل رمزي أو خطوة تجميلية لبرامج السياحة، بل هو استرجاع لسلطة السرد التي سُلِبت منهنّ طويلاً، واعترافٌ بأن التراث غير المادي لا يُروى إلا بألسنة من عاشه، لا من وثّقه فقط. حين تقود امرأة من القصبة زائرًا أجنبيًا، أو شابًا جزائريًا جاء باحثًا عن جذوره، فإنها لا تقدم له معطيات جامدة، بل تفتح له أبوابًا إلى ما هو أعمق: العلاقة بين الإنسان والمكان، بين الذكرى والهوية، بين الأنوثة والمدينة.

في أحد هذه البرامج، قد تبدأ الجولة من ساحةٍ صغيرة حيث كان الأطفال يلعبون، لتروي المرأة كيف كان "العيد" يُصنع، وكيف كانت الجدّات يُطرّزن القصص مع الزينة. تمرُّ بهم على فرن قديم، فتشرح كيف كانت الجارات يتناوبن على خبز كسرة العيد، وتحكي لهم عن العادات في "الحايك"، وعن الشموع التي تُوقد في المواسم، وعن الأغاني التي لا تُغنّى إلا للفرح أو للحزن.

إن السياحة الثقافية الحقيقية لا تكتفي بإبهار الزائر بجمال المعمار، بل تسعى لأن تُدهشه بجمال المعنى.

والمعنى، هنا، تحمله تلك النساء اللواتي يعشن في القصبة، بين الأزقة الرطبة والبيوت العتيقة. فهنّ الرابط بين الماضي والحاضر، بين الحجر والروح، بين الشكل والمحتوى. إن جعلهنّ في صدارة المشهد السياحي، لا يكرّس فقط دور المرأة في الحفاظ على التراث، بل يساهم في إعادة الاعتبار لطرق السرد الشفوية، التي لطالما هُمِّشت في مقابل التوثيق الرسمي واللغة المؤرشفة.

كما أن إشراك نساء القصبة في السياحة الثقافية يمثل أيضًا فرصة اقتصادية وتمكينية لهن، في مجتمع لا تزال المرأة فيه تُواجه تحديات على صعيد الحضور العمومي والاعتراف بدورها في الحقول الثقافية والمهنية. فالجولات التي تقودها نساء محليات يمكن أن تُدمَج ضمن برامج تعليمية، أو عروض موجهة للسياح الأجانب، أو حتى لطلبة علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، مما يمنحهن مصدر دخل، ومجال تعبير، ومكانة في قلب السياسات الثقافية.

لكن هذا المشروع يتطلب إرادة مؤسساتية وتخطيطًا دقيقًا: فلابد من تدريب هؤلاء النسوة على مهارات الإرشاد الثقافي دون أن يُفقدن عفويتهن أو طابع السرد الشفهي الذي يميزهن. كما يجب توفير منصات إعلامية للترويج لهذه الجولات بطريقة تحترم الكرامة وتُبرز القيمة، لا أن تقع في فخ الفولكلور السطحي.

إن تحويل القصبة إلى مساحة تُروى فيها الحكايات من أفواه النساء هو خطوة نحو ترميم الهوية الثقافية من الداخل. ففي الوقت الذي تتجه فيه السياحة في العالم نحو التجارب الأصيلة، تمتلك القصبة كنزًا حيًّا اسمه "نساء الذاكرة"، ينتظر فقط من يعترف به، ويمنحه المنصة التي يستحقها.

2. ورش الحِرف التقليدية في القصبة: فضاءٌ لإعادة إنتاج المعنى

تمثل الحِرف التقليدية، وعلى رأسها صناعة النحاس والخزف، أحد أهم أشكال التراث غير المادي في القصبة. هذه الحِرف ليست مجرد تقنيات يدوية أو أنشطة اقتصادية، بل تُعبّر عن نظام معرفي متكامل، يُختزن داخل الجسد الحرفي ويُورّث عبر الممارسة اليومية، لا من خلال النصوص أو المناهج.

في السياق الأنثروبولوجي، تُصنَّف هذه الممارسات ضمن ما يُعرف بـ"المعرفة العملية المتجسدة " (*embodied knowledge*)، حيث لا تُفصل المهارة عن السياق الثقافي الذي نشأت فيه، فعملية تشكيل النحاس، مثلًا ليست حيادية أو تقنية فحسب، بل ترتبط بإيقاع المكان، بذاكرة المكان، وبعلاقات

اجتماعية تتجسد في الورشة ذاتها: الحرفي، المتدرّب، الزبون، العابر. . . كلهم يشكّلون وحدة عضوية ضمن نسيج الحياة الحرفية.

فتح ورش العمل أمام الزوار في إطار السياحة الثقافية لا يعني تحويلها إلى عروض مسرحية، بل يُمكن – إذا أُدير بشكل واعٍ – أن يُشكّل وسيلة لإعادة الاعتبار للمعرفة الحرفية بوصفها إنتاجًا ثقافيًا ومجالًا للفعل الاجتماعي. فالحرفي في هذه الحالة لا يؤدي دورًا تراثيًا جامدًا، بل يُمارس فعله الحي، ويقوم بما يُشبه "نقل المعنى" بين عالمه المحلي والعالم الخارجي، ممثَّلًا في الزائر.

هذا التفاعل يُعيد تشكيل العلاقة بين الذات الثقافية والآخر، ويحوّل السياحة من مجرد استهلاك إلى فضاء تبادلي، تتقاطع فيه الخبرات والقيم. فالزائر لا يكتفي بالمشاهدة، بل قد يشارك في بعض العمليات الحرفية، ما يسمح له بمقاربة التراث من الداخل، لا كشيء معروض، بل كمعرفة تُمارس.

من منظور الأنثروبولوجيا الاقتصادية والثقافية، يمكن القول إن هذه الورش تُشكّل نوعًا من الاقتصاد الرمزي، حيث لا يُقاس المنتج فقط بوظيفته السوقية، بل بما يحمله من رموز، وارتباطات اجتماعية، وخلفيات تاريخية. وتكمن خطورة "السياحة غير المسؤولة" هنا في أن تُفرغ هذه الرموز من مضمونها، وتحوّل الحرفي إلى "مؤدٍّ"، لا إلى فاعل ثقافي.

لذلك، من الضروري أن تُصمَّم هذه الورش السياحية انطلاقًا من مبادئ واضحة:

- أن يكون الحرفي شريكًا فاعلًا لا مجرد أداة عرض.
- أن تُبنى البرامج بالتشاور مع المجتمع المحلي وليس بفرض رؤى خارجية.
- أن يُخصَّص جزء من العائد الاقتصادي لصالح استدامة الحرفة وتدريب الأجيال الجديدة.
- أن تُرافق السياحة بجهود توثيق أنثروبولوجي للمعارف الحرفية، خاصة أن كثيرًا منها لا يزال شفويًا ومتوارثًا.

يمكن القول إن ورش النحاس والخزف المفتوحة أمام الزوار ليست فقط وسيلة لجذب السياح، بل فضاء لتجديد الذاكرة الجماعية، وإعادة الاعتراف بالمعارف الصامتة، وترسيخ علاقة أكثر عدالة بين الثقافة والاقتصاد.

3. الحكواتي في القصبة: الراوي كحارس للذاكرة ومُوجّه ثقافي

في زوايا القصبة، بعيدًا عن المسارات الرسمية للسياحة والخرائط الحضرية، كان هناك دائمًا صوت يروي: صوت الجدّات، الشيوخ، أو الراوي الشعبي الذي يُعرف شعبيًا بـ"الحكواتي". لم يكن هذا الراوي مجرّد ناقل للقصص، بل كان يقوم بوظيفة ثقافية عميقة، يُعيد من خلالها إنتاج المخيال الجماعي، ويرسّخ أنماطًا من الفهم والسلوك عبر السرد الشفهي.

من منظور أنثروبولوجي، يمكن اعتبار الحكواتي **فاعلًا ثقافيًا مركزيًا** في المجتمعات التقليدية. إنه وسيط بين الماضي والحاضر، بين النص الشفهي والمتلقي، وبين المجتمع ومخزونه الرمزي. وهو لا يروي فقط، بل **يصوغ العالم** من جديد. القصص التي يرويها لا تُقدَّم بهدف الترفيه فحسب، بل لأداء وظائف متعددة:

- **نقل القيم والمعايير الاجتماعية** (الصدق، الشجاعة، التضامن)
- **تحفيز الذاكرة الجمعية** من خلال استعادة أحداث محلية وأبطال شعبيين.
- **خلق الانتماء** من خلال إعادة تشكيل العلاقة بين الإنسان ومكانه.

في القصبة، كان الحكواتي يمارس فعله داخل مقاهٍ شعبية، أو في زوايا الحي، وغالبًا ما يرتبط بصور مكانية محددة. وبذلك فإن **فعل الحكي ذاته يتحوّل إلى طقس اجتماعي**، يتكرر، ويؤسس لحظات من الزمن الجماعي خارج إيقاع الحياة اليومية.

1. 3. في السياحة الثقافية: كيف يمكن إحياء دور الحكواتي؟

في إطار السياحة الثقافية، يُمكن للحكواتي أن يستعيد مكانته بوصفه آلية أصيلة للتفاعل الثقافي، ليس فقط من خلال إعادة تقديم القصص التراثية، بل من خلال:

- تنظيم جلسات حكي موجهة للزوار داخل فضاءات تقليدية (مقاهي، ساحات، أروقة)
- استخدام اللهجة المحلية في نقل الحكايات، مما يُضفي على التجربة طابعًا حيًّا وغير مصطنع.
- دمج الحكي بوسائط سمعية وبصرية لإعادة إحياء الشخصيات الشعبية، والمرويات القديمة.

- خلق تفاعل مع الزائر: لا يكون المتلقي سلبيًا، بل يشارك بالسؤال والتعليق وربما بتقاسم حكايته الخاصة.

من المهم أن يُفهم الحكواتي هنا ليس كـ"مؤدٍّ" لفلكلور ميت، بل كفاعل أنثروبولوجي يُعيد تجديد الثقافة الشعبية في سياقات معاصرة. فالسياحة الثقافية، إن كانت مسؤولة، تُعيد للراوي صوته لا بوصفه مؤرشفًا، بل بوصفه منبعًا حيويًا لإعادة تشكيل الذاكرة والهوية.

2. 3. التحديات الممكنة:

لكن إدماج الحكي الشعبي في العروض السياحية يواجه تحديات واضحة:

- **الخطر من "الاستشراق الذاتي"**، حيث يُجبر الحكواتي على تقديم صورة مشتهاة للسائح، بدلًا من تقديم ثقافته كما هي.
- **السطحية التجارية**، اختزال القصص في نماذج جاهزة تفقدها عمقها التاريخي والاجتماعي.
- **التهميش داخل السياسات الثقافية**، باعتبار الحكاية الشفوية أدنى قيمة من النصوص المكتوبة.

3. 3. نحو إعادة الاعتبار للراوي كعنصر من التراث الحي

إدماج الحكاية الشعبية ضمن السياحة الثقافية بالقصبة يحتاج إلى:

- توثيق ميداني شامل للرواة الكبار وحكاياتهم، قبل اندثارهم.
- إعداد برامج تدريبية للرواة الجدد، تدمج المعرفة السردية بالمهارات التفاعلية.
- تحفيز المشاريع السياحية المجتمعية التي تدمج الحكي داخل التجربة الثقافية.
- تخصيص فضاءات للحكي داخل الأحياء القديمة (ساحات، مقاهي، مدارس تراثية).

4. تنظيم مهرجانات شعبية تُحيي الموسيقى التقليدية والمواويل النسائية

من بين الاستراتيجيات الممكنة لإعادة إحياء التراث غير المادي في القصبة، تبرز فكرة تنظيم مهرجانات شعبية تُعيد الاعتبار للموسيقى التقليدية والمواويل النسائية، هذه الفعاليات إذا أُدرجت ضمن سياسة ثقافية واعية، يمكن أن تمثّل فضاءً اجتماعيًا لتفعيل الذاكرة الجماعية، لا مجرد أحداث احتفالية ظرفية.

فالموسيقى الشعبية، والمواويل النسائية على وجه الخصوص، ليست فقط تعبيرات فنية، بل هي ممارسات ثقافية مشحونة بالرموز والدلالات، تؤدي دورًا محوريًا في إعادة إنتاج المنظومة القيمية للمجتمع المحلي. ومن منظور أنثروبولوجي، فإن هذه الأشكال التعبيرية تُعد امتدادًا للسرد الشفوي، ووسيطًا لنقل المعارف والمواقف من جيل إلى جيل، خاصة في سياقات تُقيَّد فيها وسائل التعبير الرسمية أو المؤسسية.

المرأة في هذا السياق لا تُمارس الغناء كمجرد أداء صوتي، بل تُنتج عبره خطابًا ضمنيًا حول الذات، والمكان، والعلاقات الاجتماعية. فالموال يُستخدم لتفريغ الوجدان، للشكوى، للحب، للحكمة الشعبية، وغالبًا ما يُؤدى في سياقات جماعية، ذات طابع طقسي أو احتفالي. إدراج هذه الممارسات في مهرجانات مفتوحة يمكن أن يُعيد ربطها بالفضاء العام، ويُخرجها من نطاق الذاكرة المعزولة إلى الحضور العمومي المشترك.

غير أن تفعيل هذا الشكل من التراث لا يمكن أن يكون فعّالًا إلا بشروط: أولها أن تُصمَّم هذه المهرجانات انطلاقًا من التشاور مع الفاعلين الثقافيين المحليين، بما فيهم النساء المؤديات، والفرق الشعبية، ومختصو التراث. كما ينبغي أن تتجنب الفعاليات التقديم الاستعراضي أو الفولكلوري السطحي الذي يُفرغ التراث من معناه، ويُقدّمه كمنتَج استهلاكي للزائر.

في المقابل، يمكن لهذه المبادرات أن تلعب دورًا مزدوجًا: فهي من جهة تُعيد للتراث موقعه داخل الحياة الثقافية اليومية، ومن جهة أخرى تُوفّر منصات للتلاقي بين الزوار والمجتمع المحلي في إطار من التفاعل والتبادل، بدلًا من العلاقة الاستهلاكية القائمة على المشاهدة فقط.

إن إعادة تفعيل المواويل النسائية والموسيقى التقليدية داخل فضاءات المهرجان لا تُعد فقط وسيلة للحفاظ على التراث، بل هي شكل من أشكال المقاومة الثقافية في وجه محو الذاكرة، وتفكك

الروابط الرمزية داخل المجتمع. وهذا ما يجعل من السياحة الثقافية أداة ممكنة لإعادة ربط الماضي بالحاضر، شرط أن تظل مدفوعة بمنظور ثقافي مسؤول، لا بمنطق السوق وحده.

5. إنشاء متاحف حية داخل البيوت القديمة في القصبة

من المبادرات النوعية التي يمكن أن تُسهم في الحفاظ على التراث غير المادي في القصبة، فكرة إنشاء متاحف حية داخل البيوت التقليدية القديمة، تُعرض فيها تفاصيل الحياة اليومية كما كانت تُمارس في السياق التاريخي للمكان. لا يتعلق الأمر بمجرد نقل الأدوات القديمة أو إعادة ترتيب الأثاث، بل بإعادة خلق سيناريو معيش ملموس يُمكّن الزائر من التفاعل مع الأنماط الاجتماعية والثقافية التي شكّلت الحياة الحضرية في القصبة.

في هذا الإطار، يُعدّ المتحف الحي نموذجًا أنثروبولوجيًا تفاعليًا، يتجاوز منطق العرض الساكن إلى إعادة إنتاج التجربة الثقافية. يُمكن أن يحتوي هذا النوع من المتاحف على أنشطة يومية حيّة، مثل طقوس تحضير القهوة أو الخبز، جلسات الخياطة أو التطريز، ترتيب البيت وفق منطق الفضاءات التقليدية، بل وحتى استقبال الزوار بطريقة تُحاكي آداب الضيافة القديمة. هذه التفاصيل تُعيد تقديم المعيش كذاكرة مادية، وتسمح للزائر بفهم الأبعاد الرمزية للسلوك اليومي، لا بوصفه روتينًا، بل باعتباره شيفرة ثقافية متكاملة.

تكمن قوة هذه المتاحف في قدرتها على تفعيل الذاكرة الحسية: الأصوات، الروائح، الإضاءة، العلاقات بين الفضاءات، كلها عناصر تُشارك في بناء إدراك عميق ومباشر للثقافة المحلية. من منظور أنثروبولوجيا الفضاء، فإن البيت التقليدي ليس مجرد بناية، بل هو فضاء اجتماعي مُنظَّم وفق قيم محددة (العائلة، الشرف، الخصوصية، الضيافة)، وكل زاوية فيه تحمل دلالة اجتماعية ومعرفية.

إضافة إلى ذلك، تُوفّر هذه المتاحف الحية إمكانيات لتشغيل المجتمع المحلي، حيث يمكن للأهالي أنفسهم أن يُشاركوا في تقديم هذه التجربة للزوار، بصفتهم رُواة، أو حرفيين، أو مضيفين، مما يُحوّل السياحة إلى فضاء تشاركي لا يستنزف الثقافة بل يُعيد إنتاجها.

لكن مثل هذه المبادرات لا يمكن أن تنجح دون إطار مؤسساتي يدعمها، من حيث التوثيق، الترميم، التدريب، والتسويق. كما أن الحفاظ على أصالة هذه البيوت يتطلب توازنًا دقيقًا بين الحفاظ والترميم، وبين العرض الثقافي والحياة اليومية، حتى لا تتحوّل القصبة إلى فضاء "مجمّد"، بل تظل حيّة ومتفاعلة.

سابعا: قصبة الجزائر في السياسات الثقافية: حضور أم غياب؟

رغم تصنيف **قصبة الجزائر** كتراث عالمي من قبل اليونسكو منذ سنة 1992، فإن الواقع الميداني يُظهر أن هذا الاعتراف لم يُترجم بعد إلى سياسة ثقافية فعالة أو إلى ممارسات مؤسساتية قادرة على حفظ القيمة الرمزية والمعيشية لهذا الفضاء. فالقصبة، التي تشكّل واحدًا من أكثر الأنسجة الحضرية تعقيدًا وغنًى في شمال إفريقيا، لا تزال تعاني من التآكل البطيء، ليس فقط على مستوى البنية المادية، بل الأهم من ذلك على مستوى النسيج الاجتماعي والثقافي غير المادي.

يبدو واضحًا من خلال تتبّع السياسات الرسمية أن هناك فجوة بنيوية بين الخطاب الثقافي وبين آليات التدخل الفعلي. فمن جهة، تُروّج مؤسسات الدولة للقصبة كرمز للهوية الوطنية، وتُدرجها ضمن قائمة المواقع التراثية الكبرى، لكنها من جهة أخرى تُقصي المجتمع المحلي من أي دور فعّال في صناعة القرار أو المساهمة في مشاريع الترميم أو إعادة التفعيل السياحي والثقافي. هذا الإقصاء يُحوّل السكان من فاعلين إلى متلقّين، ويجعل التراث موضوعًا "يُدار من فوق"، بدل أن يكون ممارسة جماعية تُعيد إنتاج نفسها من الداخل.

ضعف السياسات الثقافية لا يتجلّى فقط في غياب التمويل أو نقص الترميم، بل في غياب منظور تكاملي يربط بين التراث غير المادي وبين السياحة، والتعليم، والإعلام، والتنمية المحلية. فالقصبة ليست مجرد معمار عثماني يجب الحفاظ عليه، بل هي نمط عيش متكامل، يتضمن الحرف، والعادات، والطقوس، والمرويات الشفوية، والعلاقات الاجتماعية، والتراتبية الرمزية للفضاءات. هذا الفهم الغائب يجعل السياسات تُركّز على الجدران دون الالتفات إلى الحياة التي تسكنها.

السياحة الثقافية – والتي يُفترض أن تكون أحد أهم الروافد لإنعاش القصبة – تُمارس حاليًا بمنطق موسمي، استهلاكي، وغير مندمج في النسيج المحلي. فالمبادرات السياحية القائمة، في حال وجودها، نادرًا ما تُصمَّم بشراكة مع سكان القصبة أو وفق رؤيتهم لتراثهم، بل غالبًا ما تُفرض عليهم، وتُقدّم التراث كمنتج معلب للزائر، لا كعالم حيّ ذي خصوصية وتعقيد. وبهذا تتحول السياحة من فرصة للحفاظ على التراث إلى عامل تهديد، خصوصًا عندما تكون منفصلة عن التوثيق الأنثروبولوجي، والتأطير التربوي، والمرافقة المجتمعية.

أحد الأبعاد المغفَلة في السياسات الثقافية هو غياب استراتيجية إعلامية وتربوية فعالة تُعيد تقديم القصبة للأجيال الجديدة، لا باعتبارها منطقة "أثرية" أو "قديمة"، بل باعتبارها مجالًا حيًا يُعبّر عن هوية متعددة الطبقات: عربية، أمازيغية، إسلامية، متوسطية، ومغاربية. فالإعلام، سواء التقليدي أو الرقمي، لا يزال يتعامل مع القصبة إما بنوع من الرومانسية الفولكلورية، أو من خلال مقاربات أمنية واجتماعية سلبية، ما يُعزز الصور النمطية بدل أن يفككها. أما المدرسة، التي يفترض أن تكون حاضنة للتراث، فهي لا تُدرج القصبة ضمن برامجها التعليمية إلا بشكل سطحي ومناسباتي، ما يُكرّس قطيعة معرفية ونفسية بين الأجيال الجديدة وموروثهم الحي.

أمام هذا الواقع، يُطرح التساؤل: هل يمكن بناء سياسة ثقافية بديلة تُعيد للقصبة معناها العميق ومكانتها بوصفها فضاءً للذاكرة والهوية والمقاومة الرمزية؟ الجواب ممكن، لكنه يتطلب تحولًا في الرؤية: من مقاربة تراثية "حفاظية" جامدة، إلى مقاربة ديناميكية ترى في القصبة كائنًا اجتماعيًا متحوّلًا، لا مجموعة مبانٍ يجب إنقاذها فقط، بل نظامًا ثقافيًا يُعاد إنتاجه يوميًا عبر اللغة، والعلاقات، والطقوس، والحركات، والسرديات.

لتحقيق ذلك، لا بد من إشراك الفاعلين المحليين، من حرفيين، وفنانين، ونساء، وشباب، ضمن مشاريع تُمكّنهم من تملك تراثهم لا بوصفه ماضيًا يُحنّط، بل بوصفه موردًا رمزيًا واقتصاديًا قابلًا للتجديد. كما ينبغي دعم البحث الأنثروبولوجي والسوسيولوجي حول القصبة، لا لجرد "التراث" فقط، بل لفهم الديناميكيات الثقافية والاجتماعية التي تُعيد تشكيل المكان وتعيد تعريف العلاقة به.

وعليه، فإن حضور القصبة في السياسات الثقافية لا يُقاس بعدد الشعارات أو التصنيفات الدولية، بل بمدى تحوّل هذه السياسات إلى ممارسات ملموسة تُسهم في حفظ الذاكرة، وتمكين المجتمع المحلي، وتوليد أنماط جديدة من العلاقة بين السكان، والمؤسسات، والزوار. فقط حين تُدرَك القصبة بوصفها نسيجًا حيًا متعدد المعاني، يمكننا الحديث عن سياسة ثقافية فعالة، وعن تراث لا يُصان فقط، بل يُنقل ويُفَعّل ويُنتَج من جديد.

ثامنا: نحو إنقاذ التراث الحيّ: توصيات واستشراف

إن الحديث عن الحفاظ على تراث القصبة، بوصفه نسيجًا حيًا ومكوّنًا من مكوّنات الهوية الجمعية، لا يمكن أن يكتمل دون التفكير في آفاق عملية تُسهم في نقله وتفعيله داخل دورة الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. فالتراث غير المادي، على عكس البنى المعمارية الجامدة، لا يُصان بالترميم فقط، بل يتطلب فعلًا اجتماعيًا مستمرًا يُعيد إنتاجه في الحاضر، ويضمن استمراريته نحو المستقبل.

وفي هذا السياق، تبرز الحاجة الملحّة إلى تحفيز فئة الشباب داخل القصبة، ليس فقط بوصفهم فاعلين ثقافيين محتملين، بل أيضًا بصفتهم حاملي الذاكرة المستقبلية. المشاريع الصغيرة والمتوسطة التي يطلقها شباب المنطقة، إذا ما ارتبطت بالتراث المحلي (كالحرف، السرديات الشفوية، الضيافة، أو التصميم الثقافي)، يمكن أن تُسهم في إعادة ربط الجذور الثقافية بالمعيش اليومي، وتخلق اقتصادًا ثقافيًا ذا طابع اجتماعي، يعيد للتراث قيمته الرمزية، ويمنحه أيضًا وظيفة اقتصادية ملموسة. غير أن هذا المسار يتطلب توفير بيئة داعمة: من التكوين إلى التمويل، ومن المواكبة إلى التسويق.

إلى جانب ذلك، لا يمكن إنقاذ التراث غير المادي دون إشراك المؤسسات الأكاديمية، ولا سيما الجامعات ومراكز البحث، في عمليات التوثيق والتحليل والتفسير. فغياب قاعدة معرفية دقيقة حول مكوّنات هذا التراث، من طقوس وعادات ومواويل وأمثال وطقوس عبور وغيرها، يُؤدّي إلى فقدان تدريجي للمعنى، ويُكرّس هيمنة الروايات العمومية أو الاستشراقية التي تُعيد تقديم القصبة من الخارج. لهذا فإن البحث الأنثروبولوجي الميداني، المندمج مع المجتمع المحلي، يُعدّ شرطًا أساسيًا لبناء خريطة دقيقة للتراث الحيّ، تُشكّل مرجعية لكل تدخل مستقبلي، سواء في السياحة أو التعليم أو الإعلام.

من جهة أخرى، فإن تكوين مرشدين ثقافيين محلّيين من أبناء القصبة يمكن أن يُحدث فرقًا نوعيًا في تجارب الزوّار. فالمعرفة الداخلية التي يحملها هؤلاء الأفراد لا تُختزل في معلومات تاريخية مؤطّرة، بل تمتد إلى سرديات معيشة، ولغة يومية، وإحساس بالمكان لا يمكن نقله عبر الكتب أو النشرات السياحية. المرشد المحلي لا يلعب فقط دورًا تفسيريًا، بل يُعيد تشكيل العلاقة بين الزائر والمكان، ويُحوّل السياحة إلى تفاعل ثقافي لا إلى استهلاك بصري.

كما أن السياحة التربوية تمثّل مجالًا واعدًا في هذا الصدد، إذ يمكن أن تُعيد ربط الأجيال الجديدة بموروثهم المحلي من خلال زيارات ميدانية مرافقة ببُعد تعليمي تفاعلي، لا يقتصر على المشاهدة، بل يمتد إلى المشاركة والتعلّم. المدرسة، في هذا السياق، لا يجب أن تكتفي بتدريس "التراث" كمحتوى معرفي، بل يُفترض أن تتحوّل إلى فاعل ثقافي يُفعّل التراث داخل التجربة المدرسية ذاتها. زيارة القصبة ليست مجرد نزهة، بل هي رحلة استكشافية في الزمن والمكان والهوية، يمكن أن تُزرع في وعي التلميذ بوصفها تجربة مؤسِّسة.

في ضوء كل هذا، فإن الحفاظ على التراث غير المادي في القصبة لا يمكن أن يكون مجرّد شعارات أو تدخلات ظرفية، بل يجب أن يقوم على استراتيجية مندمجة تجمع بين الشباب، والمجتمع المحلي، والمؤسسات الأكاديمية، والمنظومة التربوية، وتُعيد صياغة العلاقة بين الفاعلين والمكان والتراث بشكل ديناميكي. إنها عملية استثمار في الزمن الطويل، تتطلب صبرًا، وشراكة، وتفكيكًا مستمرًا للصور النمطية، لبناء مستقبل يكون فيه التراث جزءًا من الحياة، لا مجرد ذاكرة محنّطة.

إن إنقاذ التراث غير المادي في القصبة لا يمكن أن يتحقق من خلال الجهود الرمزية وحدها أو عبر الترميمات المعمارية المنفصلة عن الحركية الاجتماعية. فالتراث الحي، بطبيعته، لا يُصان فقط بالحفاظ، بل يُعاد إنتاجه بشكل مستمر من خلال الفاعلين المحليين، والممارسات اليومية، والمخيال الجماعي. من هنا تبرز الحاجة إلى استراتيجية تشاركية تأخذ بعين الاعتبار الإمكانات الكامنة داخل المجتمع القصباوي نفسه، بدل أن تُفرض عليه من الخارج. أولى هذه الخطوات تتمثل في تحفيز الشباب على استثمار هذا التراث في مشاريع ثقافية وسياحية قاعدية، تستلهم من الموروث المحلي رؤىً معاصرة في الحرف، والعروض الثقافية، والإعلام الجديد. فالشباب ليسوا فقط مستهلكين للتراث، بل يمكن أن يتحوّلوا إلى منتجين له، شرط أن يُمنحوا الأدوات والدعم والتكوين الذي يسمح لهم بذلك. تحويل الحيّ إلى مختبر مفتوح للابتكار الثقافي، ضمن منطق اقتصادي مستدام، يمكن أن يُعيد ربط الأجيال الجديدة بجذورها، ويمنح القصبة دينامية جديدة تعيد دمجها في الدورة الحضرية والرمزية للمدينة.

من جهة أخرى، يبقى التوثيق العلمي للتراث غير المادي خطوة مركزية، لا من حيث الحفظ فقط، بل من حيث الفهم العميق للممارسات الثقافية والرموز والسلوكيات التي تشكل نسيج الحياة القصباوية. وهنا تلعب الجامعات ومراكز البحث دورًا محوريًا ينبغي تفعيله، من خلال إشراك الباحثين في مشاريع ميدانية تُراكم معرفة أنثروبولوجية وسوسيولوجية دقيقة، وتحول القصبة إلى حقل دراسة حيّ،

لا مجرد موضوع مؤتمرات. التوثيق وحده لا يكفي إن لم يكن موجّهًا أيضًا نحو الفعل، أي نحو تحويل المعرفة إلى أدوات لبناء السياسات الثقافية، والمناهج التربوية، والمضامين الإعلامية.

وفي سياق إعادة ربط الزوار بالتراث بطريقة غير استهلاكية، تظهر أهمية تكوين مرشدين ثقافيين من أبناء القصبة أنفسهم. هؤلاء لا يقدمون معلومات جاهزة، بل يسردون المكان من الداخل، بلغته، وذاكرته، وتحولاته. فهم، بخلاف المرشد التقليدي، لا ينقلون تاريخًا رسميًا، بل ينقلون التاريخ الحيّ الذي لا يزال ينبض في الأزقة، في الطقوس اليومية، وفي العلاقات التي تنسجها العائلات والأنشطة الحرفية. تكوين هؤلاء المرشدين لا يجب أن يكون مجرد تدريب تقني، بل برنامجًا معرفيًا وجماليًا يُمكّنهم من التفاوض مع الزوار على معنى المكان، ويُعيد تقديم القصبة كثقافة حيّة لا كمشهد أثري.

أخيرًا، فإن ربط المدرسة بالقصبة يمثل رهانًا استراتيجيًا، إذ أن إعادة إدماج التلاميذ في بيئتهم الثقافية الأصلية من خلال زيارات مدرسية موجهة، ومشاريع تعلمية ميدانية، يمكن أن يُسهم في بناء علاقة وجدانية ومعرفية جديدة بين الأجيال الصاعدة والمكان. السياحة التربوية لا تعني فقط التنقل إلى مواقع تاريخية، بل تعني الانخراط في عملية استكشاف للهوية داخل الفضاء المعاش، ومساءلة التاريخ المحلي، واكتساب أدوات القراءة الثقافية للحيّ. هذا النوع من التجارب قد يُحوّل القصبة من "مكان" إلى "مرجعية"، ويُعيد صياغة علاقتها بالمدينة الحديثة، لا كحيّ معزول، بل كذاكرة مؤسِّسة ومعاصرة في آنٍ واحد.

خلاصة الفصل الخامس:

يُبرز هذا الفصل أن قصبة الجزائر ليست مجرد موقع تاريخي يختزن ماضياً منقضياً، بل فضاءً يتقاطع فيه الزمنان: زمن التراكم الحضاري وزمن التحولات المعاصرة، فالقصبة، بما تحمله من رصيد رمزي ومادي، تشكّل أحد أهم المراجع الثقافية في الوعي الوطني، غير أن حضورها الثقافي لا يخلو من توتر بنيوي بين القيمة الرمزية المعترف بها، والهشاشة الواقعية التي تهدد استمراريتها.

أظهر التحليل أن أهمية القصبة في السياق الثقافي تتجاوز بعدها المعماري إلى كونها حاضنة لذاكرة جماعية، ومجالاً لإنتاج المعنى والانتماء، غير أن هذا الثقل الرمزي يقابله حاضر معقّد تتداخل فيه التحديات العمرانية، والضغوط الاقتصادية، وتغير أنماط العيش، ما يجعل مسألة البقاء والاستمرار إشكالية تتطلب مقاربة شاملة لا تقتصر على الترميم التقني.

كما كشف الفصل عن محدودية بعض محاولات الإحياء والحفاظ، التي غالباً ما تركز على الجانب الشكلي دون إدماج فعلي للسكان بوصفهم فاعلين أساسيين في إعادة إنتاج التراث، فالتعامل مع القصبة كـ«متحف مفتوح» أو كواجهة سياحية يُخاطر بإفراغها من وظيفتها الاجتماعية الحية، ويحوّلها إلى فضاء مُسَيَّج بالحنين أكثر مما هو مرتبط بالحياة اليومية، وفي المقابل، تُظهر بعض النماذج المحفوظة أو المبادرات المحلية إمكانية بناء مسار بديل، يقوم على التوازن بين الأصالة والمعاصرة. فالقصبة يمكن أن تكون جسراً بين الماضي والمستقبل، شرط أن يُفهم التراث بوصفه طاقة اجتماعية قابلة للتجدد، لا عبئاً تاريخياً يُصان خارج سياقه.

تُبرز السياحة الثقافية، في هذا الإطار، إمكانات واعدة لكنها غير مُؤَسَّسة بما يكفي. إذ إن التعريف بالقصبة لا ينبغي أن يُختزل في عروض استعراضية، بل يتطلب استراتيجية تدمج التراث اللامادي، وتُفعّل الاقتصاد الثقافي في خدمة المجتمع المحلي. كما يطرح الفصل تساؤلاً نقدياً حول موقع القصبة في السياسات الثقافية: هل هي أولوية فعلية أم رمز احتفالي موسمي؟، وعليه، يدعو الفصل إلى إعادة صياغة العلاقة بين الدولة والمجتمع في إدارة التراث، من خلال سياسات تشاركية، متعددة التخصصات، تراعي البعد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في آن واحد. فنجاح أي مشروع لإنقاذ التراث الحي مرهون بإشراك الفاعلين المحليين، وربط الحفظ بالتنمية المستدامة، وتعزيز الوعي التربوي والثقافي لدى الأجيال الجديدة.

في المحصلة، يُظهر الفصل الخامس أن قصبة الجزائر تمثل مختبراً حياً لتحولات المجتمع الجزائري في علاقته بتراثه: فهي بين ماضٍ يفرض حضوره الرمزي، وحاضر يختبر قدرتها على الصمود، ومستقبل يتوقف على مدى قدرتنا على تحويل التراث من موضوع للحنين إلى مشروع جماعي للاستمرارية والتجدد.


نتائج الدراسة

نتائج الدراسة:

لقد قادت الدراسة، من خلال تتبع مسارات التراث المادي واللامادي في قصبة الجزائر، ومن خلال المقاربة الأنثروبولوجية التي جمعت بين الملاحظة الميدانية، والتحليل الثقافي، والمقاربة التاريخية، إلى مجموعة من النتائج التي يمكن إجمالها ضمن ثلاثة مستويات مترابطة: معرفية، تحليلية، واستشرافية.

أولًا: على المستوى المعرفي والرمزي

1. القصبة بوصفها "حيًا رمزيًا" أكثر منها معلمًا ماديًا:

بينت الدراسة أن قصبة الجزائر ليست فقط كيانًا عمرانيًا ذا قيمة تاريخية، بل هي *فضاء اجتماعي وثقافي* ينبض بالحياة، ومشحون بالرموز والدلالات. فالهندسة المعمارية، والأزقة، والأبواب، والحمامات، ليست عناصر مادية فحسب، بل هي حوامل لمعانٍ تُعيد إنتاج الهوية، وتحفظ الذاكرة الجمعية، وتُجسد استمرارية الجماعة.

2. التراث اللامادي كمؤشر على حيوية الثقافة:

تُظهر أنماط العيش اليومية – من الحكايات الشفوية، إلى الحرف التقليدية، والطقوس الاجتماعية – أن التراث اللامادي في القصبة لا يزال حيًّا، وإن كان يعيش حالة من الانحسار بفعل ضغوط التمدين والعولمة. ومع ذلك، يبقى هذا التراث مؤشرًا على مقاومة صامتة، يمارسها السكان في الحفاظ على معانيهم الداخلية، وإن بطرق غير مؤسساتية.

3. التراث كمنتَج تفاوضي لا كيان جوهري:

لا يمكن التعامل مع التراث القصباوي بوصفه كيانًا ثابتًا أو "جوهرًا" نقيًا، بل هو عملية تفاوض اجتماعي مستمرة، تتدخل فيها قوى السلطة، وتيارات السوق، ورهانات الهوية.

ويعيد الأفراد إنتاج هذا التراث، أحيانًا في أشكال هجينة أو رمزية، تعكس صراعات داخلية بين الماضي والحاضر، وبين المحلي والعالمي.

ثانيًا: على المستوى التحليلي والميداني

4. **فجوة بين السياسات الرسمية والممارسات المجتمعية:**

أظهرت الدراسة وجود تناقض بيّن بين تصنيف القصبة كموقع تراث عالمي من طرف اليونسكو (1992)، وبين هشاشة الممارسات الميدانية المتعلقة بالحفاظ عليها، إذ إن السياسات الثقافية ظلت تُركّز على الترميم العمراني، دون اعتبار لأهمية دمج السكان، أو تعزيز التراث غير المادي الذي يشكل روح المكان.

5. **إقصاء النسق المجتمعي المحلي من مشاريع الترميم:**

في أغلب الحالات، تتم مقاربات الترميم أو "تثمين التراث" وفق منظور فوقي تقني، بعيد عن الحاجات الفعلية للسكان. وقد لاحظنا في العمل الميداني غياب إشراك الفاعلين المحليين – خصوصًا النساء والحرفيين – الذين يشكلون الحُماة الفعليين للثقافة الحية في القصبة.

6. **السياحة الثقافية كفرصة مهدورة وغير مُمَأسسة:**

رغم الإمكانات الهائلة التي يتيحها التراث القصباوي لتطوير سياحة ثقافية مستدامة، تُظهر الوقائع وجود غياب شبه تام لاستراتيجيات تربط السياحة بالتراث اللامادي. إذ تظل العروض السياحية، في حال وجودها، سطحية واستعراضية، ولا تُعبّر عن العمق الثقافي أو الطابع الحي للفضاء المحلي.

7. **أشكال مستجدة من مقاومة الاندثار:**

لاحظت الدراسة وجود مبادرات شبابية وحرفية جديدة تسعى إلى إعادة إحياء التراث من الأسفل، مثل ورشات تعليم الحرف، وتنظيم مهرجانات فنية صغيرة، وإنتاج محتوى رقمي يُعرّف بالموروث. هذه المبادرات تعكس انتقالًا من "حفظ التراث" إلى "إنتاج التراث"، ضمن حراك مدني متصاعد.

ثالثًا: على المستوى الاستشرافي والاقتراحي

8. **الحاجة إلى إعادة بناء علاقة جديدة مع التراث:**

التراث، كما أبرزت الدراسة، ليس ماضيًا محفوظًا، بل حاضرًا قابلًا للتأويل والإنتاج. لذا لا بد من الانتقال من خطاب الصون إلى خطاب *الاستمرارية الحية*، ومن سياسات الحفظ العمراني إلى سياسات الإدماج الثقافي والاجتماعي، بما يعيد المعنى إلى التراث في سياقاته الحقيقية.

9. **التراث كمورد للتنمية المستدامة:**

يمكن للقصبة أن تكون نموذجًا حيًّا لكيفية تفعيل التراث في خدمة التنمية، إذا ما تم دمج السكان المحليين في مسارات التثمين، وتمت إعادة توجيه الاقتصاد الثقافي ليكون أداة لبناء قدرات المجتمع، لا وسيلة لتسليع الرموز أو استهلاك الهوية.

10. **ضرورة مقاربة متعددة التخصصات:**

أثبتت الدراسة أن معالجة قضايا التراث لا يمكن أن تتم من زاوية واحدة (كالهندسة أو التاريخ فحسب)، بل يجب أن تكون مقاربة أنثروبولوجية–اجتماعية–اقتصادية–ثقافية، تُنصت للفاعلين، وتقرأ التحولات، وتُصغي لصوت الجماعة في علاقتها بالزمن والمكان.


الخاتمة

خاتمة:

في خضم التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تشهدها الجزائر والعالم العربي عمومًا، تبرز مسألة التراث ليس فقط بوصفها قضية ماضٍ ينبغي الحفاظ عليه، بل كإشكالية أنثروبولوجية معاصرة تتعلق بإنتاج المعنى، وبناء الهوية، وصياغة العلاقة بين الجماعة والمكان، بين الذاكرة والسلطة، وبين الأصالة والتجديد. وقد سعت هذه الأطروحة إلى مساءلة هذا التراث انطلاقًا من نموذج "قصبة الجزائر"، باعتبارها فضاءً سوسيومعرفيًا مركبًا، تختلط فيه الرواسب التاريخية بالحياة اليومية، وتتفاعل فيه الرموز والممارسات في نسيج معقد من الدلالات الثقافية.

لقد بيّنت الدراسة أن القصبة ليست مجرد حيّ قديم أو موقع أثري جامد، بل هي *كائن حضري* حيّ، تتنفس فيه الجماعة معاني الانتماء، وتتوارث فيه أنماط العيش، وتُمارس فيه الذاكرة سلطتها الرمزية. القصبة، بهذا المعنى، ليست "أثرًا" فحسب، بل "أثر فاعل" في تشكيل الحاضر، من خلال استمرار ممارسات الطقوس، والحِرف، والمرويات، والعلاقات الاجتماعية المتشابكة التي تنطوي على أنماط من التعايش، والتضامن، والتجذر في المكان. وهي أيضًا مرآة لتاريخ طويل من التفاعل الحضاري، وفضاء للاحتكاك بين المحلي والعثماني، بين العربي والمتوسطي، بين الإسلامي والغربي، دون أن تفقد خصوصيتها البنيوية والرمزية.

إنّ التراث الذي تحمله القصبة بشقّيه المادي واللامادي، ليس محصورًا في الجدران والمآذن والزخارف، بل هو موجود أيضًا في الأسواق، والحمامات، والملابس، والمأكولات، والأهازيج، وفي طقوس الزواج والولادة والوفاة. وهو ما يجعل مقاربة هذا التراث من منظور أنثروبولوجي ضرورة علمية، لفهمه بوصفه نسقًا دلاليًا متكاملًا، تتداخل فيه العناصر المعمارية مع النُظم الرمزية، وتتقاطع فيه البنى الاجتماعية مع أشكال التمثّل والتخيل الجماعي.

لكن ما كشفته الدراسة أيضًا هو حجم التحديات المعاصرة التي تواجه هذا التراث، وفي مقدمتها التوسع العمراني غير المنضبط، والضغوط الاقتصادية، وانفصال السياسات الثقافية عن الواقع الميداني، فضلًا عن تمثلات السلطة التي تختزل القصبة في مشروع ترميم معماري دون مراعاة للمكون الإنساني والثقافي الحيّ. إلى ذلك، تلعب العولمة دورًا مضاعفًا، حيث تهدد أنماط الحياة التقليدية بالتآكل، وتُعيد

صياغة الأذواق والقيم والتصورات، خاصة لدى الأجيال الجديدة، مما يطرح إشكالية كبرى تتعلق باستمرارية التراث وتجدده داخل منطق التحديث.

رغم ذلك، تُظهر الأطروحة أن التراث القصباوي لا يزال يحتفظ بحيوية داخلية، بفضل المبادرات المجتمعية، والذاكرة الجماعية، وبعض المشاريع السياحية والثقافية. فالمجتمع المحلي ليس متلقيًا سلبيًا لسياسات الحفظ، بل فاعلًا فيها، يُعيد إنتاج المعنى عبر الحياة اليومية، ويُمارس المقاومة الثقافية من خلال استمرار الطقوس، وتمرير الحكايات، والإصرار على الحفاظ على نمط عيش متجذر في المكان.

وقد أبرزت الأطروحة أهمية دمج التراث في السياسات الثقافية والتربوية والسياحية، ليس فقط عبر خطابات النوايا، بل من خلال مشاريع ملموسة تُشرك السكان، وتُراعي الخصوصيات المحلية، وتستثمر في الاقتصاد الرمزي للتراث. كما دعت إلى تفعيل دور الجامعة والبحث العلمي في توثيق هذا التراث وتفسيره وتأويله، وتكوين جيل من المرشدين والمربين والفاعلين الثقافيين المرتبطين بتراثهم لا فقط عاطفيًا، بل أيضًا معرفيًا ومهنيًا.

من الناحية النظرية، تُسهم هذه الأطروحة في تجديد الأدبيات الأنثروبولوجية حول التراث، من خلال تأكيدها على ضرورة الانتقال من خطاب "الحفاظ على التراث" بوصفه ممارسة تقنية أو تراثوية، إلى خطاب "إنتاج التراث" بوصفه ممارسة ثقافية تتجدد مع الزمن، ويُعاد إنتاجها بفعل التفاعل بين الجماعة والبيئة والسياق. كما تطرح سؤالًا محوريًا حول كيفية الموازنة بين الأصالة والانفتاح، بين المحافظة والتجديد، دون السقوط في فخ السياحة الفولكلورية أو في اختزال الهوية إلى ماضٍ ساكن لا يتحرك.

وفي ضوء ذلك، فإن القصبة – باعتبارها أنموذجًا – تُظهر أن التراث ليس ما نحتفظ به فقط، بل هو ما نعيشه يوميًا، وما نعيد إنتاجه باستمرار، وما نصوغه في علاقتنا بالمكان والزمان والآخر. وإذا أردنا حقًا حماية هذا التراث، فعلينا أن نُعيد إليه سياقه الحيّ، وصوته المحلي، ومعناه الحيّ، وأن ننقله من خانة "الجمود" إلى حقل "التحول"، في أفق أن يُصبح عنصرًا فاعلًا في التنمية المستدامة، وبناء الذات الجماعية، وترسيخ التعددية الثقافية التي لطالما شكّلت جوهر الشخصية الجزائرية.

وبذلك، تكون هذه الأطروحة قد حاولت – ضمن حدودها – تأصيل فهم أنثروبولوجي جديد للتراث بوصفه هوية متحركة لا جوهرًا ثابتًا، ورصدت كيفية تشكّل هذه الهوية في رحاب القصبة، عبر الحجارة

والصوت والذاكرة والجسد، ضمن رؤية تركّز على الإنسان بوصفه فاعلًا ثقافيًا قبل أن يكون مجرّد مُتلقي أو حافظ للموروث.

- المقترحات:

مقترحات عملية ومنهجية

1. في الجانب الإداري والقانوني

- **إنشاء "مرصد وطني لهوية القصبة** :"يتولى مراقبة أي تغييرات عمرانية قد تمس بالأصالة التاريخية للمباني والأسواق.
- **تفعيل "بطاقة الحرفي التراثي:** تقديم امتيازات ضريبية للحرفيين الذين يمارسون مهن القصبة التقليدية (النحاس، الخشب، الخزف) لضمان عدم اندثارها.

2. في الجانب الاجتماعي والسياحي

- **مبدأ "التراث الحي:** تشجيع العائلات الأصيلة على البقاء في منازلها (بعد ترميمها) بدلاً من تحويل القصبة إلى "مدينة أشباح" أو متحف جامد، لأن الإنسان هو حامل الهوية الحقيقي.
- **استحداث "مسارات الهوية:** تصميم مسارات سياحية موضوعاتية (مثلاً: مسار الثورة، مسار المساجد العتيقة، مسار الحرف) لتعريف الشباب والسياح بعمق الهوية الجزائرية.

3. في الجانب التعليمي والبحثي

- **إدراج "أدب القصبة وعمارتها" في المناهج:** تنظيم رحلات مدرسية دورية وورشات عمل للأطفال داخل "دار الصوف" أو "قصر الرايس" لترسيخ الهوية في الأجيال الناشئة.
- **رقمنة التراث (القصبة الذكية):** إنشاء منصات تفاعلية وخرائط رقمية توثق "التراث غير المادي" (قصص السكان، تاريخ الأزقة، الأغاني الشعبية) لحمايتها من الضياع.

4. في الجانب الاقتصادي

- **دعم "الاقتصاد الإبداعي:** تحويل بعض القصور المرممة إلى مراكز تدريب للحرف التقليدية تجمع بين التصميم الحديث والروح التراثية، مما يخلق فرص عمل للشباب.

وهنا نعيد التأكيد على أن القصبة ليست مجرد حجارة صماء، بل هي **كيان حي** يحتاج إلى استراتيجية تجمع بين "الحجر" (الترميم) و"البشر" (الحفاظ على السكان والحرف).

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب العربية (منظمة أكاديميًا)

1. أحمد بن نعمان، **سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية**، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، الجزائر، 2017.
2. إبراهيم سعد الدين، **المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في الوطن العربي**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998.
3. التويجري عبد العزيز، **الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، الرباط، المغرب، 2015.
4. الجابري محمد عابد، **التراث والحداثة: دراسات ومناقشات**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1991.
5. الخولي محمد، **فلسفة العمارة الإسلامية**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1994.
6. خلاصي علي، **قصبة مدينة الجزائر، الجزء الأول**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.
7. خلاصي علي، **قصبة مدينة الجزائر، الجزء الثاني**، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.
8. ديفولكس ألبير، **تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولكس**، ترجمة وتحقيق بدر الدين بلقاضي ومصطفى بن حموش، منشورات موفم، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.
9. شريف ناصر، **العمارة العثمانية في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزائر، 1987.
10. عبد الرحمن جعفر الكناني، **منمنمات محمد راسم الجزائري: روح الشرق في الفن التشكيلي العالمي**، منشورات الإبرز، الجزائر، الجزائر، 2012.

11. عبد القادر نور الدين، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، دار الحضارة، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2007.

12. عارف نصر محمد، **الحضارة – الثقافة – المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، الولايات المتحدة الأمريكية، 2001.

13. عمارة محمد، **مخاطر العولمة على الهوية الثقافية**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1999.

14. غليون عبد الله، **المدينة في الفكر الإسلامي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2001.

15. غيرتز كليفورد، **تأويل الثقافات**، ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2004.

16. في حسن حنفي، **التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1980.

17. حماد محمد، **البيت العربي الإسلامي**، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2008.

18. طه حميد حسن الكعبي، نرجس حسين زاير، **أصول البحث العلمي**، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، 2023.

19. مارك بلوخ، **الدفاع عن التاريخ أو مهنة المؤرخ**، ترجمة محمد عبد الله، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1996.

20. محمود زكي نجيب، **في فلسفة النقد**، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1993.

21. مالينوفسكي برونسلاف، **نظرية الثقافة**، ترجمة محمد غنيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984.

22. مالينوفسكي برونسلاف، **السحر والعلم والدين**، ترجمة عبد الله عبد الدايم، دار المعرفة، القاهرة، مصر، 1966.

23. مالينوفسكي برونسلاف، **أرجونات غرب المحيط الهادئ**، ترجمة عبد الله عبد الدايم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1987.

24. محمد الخطيب، **النظرية الأنثروبولوجية**، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2020.

25. نادل سيغفريد، **أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، ترجمة محمد عودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1994.

26. بيومي محمد، **جغرافيا المدن العربية الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1999.

27. بورديو بيير، **البيت أو العالم المقلوب**، ضمن *سوسيولوجيا الجزائر*، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1986.

28. بنك ماركوس، **المنهجيات البصرية في البحث الاجتماعي**، ترجمة حسن قبيسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2012.

29. إيفانز بريتشارد إدوارد، **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، ترجمة محمد عودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1991.

30. كولين هوارد، **الأنثروبولوجيا المرئية**، ترجمة عبد الله عبد الله، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، دون تاريخ.

ثانيًا: المقالات العلمية في المجلات المحكمة

31. حسن إبراهيم وآخرون، الوصف الأثري والمعماري لقصبة الجزائر التاريخية، مجلة الدراسات الأفريقية، المجلد 43، العدد 1، 2021,

32. خديجة نشار، «المنشآت المعمارية المائية في الجزائر العهد العثماني (نموذج — الخربة)»، دراسات في آثار الوطن العربي، المجلد 8، العدد 1، 2005،

33. ذبيح نوال قلاب، سياسة الحفاظ على المدينة التاريخية في إطار التنمية المستدامة: قصبة الجزائر العاصمة نموذجا، مجلة آفاق للعلوم، المجلد2، العدد 6، 2017،

34. رضوان شافو، عمر لمقدم، «نظرة حول الأنشطة الاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني»، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية(ASJP) ، المجلد 1، العدد 1، 2017،

35. رفيق خلاف، «قصبة الجزائر، حوصلة حول محاولات الحفظ والترميم»، دراسات تراثية، المجلد 11، العدد 1، 2017,

36. الزكية رادجاي، «مدينة الجزائر (القصبة) وأثر الموقع في تأسيسها»، دراسات في آثار الوطن العربي، المجلد 18، العدد 1، 2015,

37. ضاوية وداش، «قصبة الجزائر: اندثار نسيج حضري أم اندثار هوية حضرية»، دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 14، العدد 2، 2014

38. ضاوية، وداش، قصبة الجزائر: اندثار نسيج حضري أم اندثار هوية حضرية، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 14، العدد 2، جامعة الجيلالي ليابس – سيدي بلعباس، الجزائر، 31 ديسمبر 2014،

39. علام، مهدية، حول المشغولات المعدنية على عمائر قصبة الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الدراسات الأثرية، المجلد 16، العدد 1، 2018،

40. فاطيمة الزهرة جمعي، حمامات مدينة القصبة في العهد العثماني، مجلة دراسات تراثية، عدد:15، معهد الآثار جامعة الجزائر، الجزائر، 2021،

41. فوزي بودقة، وجه مدينة الجزائر وجوانب من مسارها العمراني، إنسانياتInsaniyat / ، العدد 44–45، 2009،

42. قربوع عبد الرزاق، التغير الثقافي وإشكالية تطور المدن التراثية في الجزائر: مقاربة سوسيوثقافية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، عدد خاص، 2014،

43. ملاس حسيبة، منكول فاطمة، تجليات البعد الاجتماعي والديني في عمارة المدينة العربية الإسلامية: حي القصبة العتيق (الجزائر) أنموذجًا، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 10، العدد 2، 2023،

44. هادفي، سمية، سوسيولوجيا المدينة وأنماط التنظيم الاجتماعي الحضري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 6، العدد 17، جامعة 20أوت 1955 – سكيكدة، الجزائر، ديسمبر 2014،

45. وحيد ساعد سعود، بلقاسم الذيب، البيئة السكنية في المدينة الصحراوية بين الممارسات الاجتماعية والتشريعات العمرانية: حي المخادمة، ورقلة، مجلة إنسانيات(CRASC) ، عدد 101، 2023،

ثالثًا: الأطروحات الجامعية (دكتوراه)

46. Rezzoug, Imène, *L'expérience architecturale des parcours de la Casbah d'Alger*, thèse de doctorat, École Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, Algérie, 2021.

47. Rezzoug, Imène, *L'expérience architecturale des parcours de la Casbah d'Alger*, thèse de doctorat, École Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, Algérie, 2021.

48. Zouaoui, Mohamed Amine, *Les caractéristiques structurelles des maisons de la Casbah d'Alger (tests et simulations)*, thèse de doctorat, École Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, Algérie, 2021.

49. Zouaoui, Mohamed Amine, *Les caractéristiques structurelles des maisons de la Casbah d'Alger (tests et simulations)*, thèse de doctorat,

École Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, Algérie, 2021.

50. زهير، نادية. دور الموانئ الجزائرية في التجارة الخارجية خلال العهد العثماني (1519 1830م): ميناء مدينة الجزائر أنموذجا. جامعة محمد بوضياف – المسيلة، 2025.

رابعًا: القوانين والنصوص الرسمية

51. الجريدة الرسمية، القانون رقم 98-24 المؤرخ في 02 صفر عام 2429 الموافق 25 يونيو سنة 1998، يتعلق بحماية التراث الثقافي، العدد 44.

52. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، القانون رقم 90-29 المتعلق بالتهيئة والتعمير، المادة 17، الجريدة الرسمية، العدد 52، 19 ديسمبر 1990.

53. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، القانون رقم 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي، المادة 02، الجريدة الرسمية، العدد 44، 15 يوليو 1998.

54. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الدستور الجزائري 2020، المادة 76، الجريدة الرسمية، العدد 82، 30 ديسمبر 2020.

55. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، القانون رقم 90-29 المتعلق بالتهيئة والتعمير، المادة 17، الجريدة الرسمية، العدد 52، 19 ديسمبر 1990.

56. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، القانون رقم 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي، المادة 02، الجريدة الرسمية، العدد 44، 15 يوليو 1998.

57. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الدستور الجزائري 2020، المادة 76، الجريدة الرسمية، العدد 82، 30 ديسمبر 2020.

خامسًا: المواقع الإلكترونية والمصادر الرقمية

58. مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، التراث الثقافي بالجزائر : المنظومة القانونيّة، عن الموقع الالكتروني https://turath.crasc.dz/index.php

59. فاروق كداش، حلة إلى حمامات القصبة العتيقة، نقلا عن الموقع الالكتروني: https://www.echoroukonline.com/...

60. قصبة الجزائر، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org/wiki/قصبة_الجزائر

61. ويكيبيديا، حمام سيدنا: https://ar.wikipedia.org/wiki/حمام_

62. تسعديت محمد، (2008)، النحاس في الجزائر.. حرفة عريقة توشك على الانقراض، نقلا عن الموقع الالكتروني: https://www.aljazeera.net/...

63. https://aja.me/mzefj

64. https://en.wikipedia.org/wiki/The_Interpretation_of_Cultures

65. بلكبير بومدين، قصبة الجزائر، «جدران بيضاء وأبواب مشرعة على التاريخ»، نقلا عن: https://alarabi.nccal.gov.kw/Home/Article/19391

66. موقع الشروق اونلاين، رحلة إلى حمامات القصبة العتيقة: https://www.echoroukonline.com/...

67. وكالة الأنباء الجزائرية، وفاة الهاشمي بن ميرة، عميد حرفيي النحاس بحي القصبة بالعاصمة: https://www.aps.dz/ar/culture/...

المراجع الأجنبية:

أولًا: الكتب(Books)

68. Bourdieu, Pierre, *Outline of a Theory of Practice*, Cambridge University Press, 1977.

69. Braudel Fernand, *La Méditerranée*, Armand colin, paris, 1991,

70. Castells, Manuel, *The Power of Identity*, The Information Age: Economy, Society and Culture, vol. II, Blackwell Publishers, Oxford, 1997.

71. Creswell, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, Oxford University Press, 1969.

72. Durant, Will, and Durant, Ariel, *The Story of Civilization*, Simon&Schuster, United States, 1944.

73. Evans-Pritchard, E. E., *Essays in Social Anthropology*, Faber and Faber, London, UK, 1962.

74. Graham, B., Ashworth, G. J., and Tunbridge, J. E., *A Geography of Heritage: Power, Culture and Economy*, Arnold Publishers, 2000.

75. Hachlaf, Mohamed Elhabib, *El Haoufi: Chants de femmes d'Algérie*, Éditions Alpha, Alger, 2006.

76. Jung, Carl Gustav, *The Archetypes and the Collective Unconscious*, University Press, 1984.

77. Liauze, Claude, *Histoire de l'Algérie coloniale*, La Découverte, Paris, 2004.

78. Mhamsadji, Kaddour, *Jeu de la Boukala (Contribution à une meilleure connaissance de ce divertissement éducatif et populaire)*, OPU, Alger, 1989.

79. Rapoport, Amos, *House Form and Culture*, Prentice-Hall, 1969.

80. Ravéreau, André, *La Casbah d'Alger et le site créa la ville*, Sindbad, Paris, 1989.

81. Ravéreau, André, *La Casbah d'Alger, et le site créa la ville*, Éditions Sindbad–Actes Sud, Arles, France, 2007.

82. Ricoeur, Paul, *Time and Narrative*, vol. 1, University of Chicago Press, 1984.

83. Rossi, Aldo, *The Architecture of the City*, MIT Press, 1982.

84. Steward, Julian H., *Theory of Culture Change: The Methodology of Multilinear Evolution*, University of Illinois Press, Urbana, USA, 1955.

ثالثًا: المقالات العلمية في المجلات المحكمة(Journal Articles)

85. Abadi, Tarek, and Meshta, Yacine, “Social Identity and Cultural Heritage in the Casbah of Algiers: A Field Study in the Context of Contemporary Changes,” *Al-Maghribi Journal of Manuscripts*, vol. 21, no. 1, 2025.

86. Corboz, André, “The Land as Palimpsest,” *Diogenes*, no. 121, 1983.

87. Mayouf, Fares, and Bendebili, Imane, “The Communication of Heritage Actors on the Heritage Identity of the Urban Casbah: A Comparative Study of the Casbahs of Algiers and Bejaia,” *International Journal of Social Communication*, vol. 12, no. 3, 2025.


الملاحق

قائمة الملاحق:

شبكة الملاحظة الخاصة بمختلف المظاهر الاجتماعية والثقافية في القصبة

نوع الممارسة	اجتماعية	دينية	ثقافية
تاريخ ملاحظتها			
زمن الملاحظة			
مكان الملاحظة			

دليل المقابلة الإثنوغرافية

(الموجّه لسكان قصبة الجزائر)

في إطار أطروحة

دور التراث في إبراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية " قصبة الجزائر أنموذجًا"

1. المدخل المنهجي للمقابلة (إطار إبستمولوجي)

هذه المقابلة ليست استبيانًا ولا تحقيقًا صحفيًا، بل هي أداة أنثروبولوجية تهدف إلى:

- استنطاق الخبرة المعيشة (Lived Experience)
- التقاط المعنى من وجهة نظر الفاعلين الاجتماعيين
- فهم الكيفية التي يُعاد بها إنتاج التراث والهوية في الحياة اليومية

2. البيانات العامة للمبحوث (غير مُنمِّطة)

- الجنس:
- الفئة العمرية:
- عدد سنوات الإقامة في القصبة:
- الأصل العائلي (هل العائلة قصباوية قديمة أم وافدة؟)
- النشاط أو المهنة (حرفي، ربّة بيت، تاجر، متقاعد، شاب)

المحور الأول: القصبة كفضاء معيش (المكان – الذاكرة – الانتماء)

1. ماذا تعني لك القصبة؟
2. هل تشعر أن العيش في القصبة يختلف عن العيش في أحياء أخرى من العاصمة؟ كيف؟

3. هل ترى أن القصبة مجرد حي قديم، أم شيئًا آخر؟ ولماذا؟

4. ما أكثر مكان في القصبة تشعر أنه "يمثّلك" أو يحمل معنى خاصًا لك؟

المحور الثاني: التراث في الحياة اليومية (المادي واللامادي)

5. عندما تسمع كلمة " التراث "، ماذا يخطر ببالك مباشرة؟

6. هل تشعر أن التراث حاضر في حياتك اليومية؟ كيف؟
(في البيت – اللباس – الطعام – الحيران – المناسبات)

7. ما العادات أو التقاليد التي ما زالت تُمارس في القصبة، وتشعر أنها " قصباوية أصيلة" ؟

8. هل هناك عادات اختفت؟ ولماذا برأيك؟

المحور الثالث: الحرف التقليدية والذاكرة الرمزية

9. هل تتذكر وجود حرف تقليدية في القصبة (نحاس، نجارة، تطريز...)؟

10. ماذا كانت تعني هذه الحرف سابقًا في حياة الناس؟

11. هل ترى أن اندثار الحرفة هو مجرد خسارة اقتصادية أم خسارة ثقافية؟ ولماذا؟

12. هل تشعر أن المنتجات التقليدية اليوم ما زالت تحمل نفس القيمة الرمزية؟

المحور الرابع: الجندر والطقوس (النساء – الرجال – المجال الرمزي)

13. من كان يدير الطقوس الاجتماعية (العرس، الحنّة، الولادة)؟ النساء أم الرجال؟ أم كلاهما؟

14. ما دور المرأة في الحفاظ على العادات داخل البيت؟

15. هل ترى أن هناك تغيّرًا في هذا الدور اليوم؟ كيف؟

16. هل تشعر أن بعض الطقوس فقدت معناها وأصبحت شكلًا فقط؟

المحور الخامس: الترميم، الدولة، والخوف على القصبة

17. ما رأيك في عمليات ترميم القصبة؟
18. هل تشعر أن الترميم يحافظ على روح القصبة أم يغيّرها؟
19. هل يتم إشراك السكان في القرارات المتعلقة بالقصبة؟
20. ما أكثر شيء تخاف أن تفقده القصبة في المستقبل؟

المحور السادس: الهوية والمستقبل

21. هل تشعر أن القصبة ما زالت تمثّل الهوية الجزائرية اليوم؟
22. ماذا يجب أن يحدث حتى تبقى القصبة حيّة، لا متحفًا؟
23. لو خاطبت الأجيال القادمة، ماذا تحب أن يعرفوا عن القصبة؟

الخاتمة الإثنوغرافية

أشكرك على هذا الحديث، هل هناك شيء تحب إضافته ولم أسألك عنه؟

دليل المقابلة الإثنوغرافية

(موجّه للمُخبِرين المحليين في قصبة الجزائر)

أطروحة إطار في

دور التراث في ابراز معالم الهوية الثقافية الجزائرية " قصبة الجزائر أنموذجًا "

المقابلة: نوع

مقابلة إثنوغرافية معمّقة موجّهة(In-depth Ethnographic Interview)

المبحوث: صفة

مُخبِر محلي (حامل معرفة/ذاكرة/خبرة مرتبطة بالقصبة)

أولًا: التعريف بالمُخبِر وسياق معرفته

1. كيف تُعرّف نفسك داخل القصبة؟ وما طبيعة علاقتك بها؟
2. منذ متى وأنت تعيش أو تشتغل أو تنشط في القصبة؟
3. ما الذي يجعلك، برأيك، شاهدًا أو حاملًا لمعرفة خاصة حول القصبة؟

ثانيًا: القصبة كفضاء تاريخي وثقافي

4. من وجهة نظرك، ما الذي يميز قصبة الجزائر عن باقي الأحياء أو المدن القديمة؟
5. كيف تقرأ تاريخ القصبة من خلال عمرانها، أزقتها، وبيوتها؟
6. هل ترى أن القصبة تحمل هوية واحدة أم هويات متداخلة؟ وكيف تشكّلت؟

ثالثًا: التراث بوصفه ممارسة حيّة

7. كيف تفهم مفهوم التراث داخل القصبة: هل هو ماضٍ محفوظ أم ممارسة مستمرة؟

8. ما أبرز أشكال التراث التي ما تزال حاضرة في الحياة اليومية للسكان؟

9. كيف تُنقل هذه المعارف والعادات من جيل إلى آخر داخل القصبة؟

رابعًا: التراث اللامادي والذاكرة الجماعية

10. ما أهمية المرويات الشفوية، الحكايات، والأمثال في حفظ ذاكرة القصبة؟

11. هل تعتقد أن القصبة فقدت جزءًا من ذاكرتها؟ ومتى بدأ ذلك؟

12. من هم، برأيك، حَمَلة الذاكرة اليوم داخل القصبة؟

خامسًا: الحرف التقليدية والمعنى الاجتماعي

13. كيف كانت الحرف التقليدية (النحاس، النجارة، الخياطة...) تُنظّم الحياة داخل القصبة؟

14. هل كانت الحرفة مجرد مورد رزق أم أسلوب عيش وهوية؟

15. ماذا يعني اندثار الحرف في نظرك: خسارة اقتصادية أم خسارة رمزية؟

سادسًا: الجندر والتراث

16. كيف تقرأ دور النساء في حفظ التراث داخل القصبة؟

17. هل ترى أن هناك توزيعًا رمزيًا للأدوار بين الرجال والنساء في إنتاج التراث واستهلاكه؟

18. كيف أثّر تغيّر أنماط العيش على هذا التوازن؟

سابعًا: التغير الاجتماعي والقطيعة الرمزية

19. متى بدأت التحولات العميقة في حياة القصبة برأيك؟

20. ما أثر الاستعمار، ثم الدولة الحديثة، على البنية الثقافية للقصبة؟

21. هل نحن اليوم أمام استمرارية تراثية أم قطيعة ثقافية؟

ثامنًا: الترميم والسياسات الرسمية

22. كيف تقيّم مشاريع الترميم التي عرفتها القصبة؟

23. هل تحافظ هذه المشاريع على روح المكان أم تكتفي بالشكل؟

24. هل يتم إشراك السكان والمخبريين في هذه السياسات؟

تاسعًا: القصبة والهوية الوطنية

25. كيف تُسهم القصبة في تشكيل الهوية الثقافية الجزائرية؟

26. هل ما تزال القصبة تمثل رمزًا وطنيًا في وعي الجزائريين اليوم؟

27. كيف يمكن إعادة ربط القصبة بالمجتمع الأوسع خارجها؟

عاشرًا: استشراف المستقبل

28. ما مصير القصبة إذا استمر الوضع على ما هو عليه؟

29. ما الشروط الضرورية لحماية القصبة دون تحويلها إلى متحف جامد؟

30. ما الرسالة التي تود توجيهها للباحثين وصنّاع القرار بخصوص القصبة؟

ختام المقابلة

31. هل هناك جانب من القصبة ترى أنه مُهمَل في الدراسات السابقة؟

32. هل تود إضافة شيء ترى أنه أساسي لفهم روح القصبة وهويتها؟